موسوعة تاريخ العصور الوسطى والحروب الصليبية



التاريخ السياسي والعسكري والإداري لصلاح الدين الأيوبي في معركة حطين وفتح بيت المقدس

د. علي محمد محمد الصلابي

دار الكتاب الحديث

إهـــــــداء٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

موسوعة تاريخ
العصور الوسطى
والحروب الصليبية

التاريخ السياسي والعسكري والإداري لصلاح الدين الأيوبي في معركة حطين وفتح بيت المقدس

الدكتور
علي محمد محمد الصلابي

دار الكتاب الحديث

953.07393 الصلابي ، علي محمد محمد .

ع م ت س التاريخ السياسي والعسكري والاداري لصلاح الدين الأيوبي/ علي محمد محمد الصلابي .-ط 1.- القاهرة:دار الكتاب الحديث ،2008م.

236 ص ؛ 24 سم .- موسوعة تاريخ العصور الوسطى والحروب الصليبية.

تدمك:1 -184-350-977

1- الدولة الايوبية . أ -العنوان .

دار الكتاب الحديث

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dkhadith@hotmail.com
رقم الإيداع	2008/1797
I.S.B.N	977- 350-184 -1

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله ونصرته، أهدى هذا الكتاب سائلاً المولى - عز وجل - بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿ ... فمن كان يرْجُو لِقاء ربِّهِ فلْيعْملْ عملاً صالحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبادةِ ربِّهِ أحدًا (١١٠) ﴾ [الكهف]

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا اتَّقُوا الله حقَّ تُقاته ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتُم مُّسلمُون (١٠٢) ﴾ (آل عمران).

﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكُمُ الَّذي خلقكُم مِّن نَّفْسٍ واحدةٍ وخلق منْها زوْجها وبثَّ منْهُما رجالاً كثيراً ونساءً واتَّقوا الله الَّذي تساءلُون به والأرْحام إنَّ الله كان عليْكُمْ رقيبًا (١) ﴾ (النساء).

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا اتَّقُوا الله وقُولُوا قوْلاً سديدًا (٧٠) يُصْلحْ لكُمْ أعْمالكُمْ ويغْفرْ لكُمْ ذُنُوبكُمْ ومن يُطع الله ورسُولهُ فقدْ فاز فوْزًا عظيمًا (٧١) ﴾ (الأحزاب).

أما بعد: يارب لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى. هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة وعهد الدولة الأموية، وعهد السلاجقة، وعصر الدولة الزنكية، ودولة المرابطين والموحدين، وعهد الدولة العثمانية. وقد صدر منها: السيرة النبوية، وأبو بكر وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والحسن بن على، ومعاوية بن أبى سفيان وعمر بن العزيز، وفقه النصر والتمكين فى القرآن الكريم، والثمار الزكية للحركة السنوسية، والسلطان محمد الفاتح، والشيخ عبد القادر الجيلانى، والإمام الغزالى، وحقيقة الخلاف بين الصحابة، وفكر الخوارج والشيعة فى ميزان أهل السنة والجماعة، والوسطية فى القرآن الكريم، وعقيدة المسلمين فى صفات رب العالمين. وقد سميت هذا الكتاب: صلاح الدين الأيوبى وجهوده فى القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، ويعتبر حلقه مهمه فى سلسلة الحروب الصليبية والتى خرج منها السلاجقة والزنكيون والتى نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن تكون لوجهه خالصة ولعباده نافعة ويطرح فيها القبول والبركة ويرزقنا حسن القصد وإخلاص النية لوجهه العلى الكبير ويوفقنا لإكمال الموسوعة التاريخية التى نسعى لإخراجها.

وهذا الكتاب يتحدث عن صراع المشاريع، بين المشروع الصليبى والفاطمى الشيعى، والمشروع الإسلامى السنى، فقد لخص الفصل الأول؛ الحملات الصليبية التى سبقت قيام الدولة الأيوبية، فتكلم عن الجذور التاريخية للحروب الصليبية، كالصراع البيزنطى الإسلامى فى صدر الدولة الإسلامية، والأسبانى الإسلامى بالأندلس، وطبيعة الحركة الصليبية التى قادها أوربان الثانى، وحركة الالتفاف على العالم الإسلامى التى تصدى لها العثمانيون وحركة الاستعمار الحديث، وأشرت إلى أهم أسباب ودوافع الغزو الصليبى، كالدافع الدينى والسياسى والاجتماعى، والاقتصادى، وتبدل ميزان القوى فى حوض البحر المتوسط فى صقيلة والأندلس، وإفريقية، واستنجاد إمبراطور بيزنطة بالبابا وشخصية أوربان الثانى ومشروعه الشامل للغزو الصليبى وحملته الدعائية، وعقليته التنظيمية، وشرحت بدء الحرب الصليبية الأولى واستراتيجيتهم بعد الاحتلال، وظهور حركة المقاومة فى العهد السلجوقى، والمشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة فى ساحات الجهاد، وتحريضهم على القتال فى ساحات المعارك، ودور الشعراء فى حركة المقاومة، وترجمت لقادة الجهاد من السلاجقة الذين سبقوا عماد الدين زنكى، وجهودهم فى التصدى للغزاة كقوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجكرمش أمير الموصل، وسقمان بن اتق حاكم ماردين وديار بكر وقلج أرسلان أمير سلاجقة الروم وشرف الدولة مودود بن التونتكين حاكم الموصل والذى تعتبر حملاته الجهادية مقدمة لحملات عماد الدين زنكى، وأشرت لمعوقات حركة الجهاد فى عهد أمراء السلاجقة والتى كان من أهمها الباطنية، التى أثبتت عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم فى بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين، وهكذا أثبتت وقائع التاريخ كيف التقى قادة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر فى بعض الأحيان فى الشهادة – فمن قبل اغتيل شرف الدين مودود، والآن نجد آق سنقر البرسقى يلقى نفس المصير وقد عكس ذلك كله: أن مسلك الإسماعيلية النزارية فى ذلك الحين كان من أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاة نظراً لوجود عدوين فى وقت واحد أمام القيادات المسلمة السنية على نحو عكس المشاق البالغة التى واجهت أولئك القادة فى الدفاع عن عقيدة الأمة ودينها وأبرزت جهود عماد الدين التى استطاع

من خلالها أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه مكانة خاصة فى التاريخ الإسلامى كسياسى بارع وعسكرى متمكن ومسلم واعٍ أدرك الخطر الذى أحاط بالعالم الإسلامى من قِبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية لصالح المسلمين وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة فى نطاق دولة واحدة. استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات فى سبيل تحقيق برنامجه المزدوج من تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين ويعتبر فتح الرها عام **539** هـ من أهم إنجازات عماد الدين وكان لسقوطها فى أيدى المسلمين ردة فعل عنيفة فى الغرب الأوروبى وباعثاً على السرعة فى إرسال حملة صليبية جديدة بعد أن أثار سقوطها الرعب فى النفوس، فقد جاء سقوطها إيذاناً بتزعزع البناء فى الشرق الأدنى وقد تصدى نور الدين وسيف الدين غازى أبناء عماد الدين للحملة الصليبية الثانية على دمشق، وحققوا انتصاراً كبيراً مع أهالى دمشق على الحملة الصليبية الثانية، ولقد نجح نور الدين فى استغلال الظروف التى أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية فى توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاد الصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأراتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة فى الرها وأنطاكية بل وتحالفوا أيضاً فى جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكى أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التى امتدت من الفرات إلى النيل والتى تصدت بحق لهذا الخطر الصليبى، وقد تحدثت عن فقه نور الدين فى التعامل مع الدولة الفاطمية وعن جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية وعن جرائمهم البشعة فى الشمال الأفريقى، كغلو بعض دعاتهم فى عبيد الله المهدى، والتسلط والجور، وتحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك، وإبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة، ومنع التجمعات وإتلاف مصنفات أهل السنة، ومنع علماء أهل السنة من التدريس وعطلوا الشرائع وأسقطوا الفرائض، وإجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال، وإزالة آثار خلفاء السنة، ودخول خيولهم المساجد. وتكلمت عن أساليب المغاربة فى مواجهة الدولة الفاطمية، كالمقاومة السلبية والجدلية، والمقاومة عبر التأليف، ودور شعراء أهل

السنة، وبينت كيف زالت الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا وكيف انتقلت إلى مصر، وذكرت جهود المدارس النظامية فى حركة الإحياء السنى والتصدى للفكر الشيعى، وجهود الإمام الغزالى فى دحر الشيعة، والحملات النورية العسكرية على مصر، كالحملة الأولى، والحملة النورية الثانية، والحملة النورية الثالثة على مصر، وتحدثت عن إلغاء الخلافة الفاطمية، والتدرج فى إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمى، والاعتبار والاتعاظ من زوال الفاطميين من مصر والوسائل التى اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب والتراث الفاطمى، كإذلال الخليفة الفاطمى العاضد، ووضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمى وقطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمى، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية وألغى جميع الأعياد المذهبية الفاطمية، ومحو رسوم الفاطمية وعملاتهم، والحفاظ على أفراد البيت الفاطمى، وإضعاف العاصمة الفاطمية، وإحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمى إلى البيت النبوى، والاستمرار فى ملاحقة بقايا التشيع فى الشام واليمن، وذكرت فتوحات صلاح الدين فى عهد نور الدين زنكى، وجهاد الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين، وحقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين.

وفى الفصل الثانى كان حديثى عن قيام الدولة الأيوبية، فذكرت أصول أسرته ونشأته وولادته ومتى بدأت الدولة الأيوبية والرصيد الخلقى لصلاح الدين، كتقواه وعبادته، وعدله، وشجاعته، وكرمه، واهتمامه وحلمه، ومحافظته على أسباب المروءة، وصبره واحتسابه، والوفاء، وعقيدة الدولة وتوسع الأيوبيين فى إنشاء المدارس السنية، كالمدرسة الصلاحية، ومدرسة المشهد الحسينى، والمدرسة الفاضلية، ودار الحديث الكمالية، والمدرسة الصالحية وجهودهم العلمية فى الشام والجزيرة، وعناصر الثقافة السنية فى العهد الأيوبى، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وأصول العقيدة السنية والدراسات الفقهية، واهتمام الأيوبيين بحماية طريق الحج والحرمين الشريفين، ومحاربة الأيوبيين للتشيع فى مصر والشام واليمن، وتكلمت عن مكانة العلماء والفقهاء عند صلاح الدين، كالقاضى الفاضل، الذى كانت له مساهمات فى ديوان الإنشاء، وتطوير جيش صلاح الدين، والقضاء على المعارضة الفاطمية وإعادة التنظيم الإدارى فى مصر وجهوده فى الإحياء السنى فى مصر وجهاده ضد الصليبيين، وعن توظيف الأدب فى خدمة الإسلام وحرصه على

وحدة العالم الإسلامى، فقد كان القاضى الفاضل المتحدث الرسمى بلسان السلطان صلاح الدين فى الداخل والخارج، وكان على قول ابن كثير أعز عليه من أهله وولده، وكان السلطان يشيد بفضله فيقول: لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضى الفاضل، وقد بلغ القاضى الفاضل مكانة سامية فى الدولة، فكان الساعد الأيمن لصلاح الدين إذ جعله وزيره ومشيره بحيث كان لا يصدر أمراً إلا عن مشورته ولا ينفذ شيئاً إلا عن رأيه ولا يحكم فى قضية إلا بتدبيره. وهذا العالم من فقهاء النهوض، والأمة فى أشد الحاجة لمثل سيرته، فتعلمنا سيرته أهمية عدم الانعزال فى الشأن العام والعمل الاجتماعى والحكومى والحرص على كسب الخبرات، وأهمية التميز فى أداء العمل والتمسك بمنهج أهل السنة والتعاون مع إخوانه فى العقيدة الصحيحة، وتوظيف القدرات والإمكانات لخدمة المشروع السنى، فقد قدم لصلاح الدين النماذج السنية القيادية والخطط العملية، ولم يبخل على صلاح الدين برأى ولا مشورة ولا تجربة، كما أن حياة هذا الرجل مدرسة فى فهم مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد وبناء الدول وزوالها وترك لنا منهجاً فى التعامل مع الشيعة وأهمية معاملة عامتهم بقوانين العدل ومحبة الخير لهم وعدم سفك دمائهم والحرص على تعليمهم وإنما يكون استخدام القوة ضد المؤامرات والتكتلات العسكرية ومع من لا يجدى معهم إلا استخدام القوة، كالدولة الفاطمية فى مصر. فقد ساهم فى وضع الخطط والأساليب والوسائل للقضاء عليها سياسياً وعسكرياً وفكرياً، وبينت جهود أبى الطاهر السِّلفى وأبى الطاهر بن عوف المالكى فى خدمة الإسلام فى الإسكندرية وحرص صلاح الدين على زيارتهم والأخذ من علومهم، وتحدثت عن الفقيه عيسى الهكارى وإسناده لصلاح الدين فى وزارته، وإصلاحه بين نور الدين وصلاح الدين ومساهمته فى الصلح مع أهل الموصل، ونجاحه فى تنفيذ المهمات الخاصة الموكلة إليه وشجاعته فى الحروب وقيادته الميدانية فى المعارك، وترجمت للعماد الأصفهانى القاضى الإمام العلامة المفتى، الوزير، وبينت جهوده فى خدمة المشروع الإسلامى السنى، وخلاصة القول أن العلماء والفقهاء كانوا يحتلون مكانه عظيمة وحظوة كبيرة عند صلاح الدين ونالوا منه كل عطف ورعاية واحترام وتقدير من الناحيتين المادية، والمعنوية، وبينت الإصلاح الاقتصادى واهتمامه بالزراعة والتجارة والصناعات، وإلغاء المكوس والاكتفاء بالموارد الشرعية وبنائه للمستشفيات، والخوانق "بيوت

الصوفية" والخانات فى الأماكن المنقطعة البعيدة عن العمران، وفى الطرق الموصلة بين المدن وذلك لخدمة أبناء السبيل والمسافرين، واهتمامه بالإصلاح الاجتماعى ومحاربته للعوائد والتقاليد المنحرفة والأخلاق الرديئة، وأشرت للإصلاحات العمرانية والإدارية ورجال الإدارة فى عهده، وشرحت النظم العسكرية فى عهده، كتطور الإقطاع الحربى، وديوان الجيش وزى الأجناد، والتموين والتعبئة العسكرية، والفرق الملحقة بالجيش، كالهندسية، والطبية وتنظيم البريد والاستخبارات، وإدارة شؤون القتال والسلم، والأسرى، ومجلس الحرب، وخطط وأساليب القتال، كأسلوب الحرب الخاطفة، وخطة القتال بالتناوب، وتخريب المدن، وتأمين الطرق، وتحصين الثغور والقلاع والحصون، والاستفادة من مواسم القتال، ومعاملة الأسرى والمعاهدات بين صلاح الدين والصليبيين، وأسلحة الجيش الأيوبى والبحرية الإسلامية، ودور المغاربة فى الأسطول الصلاحى، وبينت جهوده فى توحيد الجبهة الإسلامية ومحاولات الشيعة الإسماعيلية للقضاء عليه، عن طريق الاغتيالات ولكنها فشلت بحمد الله وتوفيقه وأسلوب صلاح الدين لتأديبهم وعلاقته مع الخلافة العباسية والدولة البيزنطية والصليبيين قبل حطين، وترتيبه للأمور الإدارية والعسكرية قبل المعركة الفاصلة.

وفى الفصل الثالث من الكتاب كان الحديث عن معركة حطين، وفتح بيت المقدس والحملة الصليبية الثالثة، وشرعت فى بيان أحداث معركة حطين وبداية الهجوم الإسلامى، والحرب الصليبية عند صلاح الدين، وخسائر الصليبيين وأسباب الانتصار فى معركة حطين، من التعامل مع السنن، كسنة الأعداد والأخذ بالأسباب، وسنة التدرج، وبعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية، وإخلاصه العظيم لله عز وجل، وتطبيق شرع الله فى دولته وبركات ذلك، كالاستخلاف والتمكين، والأمن والاستقرار والعز والشرف، والنصر والفتح، وأثر العدل فى تحقيق الانتصارات، وإعداد جيل مقاتل فيه صفات جيل التمكين، وحسن الصلة بالله واللجوء إليه بعد الإعداد، ونجاح العمل الاستخباراتى، وردود أفعال العالم الإسلامى والصليبى من معركة حطين، وفتوحات الساحل قبل فتح القدس ونتائج معركة حطين، ككونها معركة فاصلة وحاسمة وأهمية الوعى الجغرافى فى فقه الصراع وإدارته، والجهود التراكمية فى تحقيق الانتصارات الكبرى للأمم، وتحدثت عن خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير بيت المقدس، كالبعد الإعلامى، وتحشيد

الجنود والتعبئة الشاملة والحصار والقتال والهجوم الحاسم والمفاوضات ثم تسليم بيت المقدس وتحرير القدس ووفاء صلاح الدين بوعده ورحمته بالأسرى والشيوخ والنساء، وزوجات القتلى وبناتهم واحترامه مشاعر المسيحيين، وتنفيذ الوعود ابتغاء مرضات الله وبشعور إنسانى فياض وبروح فروسية عالية، واقتداء رشيد بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما فتح القدس فى خلافته، فقد ظهرت للغربيين روعة الإسلام فى ممارسات صلاح الدين فى السلم والحرب واحترام حرية الرأى والمعتقد، والحفاظ على القيم الإنسانية الرفيعة والتعاليم الإسلامية السامية. قال الشاعر:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحَللتُمُ قتل الأسارى وطالما ... عدونا على الأسرى نَمُنُ ونصفح
وحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل وعاء بالذى فيه ينضح

وذكرت إصلاحات صلاح الدين فى بيت المقدس وإرساله البشائر والوفود إلى أنحاء العالم الإسلامى، واختلاف صلاح الدين مع الخليفة العباسى، وحضور العلماء فى فتوحات القدس وغيرها ودونت بعض القصائد فى مدح صلاح الدين وفتح بيت المقدس كقول أبى على الحسن بن على الجوينى فى فتح القدس:

جُنْدُ السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متي رأى الناس ما نحكيه في زمن ... وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشُكرِ بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصَيد في يده ... صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانُوا

وقول أسامة بن منقذ فى مدح صلاح الدين:

والناصر الملك المتوج ناصرى ... وعلاه قد خطت كتاب أمانى
قد كنت أرهب صرف دهرى قبله ... فأعاد صرف الدهر من أعوانى

أنا جاره ويدُ الخطوبِ قصيرة ... عن أن تنال مجاورَ السلطان

إلى أن قال:

فلأهدينَ إلى علاه مدائحاً ... تبقى على الأحقاب والأزمان
مدحاً أفوق به زهيراً مثلما ... فاق المليك الناصر ابن سنان
يا ناصر الإسلام حين تخاذلت ... عنه الملوك ومظهر الإيمان
بك قد أعز الله حزب جنوده ... وأذل حزب الكفر والطغيان
لما رأيت الناس قد أغواهم ... الشيطان بالإلحاد والعصيان
جردت سيفك فى العداء لا رغبة ... فى الملك، بل فى طاعة الرحمن
فضربتهم ضرب الغرائب واضعاً ... بالسيف ما دفعوا من الصلبان
وغضبت لله الذى أعطاك ... فصل الحكم غضبة ثائر حران

وذكرت أهم الدروس والعبر والفوائد فى تحرير بيت المقدس، كأهمية العلماء الربانيين فى إيقاظ الأمة، وتربية الجيل على عقيدة الإسلام الصحيحة، وتحرير الولاء لله ورسوله والمؤمنين، ووحدة الأمة، ووضوح الراية الإسلامية للمعركة ووجود استراتيجية بعيدة المدى، وكوادر علمية تحيط بالواقع علماً،وأهمية توبة الأمة وعودتها إلى الله عز وجل وبعدها عن المعاصى، ولا طريق لتحرير فلسطين وأراضى المسلمين المحتلة إلا بالجهاد فى سبيل الله بمعناه الواسع الشامل، الجهاد السياسى، والإعلامى والروحى والعلمى والتخطيطى والقتالى ... إلخ.

وتعرضت للحملة الصليبية الثالثة وردة فعل الغرب الأوروبى من تحرير بيت المقدس والتعبئة الشاملة التى حدثت وما ترتب عليها من حملة صليبية ثالثة، كان فيها الملوك والأمراء ورجال الدين المسيحى. وقد شارك فى تلك الحملة امبراطور ألمانيا، وملك إنجلتر، وملك فرنسا إلا أنها لم تحقق هدفها بفضل الله ثم جهود صلاح الدين والأمة المسلمة الملتفة حوله من بلاد الشام ومصر والعراق والمغاربة

وغيرهم، وتكلمت عن طبيعة المفاوضات بين الملك العادل أخ صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا التى استمرت خمسة عشر شهراً واقتضت 42 وفداً توجت بصلح الرملة. وقد تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين فكان الطرفان شديدى الصلة ببعضهما وتعدى ذلك إلى طرح مشروع المعاهدة وإرسال الفواكه والثلج لريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه وحضور طبيب صلاح الدين لمعالجته وكان من آثار هذا الاختلاط فى حياة الفرنج ما يأتى:

* نقلوا عن المسلمين كثيراً من العلوم والمعارف التى كانت سائدة بينهم فى تلك الفترة، وقد ألفوا فيها كتباً احتوت كثيراً من التجديد والابتكار ووضع القوانين فى هذه العلوم.
* نقلوا عن المسلمين كثيراً من الصناعات والفنون مثل صناعة النسيج والصباغة والمعادث والزجاج كما نقلوا عنهم فن العمارة، وكان لهذا النقل تأثير عميق فى حياة أوروبا الصناعية والتجارية والفنية.
* تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية تأثراً أدى إلى نمو الحضارة الغربية وازدهارها وساعدتها الحضارة الإسلامية على الخروج من بحر الهمجية الظلامية فى تلك العصور وهذا باعتراف المستشرقين قبل مؤرخى المسلمين.

وذكرت مرض صلاح الدين وأيامه الأخيرة وملازمة أحد الشيوخ له وقراءة القرآن عليه ولما بلغ القارئ قول الله تعالى " لا إله إلا هو عليه توكلت" تبسم وتهلل وجهه وسلم روحه إلى خالقها سبحانه، ولم يترك فى خزانته من الذهب سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً وقيل سبع وأربعين درهماً ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً ولا شيئاً من أنواع الأملاك، وختمت الكتاب بقصيدة العماد الأصفهانى فى رثاء صلاح الدين والتى قال فيها:

شَملُ الهُدى والمُلكِ عَم شَتاتُهُ ... والدهرُ ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مُذْ لم يزل مخشية ... مرجوة هباتُهُ وَهِبَاته
أين الذى كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذى ... لله خالصة صفت نياتُهُ

أين الذى مـــا زال سُلطانا لنا يُرجى نَدَاه وتُتــــقى سَطَواته

إلى أن قال:

فى نصـرة الإسـلام يسـهـر دائمـاً ليطول فى روض الجنان سُـبَـاتُهُ

لا تحسـبـوه مـات شـخص واحـدٌ فـمـمـات كل العـالمين مماته

لقد تأثر الناس بوفاة صلاح الدين، حتى المؤرخون الأوروبيون ترحموا عليه وأشادوا بعدله وبقوته وتسامحه واعتبروه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة، وستظل بإذن الله تعالى سيرة صلاح الدين تمد أبناء المسلمين بالعزائم الصلاحية التى تعيد إلى الحياة روعة الأيام الجميلة الماضية وبهجتها وبهاءها وترشد الأجيال إلى أهمية استيعاب المشروع الإسلامى الحضارى الكبير تحت راية أهل السنة والجماعة وقد طويت بوفاة صلاح الدين صفحة من أنصع صفحات التاريخ، وأنقاها، فقد عرف فيه التاريخ رجلاً فذاً من طراز نور الدين محمود الشهيد، لم يكن همُّه جمع المال، ولم تستهوه زخرفةُ السلطان، ولم تمل به عن جادة الحق سطوة الحكم، فقد كان همه انتصار الإسلام وأعظم أمانيه سيادة الشريعة، وأقصى غايته تطهير بلاد المسلمين من الصليبيين، وإرغامهم على الهزيمة والرجوع من حيث ما أتوا.

إن من الدروس المهمة من هذا الكتاب معرفة المشاريع المتصارعة فى عهد صلاح الدين، فقد كانت ثلاثة تتطاحن على قدم وساق، وهى المشروع الصليبى والذى تتزعمه الكنيسة من عهد أوربان الثانى والمشروع الشيعى الرافضى بقيادة الدولة الفاطمية بمصر والمشروع الإسلامى الصحيح وحامل لوائه بعد نور الدين صلاح الدين، فكانت المحاور التى سار عليها أهل السنة دولة وشعباً، تعميق الهوية العقائدية السنية والإحياء الإسلامى الصحيح فى نفوس الأمة والتصدى لشبهات المذهب الشيعى وإعداد الأمة لمقاومة الصليبيين، وكانت المحاور متداخله من حيث السير إلا أن تحرير بيت المقدس والقضاء على الصليبيين فى معركة حطين لم يتم إلا بعد القضاء على الدولة القاطمية سياسياً وعسكرياً، وقد سبقتها الانتصارات العقائدية والفكرية والثقافية والتاريخية والحضارية للمذهب السنى.

إن الذين استطاعوا تحرير بيت المقدس وانتزاع المدن والقلاع والحصون من الصليبيين هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامى الصحيح وعرفوا خطر المشاريع الباطنية الدخيلة فتصدوا لها بكل حزم وعزم. إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لابد أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص منها الدروس والعبر والسنن فى حاضرها وتستشرف مستقبلها.

إن قراءة التاريخ تضيف للباحث والقائد والزعيم والملك والرئيس أعمار السابقين، وأما الوعى بالتاريخ فإنه يوظف ثمرات هذه القراءة فى تغيير الواقع، واستشراف المستقبل؛ ولذلك يستحيل التقدم وينعدم النهوض عند الذين لا يفقهون ولا يتعرفون على سنن الله وقوانينه وعبره وعظاته من خلال التاريخ.

إن النهوض بوجه عام يحتاج إلى سلاح القلم واللسان، ولم ينجح مشروع نهضوى عبر التاريخ من غير أقلام قوية أو ألسنة تعبر عن قلوب صادقة تدعو إليه وتنشر مبادئه بين الناس، وإيجاد الكتب النافعة فى هذا المجال من الضرورات فى عالم الصراع والحوار والجدال وهذا يدخل ضمن سنة التدافع فى الأفكار والعقائد والثقافات والمناهج، وهى تسبق التدافع السياسى والعسكرى، فأى برنامج سياسى توسعى طموح يحتاج لعقائد وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذى يلد السيف واللسان هو الذى يلد السنان، والكتب هى التى تلد الكتائب.

إن موسوعة الحروب الصليبية - والتى صدر منها كتاب السلاجقة وعصر الدولة الزنكية وهذا الكتاب - قد أجابت عن الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية والإقليمية والعالمية، وهذه الحقبة من تاريخ الأمة تأتى شاهداً تاريخياً مقنعاً على إن الإسلام قادر فى أية لحظة تتوافر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول، والذكاء الواعى واستيعاب فقه السنن والنهوض وقوانين الحضارات وبناء الدول على إعادة دوره الحضارى والقيادى وإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى عدل الإسلام.

هذا وقد انتهيت من هذه المقدمة فى **15** شعبان **1428**هـ - **28** أغسطس / **2007**م الساعة الرابعة بعد صلاة العصر. والفضل لله من قبل ومن بعد وأسأله

سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده قال تعالى: ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم (٢) ﴾ (فاطر). ولا يسعنى فى نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقى العظيم وإلهى الكريم معترفاً بفضله وكرمه وجوده. متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقى هو المتفضل، وربى الكريم هو المعين، وإلهى العظيم هو الموفق، فلو تخلى عنى ووكلنى إلى عقلي ونفسي وتركنى للقلم الذى بين أصابعى لتبلد منى العقل، ولغابت الذاكرة وليبست الأصابع وجفت العواطف ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان. إلهى: إنك لتعلم أن لى مع كل واحد ممن تحدثت عنهم فى كتبى وقفة لها قصة أو خبر وإنك لتعلم حرصى على إحياء سيرهم كوسيلة لنصرة دينك وأن أنال بذلك كريم مرضاتك يا أكرم الأكرمين، اللهم بصرنى بما يرضيك واشرح له صدرى وجنبنى اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبى وتفكيرى وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجعل عملى لوجهك خالصاً ولعباده نافعاً وأن تثيبنى على كل حرف كتبته وتجعله فى ميزان حسناتى وأن تثيب إخوانى الذين أعانونى على إتمام هذا الجهد الذى لولاك ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه قال تعالى: ﴿ ... رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين (١٩) ﴾ (النمل).

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿ ... ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم (١٠) ﴾ (الحشر).

وبقول الشاعر:

ومن عجب أنى أحن إليهم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معى

وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ... ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

"سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك"

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الإخوة الكرام يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mail: abumohamad2@maktoob.com

معركة حطين وفتح بيت المقدس والحملة الصليبية الثالثة

المبحث الأول: معركة حطين

تمكن صلاح الدين من تكوين جبهة إسلامية موحدة اتسمت باتساع رقعتها، لكن سيطرة الصليبيين على بعض مدن الساحل الشامي، فضلاً عن حصني الكرك والشوبك، كان يمثل عقبة كأداء في إمكانية الاتصال بين محوري دولته التي ضمت مصر ومعظم بلاد الشام، وجزءاً من أرض العراق، يضاف إلى ذلك أن هذه المدن والموانئ الساحلية تمتعت بمكانة استراتيجية هامة لأن سيطرة الصليبيين عليها جعلتهم على اتصال دائم بوطنهم الأم الغرب الأوروبي (1)، لذلك اهتم صلاح الدين منذ بداية حكمه، بالإغارة على هذه المناطق، بل إن اهتمامه بذلك يرجع أيضاً إلى أيام وزارته في الدولة الفاطمية (2)، وفي الواقع أن صلاح الدين قد ألحق بالصليبيين خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد من جراء تلك الإغارات التي نظمها على مدن الساحل الشامي، الأمر الذي دفع الصليبيين – على ما يبدو – إلى التفكير في تخفيف الضغط على تلك المناطق بتحويل نظر صلاح الدين عنها وذلك بالإغارة على منطقة ساحل البحر الأحمر، هذا فضلاً عن استغلال وجوده في تلك المنطقة وتهديد المقدسات الإسلامية لطعن الإسلام في أقدس بقاعه (3) إلا أن الأحداث كانت تجري بسرعة في مصلحة صلاح الدين.

أولاً: مقدمات معركة حطين:

1- وفاة بلدوين الخامس وتأثيرها على أوضاع الصليبيين: توفي الملك بلدوين الخامس في شهر جمادى الآخرة عام 582هـ/ شهر آب عام 1186م بعد شهور من توليته، فبرزت من جديد مشاكل الصليبيين الداخلية إذ كانت وفاته إيذانا بصراع

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 157.

(2) المصدر نفسه ص 157.

(3) المصدر نفسه ص 165.

حاد بين الأمراء حول الفوز بعرش المملكة. وظل المعارضون لوصاية ريموند الثالث في حبك المؤامرات حتى نجحوا أخيراً في سحب الوصاية منه، وتحويل المُلْك من الطفل إلى أمه سيبيلا وأوكلوا إليها اختيار الملك الجديد، لأنها لا تستطيع أن تحكم كامرأة، وسلمت سيبيلا تاج الملك إلى زوجها جاى لوزينان وفق ما أراده المعارضون لريموند الثالث[1].

2- استفادة صلاح الدين من الظروف التي تمر بها مملكة بيت المقدس: في الوقت الذى كان صلاح الدين يعمل جاهداً لتكوين قوة عسكرية مزودة بالمؤن والعتاد، واستعداداً لخوض معركة فاصلة ضد الصليبيين، كان يتجنب الاشتباك مع الصليبيين في أكثر من جبهة واحدة ولا يمكن عدوه من تعبئة قواه وتوحيد صفوفه رداً على تعبئة القوات الإسلامية، فأرسل في سنة 583هـ/1187م إلى أهل حلب يأمرهم بمصالحة بوهيمند الثالث أمير انطاكية ليتفرغ لجهاد الصليبيين من جانب واحد[2]، كما عمد صلاح الدين الذى عرف بمهارته العسكرية أيضاً إلى استغلال تلك الظروف العصيبة التي كانت تمر بها مملكة بيت المقدس عقب تتويج جاى لوزجنان الذى تنازلت له زوجه عن الحكم وأصبح ملكاً لبيت المقدس، بعد أن خلعت التاج عن رأسها ووضعته على رأسه قائلة: زوجى أقدر وهو أحق بالملك وأجدر[3] وفشل القومص ريموند الضجلي أمير طرابلس في الفوز بذلك المنصب، كذلك رفض فرسان الداوية استقلاله بالحكم وطالبوه بالعمل بالوصية التي كانت تقضي له بحق الوصاية فقط الأمر الذى جعله يلقي بنفسه بين أحضان صلاح الدين طالباً منه مساعدته ضد ملك بيت المقدس والداوية، وأجاب صلاح الدين نداءه وأمده بالمعونة اللازمة، وبذلك استطاع أن يضم إليه حليفاً جديداً من

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 140.

(2) صلاح الدين والصليبيون ص 175.

(3) الفتح القسي ص 67 – 68، صلاح الدين والصليبيون ص 175.

الصليبيين، مكوناً بذلك ثغرة كبيرة فى صفوف الصليبيين [1] وبالفعل أوشك الصدام المسلح أن يحتدم بين الملك جاى وبين ريموند، حيث عسكر ريموند فى طبرية، وأقام هناك فى زى المتطاول المتفاخر بعد أن ضم حوله عدداً كبيراً من الصليبيين، وحث العزم السلطانى على قصدهم ليرد إليه الملك [2]. كما قام ملك بيت المقدس أيضاً بحشد جيش عظيم لمهاجمة طبرية لولا تدخل بعض الأمراء لتهدئة الموقف ومطالبة الطرفين بالاتحاد لمواجهة ذلك الاستعداد الهائل الذى أعده صلاح الدين لهم، الأمر الذى اضطر الملك لوزجنان إلى المسير بنفسه إلى القومص ريموند الصنجلى، لاسترضائه ومصالحته[3]. وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن القول بأن صلاح الدين قد جنى من جراء تدخله فى شؤون الصليبيين بمساعدة أحدهما على الآخر، ثماراً أهمها ذلك الاختلاف الكبير فى وجهات النظر بين ريموند الصنجلى وبعض الأمراء الصليبيين وفى مقدمتهم أرناط صاحب حصن الكرك، ولعل هذا الأمر هو السبب الذى جعل المؤرخ ابن الأثير يصف هذا التحالف بين صلاح الدين وريموند الصنجلى رغم قصر مدته بأنه: من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم، واستنقاذ البيت المقدس منهم[4]. وهكذا عقد صلاح الدين مع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، هدنة منفصلة معه إما بناء على طلب منه، وإما بدعوة من صلاح الدين، ليطمئن على خطوطه الخلفية ويتفرغ للقتال فى الجنوب [5]، ووسع ريموند الثالث مدى اتفاقيته مع صلاح الدين مضيفاً إليها حماية منطقة الجليل وبذلك يكون قد فتح الطريق لصلاح الدين للولوج بين الأردن وفلسطين[6].

(1) الكامل فى التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 175.
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 176.
(3) كتاب الروضتين نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 176.
(4) الكامل فى التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 176.
(5) تاريخ الأيوبيين ص 142.
(6) المصدر نفسه ص 143.

3- رينولد شاتيون ينقُض مجدداً الهدنة مع المسلمين: أثار تحالف صلاح الدين مع ريموند الثالث، غضب رينولد شاتيون الذى كان فى هدنة مع صلاح الدين واشتهر بالتفكير المنفرد، وبفضل ما تنطوى عليه الهدنة من بذل الحماية، صارت القوافل التجارية تتردَّد بين مصر وبلاد الشام، مجتازة الأراضى الصليبية بأمان[1]، ولا شك بأن ذلك عاد بالفائدة على رينولد شاتيون نفسه، نظراً لما يفرضه من ضرائب ومكوس عليها، كما يبدو أنه لا يستطيع الحياة دون أن ينهب ويسرق، فقام بنقض هدنته مع صلاح الدين عام 582هـ/أواخر عام 1186م حين أوقف قافلة تجارية كبيرة مارَّة بأرض الكرك، فى طريقها من مصر إلى بلاد الشام، واستولى عليها، فقتل حرَّاسها، وأسر بعض الجند، كما قبض على من فى القافلة من تجار وعائلات وحملهم إلى حصن الكرك [2]، لم تلبث أنباء الاعتداء أن وصلت إلى مسامع صلاح الدين، ولحرصه على احترام المعاهدة، أرسل إلى رينولد شاتيون ينكر عليه هذا العمل، ويتهدَّده إن لم يُطلق سراح الأسرى ويعيد الأموال، غير أن صاحب الكرك رفض استقبال رسله، وعندما وجد صلاح الدين إعراضاً من جانب رينولد، أرسل إلى الملك جاى لوزينان شاكياً ومطالباً بالنصح لرينولد بإعادة الأسرى والأموال. لبّى جاى دعوة صلاح الدين لكنه أخفق فى الضغط على رينولد [3]، وكان لهذا الأسلوب الذى استخدمه صلاح الدين فى موضوع الأسرى الذين وقعوا بيد أرناط صاحب حصن الكرك ومطالبته إياه بإطلاق سراحهم وردّ أموالهم دون استخدام القوة - كان له الأثر الأكبر فى إدخال الخلاف وعدم الثقة بين ملك بيت المقدس وأرناط الذى لم يستجب لرجائه باحترام الهدنة المعقودة مع صلاح الدين وأصبح الملك الصليبى يتشكك فى نوايا أرناط وطمعه فى الانفراد بحكم تلك المنطقة، وإن كلاً منهما بات حذراً من الآخر [4].

(1) مفرج الكروب (185/2) تاريخ الايوبيين ص 142.

(2) الكامل فى التاريخ (18/10، 19) تاريخ الأيوبيين ص 142.

(3) تاريخ الأيوبيين ص 142.

(4) صلاح الدين والصليبيون ص 176.

كانت هذه التحالفات ونقضها نقطة الانطلاق الأولى لمعركة حطين[1]، ذلك أن تحالف صلاح الدين مع ريموند الثالث، أتاح له مجالاً للتدخل فى السياسة الداخلية للصليبيين وإن تجديد تحالفه مع كل من ريموند الثالث وبوهيموند الثالث حرما مملكة بيت المقدس من مساعدة أقوى إمارتين صليبيتين فى الشام، وهما إمارة طرابلس، وإمارة أنطاكية، وهكذا نجح صلاح الدين فى شقِّ الصف الصليبى، وفى المقابل فإنه نجح فى توحيد الصف الإسلامى، فأعدَّ الجيوش الإسلامية فى مصر والجزيرة والموصل والشام، معنوياً وعسكرياً، للمعركة التى أرادها فاصلة [2]، وعندما اكتملت استعدادات التجهيز، خرج صلاح الدين من دمشق فى شهر محرم 583هـ/ شهر آذار 1187م على رأس جيش كبير متجهاً نحو الجنوب فوصل إلى رأس الماء إلى الشمال الغربى من حوران[3]، ثم اتجه إلى بصرى[4] ليستقبل قافلة الحجاج التى كان من عدادها أخته وابنها، ويضمن فى الوقت نفسه عدم تعرض رينولد لهم، لأن التقارير التى وصلت إليه، أشارت إلى تربص حاكم الكرك بالحجاج[5]، وبعد أن اطمأن إلى وصول القافلة وسلامتها، شرع فى مهاجمة الكرك، وإذ علم رينولد شاتيون (أرناط) بوجوده فى المنطقة تراجع إلى حصنه، وكان صلاح الدين قد ترك ابنه الأفضل نور الدين على فى رأس الماء ينتظر وصول العساكر التى استدعاها للجهاد[6]، وكانت حركة صلاح الدين باتجاه الكرك تحقق هدفين:

الأول: التمويه على هدفه الحقيقى، وهو مهاجمة مملكة بيت المقدس.

الثانى: إخافة رينولد شاتيون (أرناط) ومنعه من الذهاب إلى مملكة بيت المقدس.

---

(1) تاريخ الأيوبيين ص 143.

(2) المصدر نفسه ص 143.

(3) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة.

(4) بصرى: من أعمال دمشق، وهى قصبة حوران.

(5) الفتح القسى فى الفتح القدسى ص 58 – 59.

(6) تاريخ الأيوبيين ص 143.

سّرح صلاح الدين عساكره في المنطقة فراحوا يعيشون فيها، ثم قصد الشوبك، وفعل فيها مثلما فعل بالكرك وظلّ في الأردن شهرى صفر وربيع الأول 583هـ/ شهر نيسان وأيار 1187م تغطية للحشود التي كانت تتجمّع حول ابنه الأفضل في رأس الماء [1].

4 - **وقعة صفورية:** في الوقت الذي كان صلاح الدين فيه معسكراً بالقرب من حصن الكرك والشوبك لحماية الحجاج من اعتداءات الصليبيين، عمد إلى إرسال قوة استطلاعية انتخب أفرادها انتخاباً، وأسند قيادتها إلى مظفر الدين كوكبورى صاحب حران، وبدر الدين دلدرم بن ياروق أمير عسكر حلب، وصارم الدين قايماز النجمي أمير عسكر دمشق، لتقوم بالإغارة على ممتلكات العدو، لإضعاف معسكراته وكشف مخططاته فسارت هذه السرية المدججة بالسلاح والعتاد، باتجاه صفورية. وقد حرص قوادها على أن يكون مسيرها على قدر كبير من السرية والخفاء، فكان سيرهم إليها في الجزء الأخير من الليل، على أن يكون هجومهم عليها في الصباح الباكر، وبالفعل فقد نفذت تلك الخطة بدقة تامة "وصبحوا صفورية وساء صباح المنذرين [2] وأما الصليبيون الذين كانوا ينعمون بنوم هادئ في ذلك الوقت فإنهم قد استيقظوا على أصوات السيوف والرماح وأسرعوا إلى لم شعثهم وتجميع قواهم لمواجهة ذلك الهجوم الإسلامي المفاجئ، والتقى الجمعان، ودارت بينهما معركة رهيبة، انتهت بانتصار إسلامي مظفر، وسقط معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى، وكان من جملة القتلى، مقدم الاسبتارية وعدد كبير من أبرز فرسانهم ونجا مقدم الداوية بصعوبة [3] بالغة، ومما زاد الطين بلة أنه عندما تجرأت قوة صليبية أخرى على الإسراع إلى صفورية لنجدة إخوانهم كانت المعركة قد انتهت فأسر المسلمون تلك النجدة عن آخرها، وعاد المسلمون من هذه المعركة سالمين غانمين [4]. وكان انتصارهم في هذه المعركة؛

(1) المصدر نفسه ص 144.

(2) كتاب الروضتين (2/ 75) صلاح الدين والصليبيون ص 178.

(3) مفرج الكروب (2/ 187) صلاح الدين والصليبيون ص 178.

(4) مفرج الكروب (2/ 187) صلاح الدين والصليبيون ص 179.

باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامين الحركات [1]. وهكذا كبد المسلمون الصليبيين خسائر فادحة في الأرواح والعتاد وألقت هذه المعركة الرعب في قلوب الصليبيين، وجعلتهم يدركون خطورة ذلك التجمع الإسلامي الرهيب الذي أعده صلاح الدين لجهادهم[2].

5 - الاستعدادات التي سبقت معركة حطين: استبشر صلاح الدين الذي كان آنذاك يعسكر بالقرب من حصن الكرك بذلك النصر الذي حققته تلك السرية الإسلامية في معركة صفورية، فترك الكرك والشوبك، وسار مسرعاً على رأس جيشه في اتجاه العدو وعسكر في عشترا [3]، واجتمعت حوله العساكر الإسلامية بأعداد هائلة حتى "غصي بها الفضاء" على حد قول ابن واصل[4] وفي عشترا قام بعرض عسكره، فكان في اثني عشر ألف مقاتل[5] ثم رتب جيشه طبقاً لنظام المعركة المعتاد، فجعل ابن أخيه تقي الدين عمر في الميمنة ومظفر الدين كوكبوري في الميسرة وكان هو في القلب، وبقية الجيش فرقه على الجناحين، استعداداً للحرب [6].

أ- استعدادات الصليبيين: ورداً على ذلك التجمع الإسلامي العظيم، فإن الصليبيين لما سمعوا باجتماع كلمة الإسلام عليهم ومسير ذلك الجيش الإسلامي إليهم، علموا أنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله، وأن كيانهم زائل لا محالة، فاجتمعوا واصطلحوا، وحشدوا وجمعوا، وانتحوا. فصالح القومص الملك جاي، بعد أن دخل عليه ورمى بنفسه عليه [7]. ومن ثم أصدر الملك جاي الأمر بالتعبئة

---

(1) كتاب الروضتين (2/76) صلاح الدين والصليبيون ص 179.
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 179.
(3) عشترا: موضع بحوران من أعمال دمشق.
(4) صلاح الدين والصليبيون ص 179.
(5) كتاب الروضتين (2/86) صلاح الدين والصليبيون ص 180.
(6) وفيات الأعيان (7/174) صلاح الدين والصليبيون ص 180.
(7) كتاب الروضتين (2/76).

العامة، ومعنى ذلك أنه لابد أن يتقدم لحمل السلاح كل الرجال القادرين ولا يلجأ الملك إلى ذلك إلا عند الضرورة القصوى[1]. وحشد الصليبيون حشوداً كبيرة، ورفعوا صليب الصلبوت، لتجتمع الناس حوله، وقد اكتملت عدة ذلك الجيش بعد أن تم توزيع الأموال التي بعثها ملك انجلترا هنرى إلى الملك جاى، والتى أمر بإنفاقها على الرجال. وأما بالنسبة لتقدير عدد الجيش الصليبى الذى ظل معسكراً فى صفورية بعد هزيمته من تلك السرية الإسلامية فإن المؤرخين المعاصرين ذكروا أن عدده بلغ زهاء خمسين ألفا أو يزيدون[2]، وبعضهم رجح أنه يبلغ عشرين ألفاً[3].

ب- **اختيار صلاح الدين لخطة المعركة الفاصلة:** لما علم صلاح الدين باجتماع الصليبيين فى صفورية عقب هزيمتهم من السرية الإسلامية فى هذا المكان، استشار قواده فيما يفعل، فأشار أكثرهم بترك اللقاء، واتباع الطريقة السابقة من إغارات متكررة، وتكبيد العدو خسائر حتى تضعف مقاومته ثم إنزال الضربة القاضية بالصليبيين، وأشار الفريق الآخر بالتوغل فى بلاد الصليبيين والاشتباك معهم فى معركة فاصلة[4].

وهنا تبدو لنا حنكة صلاح الدين العسكرية، إذ اختار الخطة الثانية القائمة على الاشتباك مع العدو فى معركة فاصلة، إذ يظهر أن صلاح الدين أدرك أن معظم القوات التى تجمعت عنده فى ذلك الوقت جاءت من أماكن بعيدة من مصر ودمشق وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر وغيرها، وأن هذه العساكر القائمة على نظام الإقطاع الحربى - كما سبق أن رأينا - لها التزامات فى إقطاعاتها - الأمر الذى قد يدفعها بعض الأحيان إلى طلب الاستئذان منه والعودة لقضاء حوائجها [5] هذا بالإضافة إلى أن صلاح الدين ربما قصد باتباع تلك الخطة استغلال ذلك الانشقاق

(1) الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ص 84.
(2) كتاب الروضتين (2/76).
(3) الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ص 84.
(4) تاريخ ابن خلدون نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 181.
(5) الحركة الصليبية (2/799).

الذى حدث فى صفوف الصليبيين، نتيجة وفاة الملك بلدوين الخامس، وتتويج الملك جاى لوزجنان والذى عده أحد الباحثين، سبباً حرمت من أجله مملكة بيت المقدس من معونة أقوى إمارتين صليبيتين بالشام هما إمارة طرابلس، وإمارة إنطاكية [1] . وهكذا أصبح الموقف بين صلاح الدين والصليبيين على أشده، وبات الطرفان كل منهما يتوق إلى الاشتباك مع الآخر فى معركة فاصلة، وكان صلاح الدين يدرك أن تمركزهم فى صفورية يعطيهم مكانة عظيمة فى القتال، وذلك أن صفورية تعتبر فى أحسن المواقع الملائمة لإقامة المعسكرات وذلك لما يتوافر بها من المراعى والمياه وغيرها من الموارد الطبيعية اللازمة لذلك [2]، لهذا عمد إلى استدراج الصليبيين إلى المكان المناسب الذى يستطيع فيه إنزال الهزيمة بهم، هذا بالإضافة إلى أنه على الرغم من ذلك كان يريد أن يجبرهم على المسير إليه حتى يصلوا متعبين، ويكون هو مدخراً جهده وجهد رجاله [3]، لذلك أخذ صلاح الدين يعد عدته للقيام بعمل يستطيع اجتذاب الصليبيين من معسكرهم فى صفورية والنزول إلى المكان الذى يختاره، فأخذ كل يوم يرسل جماعة من رجاله، لمباغتة الصليبيين والنكاية بهم، محاولاً بذلك استدراجهم إليه، غير أن تلك الغارات المتكررة لم تؤثر على الصليبيين، فلم يتركوا مركزهم فى صفورية فرأى صلاح الدين الهجوم على طبرية ذاتها، لأن الصليبيين متى رأوا هجومه ذلك بادروا بالوصول إليه، وبذلك يكون قد تحقق له ما قصده [4] .

ج- **توجه صلاح الدين إلى طبرية**: أدرك صلاح الدين بهجومه على طبرية، بأنه يمكنه إثارة ريموند أمير طرابلس المشهور بشدة الغيرة [5] بالإضافة إلى أن صلاح الدين، كان يعلم أن نزوله فى ذلك الموضع يستطيع أن يوصد الطريق المؤدى إلى طبرية، ويسيطر فى الوقت ذاته على الدروب التى تجتاز الحافة الشرقية إلى طبرية

---

(1) تاريخ الأيوبيين ص 182 .

(2) الحركة الصليبية (804/2) صلاح الدين والصليبيون ص 182 .

(3) الحركة الصليبية (804/2) صلاح الدين والصليبيون ص 182 .

(4) كتاب الروضتين (76/2) صلاح الدين والصليبيون ص 182 .

(5) الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ص 87.

وتنتهى إلى الماء [1]. فى حين يبقى الصليبيون عند خروجهم من صفورية، وتقدمهم إليه فى منطقة وعرة لا تتوفر فيها المياه[2] وفى يوم الخميس 23 ربيع الأول سنة 583هـ/2 يوليه 1187م أصدر صلاح الدين أوامره إلى الجانب الرئيسى من جيشه بالتقدم إلى طبرية ومهاجمتها إلى القلعة وامتنعوا بها[3]. وما كادت أخبار ذلك الهجوم تصل إلى أسماع الصليبيين، حتى جن جنونهم، ودعا الملك جاى إلى مجلس حرب[4] فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم من التوغل فى طبرية، فى حين أشار ريموند صاحب طرابلس على الملك بالبقاء فى موضعه بصفوريه، قائلاً له: إن طبريه لى ولزوجتى، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل، وبقى القلعة، وفيها زوجتى، وقد رضيت بأن يأخذ القلعة وزوجتى، وما لنا بها فيعود، فوالله لقد رأيت معسكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل ذلك العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبرية، لا يمكنه المقام بها إلا بجميع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها وتفتك من أسر منا [5]. وهنا يبدو أن سياسة صلاح الدين فى إيقاع الخلاف فى صفوف الصليبيين قد أتت أكلها، حيث لقى رأى ريموند هذا معارضة شديدة من كل من أرناط صاحب الكرك، وجيرار مقدم الداوية اللذين اتهماه بالخيانة والانحياز إلى المسلمين، حيث رد عليه أرناط قائلاً: قد أطلت فى التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم. واستطاع أرناط وجيرار التأثير على الملك جاى الذى أصدر أوامره إلى الجند بالمسير إلى طبرية وبدأ الجيش الصليبى زحفه من صفورية يتقدمه ريموند فى ظروف سيئة للغاية، فروح الصليبيين المعنوية منحطة، وجزء كبير منهم لم يكن من أنصار التقدم نحو طبرية، فساروا

(1) المصدر نفسه ص 87.
(2) المصدر نفسه ص 87 صلاح الدين والصليبيون ص 182 .
(3) الكامل فى التاريخ (533/11) صلاح الدين والصليبيون ص 183 .
(4) صلاح الدين والصليبيون ص 83.
(5) الكامل فى التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 183 .

مكرهين [1]. هذا بالإضافة إلى ما تعرض له ذلك الجيش الصليبى فى طريقه من متاعب وخسائر بسبب الكمائن التى نصبها صلاح الدين لهم أثناء سيرهم، فضلاً عن حرارة الجو، ووعورة الطريق وانعدام الماء. وإزاء هذه الظروف القاسية حل بالجيش الصليبى أثناء سيره من صفورية إلى طبرية، انفصال كبير، حيث لم تستطع مؤخرته مجاراة سير بقية الجيش والاتصال بالملك في الوسط، الأمر الذى اضطر الملك جاى إلى إقامة معسكره، قبل الوصول إلى طبرية، على الرغم من تلك المحاولة التى قام بها ريموند أمير طرابلس الذى كان فى المقدمة، لحث الصليبيين على التقدم للوصول إلى المياه، مما أدى إلى تذمر ريموند من ذلك التصرف، وإدراكه بأن الهزيمة حاصلة لا محالة [2]. والواقع أن هذه الأوامر اتصفت بالتهور، ودلّت على انعدام التفكير العسكرى السليم لدى القادة الصليبيين الذين غلبت عليهم العاطفة الدينية المتزمتة، لأنها أوقعت الملك، والمملكة، والجيش الصليبى فى فخ صلاح الدين، الذى علّق، عندما علم بتحركهم، بقوله: قد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله الجد الجديد، والحد الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صحّت كسرتهم، وقُتلت وأسرت أسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونها مانع ولا عن فتحها وازع [3] ورتب صلاح الدين رجاله فى تلك الليلة، وسار هو على رأس جيشه لملاقاة الصليبيين على سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين وهى منطقة على هيئة هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلثمائة متر، ولها قمتان مما جعل العرب يطلقون عليه اسم قرون حطين، وبوصول الصليبيين إلى تلك الهضبة كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الإنهاك والتعب، واشتد بهم العطش بعد أن حال جيش صلاح الدين بينهم وبين الوصول إلى الماء [4] والتقى الجمعان على سهل جبل طبرية الغربى منها، وحال الليل دون تصادمهما ذلك اليوم [5]. وفى صباح الجمعة 24 ربيع الآخرة 583هـ/ 1187م تحرك

---

(1) الحركة الصليبية (ج2/806).

(2) صلاح الدين والصليبيون ص 184.

(3) تاريخ الأيوبيين ص 77 نقلاً عن العماد الأصفهانى.

(4) الكامل فى التاريخ (11 / 534) صلاح الدين والصليبيون ص 185.

(5) النوادر السلطانية ص 76.

الجيشان وتصادما بأرض تسمى اللوبيا، واستمر القتال إلى أن حجز الظلام بينهما، وبات كل فريق فى سلاحه [1]. والواقع أن جيش صلاح الدين قضى تلك الليلتين ينعم بكافة الوسائل التى تعينه على القتال، فقد كان يعسكر فى منطقة سهلة غنية بالمراعى والمياه. أما الجيش الصليبى، فقد ازداد بلا شك خلال تلك المدة شقاءً وإنهاكاً، بسبب إقامة معسكره على منطقة وعرة جداً عديمة المياه وفى جو شديدة الحرارة، ويبدو أن صلاح الدين، قد استغل توقف القتال تلك الليلة، ليكمل استعداداته لمهاجمة العدو الذى لجأ إلى سفح جبل حطين، ليعصمهم من المهالك ومن ثم المبيت فى جو معتدل يخفف عنهم شدة الحرارة والعطش، وعلى الرغم من أوامر الملك جاى التى كانت تقضى بأن يندفعوا إلى أسفل التل ليؤدوا واجبهم نحو الصليب والعرض، إلا أنهم اعتذروا بشدة العطش وأنهم لا يستطيعون الحرب، فاستغل صلاح الدين ذلك، ورتب جيشه ورسم له الخطط، وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، كما يقول ابن الأثير[2].

ثانياً: أحداث المعركة:

اكتشف الصليبيون فى صباح يوم السبت 24ربيع الآخر 583هـ بأنهم محاصرون بعيداً عن المياه، فنزلوا مسرعين إلى قرون حطين، وهناك دارت معركة رهيبة فقد تقدم الجيش الإسلامى الذى أكمل استعداداته للمعركة الفاصلة وفى المقابل تحرك الجيش الصليبى واضعاً فى ذهنه الوصول إلى طبرية لعله يرد الماء، إلا أن صلاح الدين ببراعته الحربية أدرك مقصودهم، ووقف بعسكره فى وجوههم وأخذ صلاح الدين يطوف بين الصفوف يحرض الرجال على الجهاد ويأمرهم بما ينفعهم وينهاهم عما يضرهم، وهم له طائعون[3].

1- **بداية الهجوم الإسلامى**: وبدأ الهجوم الإسلامى على الصليبيين فاستمات المسلمون فى القتال وشددوا هجماتهم على الأعداء، مدركين أن من ورائهم

(1) كتاب الروضتين (2/ 81) صلاح الدين والصليبيون ص 185.

(2) الكامل فى التاريخ (11/ 535).

(3) صلاح الدين والصليبيون ص 186.

الأردن، ومن بين أيديهم بلاد الروم، وأنهم لا ينجيهم إلا الله [1]. وأمام ذلك الهجوم الإسلامى الرهيب، أدرك الصليبيون أن نهايتهم قد حانت، وأنه لا ينجيهم من صلاح الدين سوى الفرار أو الاستسلام، ولم يستطع النجاة سوى ريموند أمير طرابلس الذى رأى عجز الصليبيين عن مقاومة الجيش الإسلامى، فاتفق مع جماعة من أصحابه وحملوا على من يليهم من المسلمين، ففتح المسلمون لهم طريقاً يخرجون منه، وبعد خروجهم التأم الصف مرة أخرى [2]. ويبدو أن خروج ريموند تم بموافقة صلاح الدين، الذى أصدر أوامره إلى ابن أخيه تقى الدين عمر، مقدم تلك الناحية التى حمل عليها ريموند، وقصد صلاح الدين بذلك إدخال الضعف واليأس فى نفوس الصليبيين عندما يعلمون بهروب ريموند وجموعه، كما لا يستبعد أن يكون ذلك الأمر قد تم باتفاق بين ريموند وصلاح الدين، بدليل أن بعض الصليبيين عندما تعرضوا لذلك الهجوم الشامل من المسلمين، ألقوا أسلحتهم، وجاءوا إلى معسكر المسلمين مستسلمين [3]، ومما زاد الطين بلة، أنه فى الوقت الذى تخلى فيه ريموند عن أبناء ملته، كان بعض المتطوعة المسلمين قد أشعلوا النيران فى الأعشاب والأشواك اليابسة التى تكسو تلك المنطقة، وكانت الريح تهب اتجاه الصليبيين، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار، والدخان، وحر القتال. الأمر الذى اضطر معه الصليبيون إلى التراجع إلى أعلى الجبل، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به، فاشتد عليهم القتال من سائر الجهات، ومنعوا عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة واحدة سوى خيمة الملك [4].

2- **الحرب النفسية عند صلاح الدين:** ويبدو أن صلاح الدين كان فى تلك المعركة الحاسمة، يعمد إلى القضاء على الصليبيين وإدخال الوهن فى نفوسهم بكل الوسائل، ولم يكن همه مقصوراً على القتال المباشر فقط، بل كان يستخدم الحرب

---

(1) النوادر السلطانية ص 186.

(2) الكامل فى التاريخ (11 / 535).

(3) مفرج الكروب (2/ 19) صلاح الدين والصليبيون ص 186.

(4) الكامل فى التاريخ (11 / 535، 536) صلاح الدين والصليبيون ص 187.

النفسية للتأثير على العدو، والدليل على ذلك أنه بعد أن حصر الصليبيين فى أعلى جبل حطين، ركز اهتمامه على الاستيلاء على صليبهم الأعظم الذى يسمونه صليب الصلبوت، والذى يذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم[1]، لأنه كان يعلم أن الاستيلاء عليه يعد أعظم سلاح لتحطيمهم نفسياً ومعنوياً، وبالفعل، فما أن تمكن من أخذه حتى حل بالصليبيين البوار وأيقنوا بالهلاك وتقدم المسلمون نحو قمة الجبل والصليبيون يتراجعون أمامهم، ويتساقطون أسرى وقتلى، حتى لم يبق مع الملك الصليبى الذى وصل إلى أعلى التل سوى فئة قليلة لا يتجاوز عددها مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين الشجعان[2]، وذكر ابن الأثير على لسان الملك الأفضل ابن صلاح الدين أن الصليبيين لما تراجعوا على رأس ملكهم إلى أعلى التل حملوا حملة قوية على من بإزائهم من المسلمين، وكادوا يزيلونهم عن أماكنهم، إلا أن المسلمين عادوا فردوا على تلك الحملة، واستطاعوا إعادة الصليبيين مرة أخرى إلى أعلى الجبل، مما جعل الملك الأفضل يعبر عن فرحته بذلك النصر بقوله: "هزمناهم"، وعاد الصليبيون مرة أخرى وحاولوا دحر المسلمين الذين ردوا عليهم بحملة أقوى أرجعتهم مرة ثالثة إلى أعلى التل، فعاد الملك الأفضل وعبر عن فرحته بذلك النصر مرة أخرى بقوله: هزمناهم وهنا تبدو لنا مهارة صلاح الدين الحربية وخبرته فى ميادين القتال، إذ كان يرى أن الهزيمة لن تتم على الصليبيين إلا بسقوط قيادتهم قتلاً وأسراً، فأجاب ابنه قائلاً: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، يقصد خيمة الملك. ثم أخذ فى تشديد هجماته وما هى إلا لحظات حتى سقطت تلك الخيمة، فنزل صلاح الدين وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرحه[3].

3- خسائر الصليبيين في حطين: والواقع أن ما فقده الصليبيون فى هذه المعركة من قتلى وأسرى يعتبر من أفدح الكوارث التى حلت بهم، ولم ينج إلا عدد

---

(1) كتاب الروضتين (2/78).

(2) مفرج الكروب (2/191) صلاح الدين والصليبيون ص 187.

(3) الكامل فى التاريخ (11/536) صلاح الدين والصليبيون ص 188.

قليل من المحاربين بالإضافة إلى من نجا من جند المؤخرة بقيادة باليان ابلين، وريجنالد صاحب صيدا، أو جند المقدمة بقيادة ريموند صاحب صيدا، أو جند المقدمة بقيادة ريموند صاحب طرابلس [1] وتساقط معظم الجيش الرئيسى بقيادة الملك جاى لوزجنان، فقد تساقطوا فى أيدى المسلمين قتلى وأسرى وكان على رأس الأسرى الملك جاى لوزجنان فقد تساقطوا فى أيدى المسلمين قتلى، وأسرى، وكان على رأس الأسرى الملك جاى، وأرناط صاحب الكرك وأوك صاحب جبيل، وهنفرى بن الهنفرى صاحب تبنين، وابن صاحبة طبرية، وجيرار مقدم الداوية، ومعظم من نجا من الاسبتارية، وغيرهم من أكابر الصليبيين[2].

4- صلاح الدين يصلى صلاة الشكر ويستقبل الملوك الأسرى: أمر صلاح الدين بأن تضرب له خيمة، فتم له ذلك، فنزل فيها، وصلى لله تعالى شكراً على هذه النعمة التى درج الملوك من قبله على تمنى مثلها، وماتوا بحسرتها [3]. ثم أحضر ملوك الصليبيين، ومقدميهم واستقبلهم استقبالاً حسناً، وأجلس الملك جاى إلى جانبه وأجلس البرنس أرناط صاحب الكرك إلى جانب الملك، وبادر صلاح الدين بتقديم إناء به ماء مثلج للملك جاى، فشرب منه، وأعطى ما تبقى لأرناط فشرب، وعندئذ غضب صلاح الدين من ذلك، وخاطب الملك مؤكداً له بأن أرناط لم يشرب الماء بإذنه فينال أمانه. ثم التفت إليه وذكره بجرائمه وخيانته وقال له: كم تحلف وتنكث ؟ فقال الترجمان عنه أنه يقول: قد جرت عادة الملوك بذلك[4]. فأوقف السلطان صلاح الدين وقال: هانذا أستنصر لمحمد. ثم عرض عليه الإسلام فأبى، فاستل صلاح الدين سلاحه وضربه فحل كتفه، وتمم عليه من حضر[5]. وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القوافل غدرا. ولما رأى ملك بيت المقدس جاى

(1) الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ص 98 صلاح الدين والصليبيون ص 188.

(2) النوادر السلطانية ص 77، مفرج الكروب (2/192).

(3) مفرج الكروب (2/194).

(4) مفرج الكروب (2/195).

(5) النوادر السلطانية ص 78 – 79.

لوزجنان ذلك المنظر، خاف وظن أن صلاح الدين سوف يثنّى به ولكن السلطان استحضره، وطيب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، أما هذا فإنه تجاوز حده فجرى ما جرى [1].

5- **موقف صلاح الدين من الأسرى:** أحضر صلاح الدين الداوية والاسبتارية، وعرض عليهم الإسلام فمن أسلم استبقاه ومن أبى أمر بقتله[2] وقد بين أبو شامة سبب مقتلهم أن صلاح الدين، قال: أنا أطهر الأرض من هذين الجنسين النجسين فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقطعان عن المعاداة، ولا يخدمان فى الأسر وهما أخبث أهل الكفر [3]. ومن المعروف أن فرسان هاتين الهيئتين قد تنكروا للمبادئ التى كرسوا حياتهم لخدمتها فخلعوا زيهم الدينى الأسود واتشحوا بالوشاح العسكرى الأبيض والشارة الصليبية الحمراء، وأصبحوا فى زمرة المحاربين وامتلك كل منهم ثلاثة من الخيل، وغلاماً يتبعه، وصار منهم قادة يحملون الألقاب والرتب العسكرية، ويجيدون حبك سياسة الغدر بالمسلمين، ونقض العهود والمواثيق. وكان هدف فرسان هاتين الطائفتين الأول والأسمى طعن الإسلام وانتهاك حرماته بشتى الوسائل مهما كلفهم ذلك من ثمن [4] كان عدد الاسبتارية والداوية حوالى ثلاثمائة وستين رجلاً، والأمر المؤكد: أن دورهم الحربى السابق ضد المسلمين كان دافعاً لقتلهم خاصة أنه عرف عنهم عدم احترامهم للعهود والمواثيق، كما أنه أدرك أنه فى حالة إطلاق سراحهم سيعودون إلى قتال المسلمين بصورة أشرس من ذى قبل، كما لا نغفل أن منهم من شارك فى حملة أرناط الآثمة على الحجاز، وأمام تلك الاعتبارات لم يتردد صلاح الدين فى الفتك بأولئك الأسرى من الصليبيين. وقد تعرض للهجوم من جانب عدد من المؤرخين الغربيين المحدثين الذين نسوا أو تناسوا ما فعله الصليبيون من مذابح فتكوا فيها بالآلاف المؤلفة من المسلمين،

(1) النوادر السلطانية ص 79 مفرج الكروب (2/195).

(2) مفرج الكروب (2/196) صلاح الدين والصليبيون ص 190 .

(3) كتاب الروضتين (2/79).

(4) التاريخ الحربى المصرى ص 186 حسان سعداوى.

وليس هذا بجديد على العقلية الغربية التى نجدها أحياناً تكيل بمكيالين وتبيح لنفسها ما تحرمه على غيرها، ولا نغفل أن ذلك الأسلوب من صلاح الدين جاء استثناء لسياسة متسامحة بصفة عامة تجاه أعدائه[1]، وأما بقية الأسرى، فقد أمر صلاح الدين بأن يساقوا إلى دمشق حيث احتيط على الأمراء، وبيع عامة الفرسان والجند الصليبيين فى الأسواق بأثمان[2] زهيدة، ودخل القاضى ابن أبى عصرون دمشق وصليب الصلبوت منكس بين يديه، وعاد السلطان إلى طبرية [3]. أما ريموند الثالث أمير طرابلس، فإنه لما نجا من المعركة - كما سبق أن ذكرنا - وصل إلى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياماً قليلة، حيث مات بها غيظاً وحنقاً مما جرى على الصليبيين خاصة وعلى دين النصرانية عامة[4].

ثالثاً: أسباب الانتصار فى معركة حطين:

1- **الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب:** لقد استطاع صلاح الدين الأيوبى رحمه الله أن يوحد الأمة ويجمعها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والجهاد فى سبيل الله، وتحرير البلاد الإسلامية، فأصبحت الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق تحت إمرته وقيادته، وحشد لهذه المهمة العلماء والفقهاء والجيوش والألوف من المجاهدين وفى مقدمتهم العلماء والفقهاء يحرضون المقاتلين على القتال وكون جيشاً برياً قوياً وأنشأ أسطولاً بحرياً مصرياً وأنفق عليه أموالاً طائلة [5]. قال ابن شداد: إن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه فى الملك وتمكين الله إياه فى البلاد وانقياد الناس لطاعته، ولزومهم قانون خدمته، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهاد والاجتهاد من إقامة قانون الجهاد، فسير إلى سائر العساكر واستحضرها، واجتمعوا إليه بعشترا فى التاريخ المذكور 24 ربيع الثانى 583هـ ورتبهم واندفع بهم

---

(1) الحروب الصليبية العلاقة بين الشرق والغرب ص 219.

(2) كتاب الروضتين (2/82) صلاح الدين والصليبيون ص 790.

(3) مرآة الزمان نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 190.

(4) الكامل فى التاريخ (3/53-55) صلاح الدين والصليبيون ص 191.

(5) صلاح الدين الأيوبى، علوان ص 121.

قاصداً نحو بلاد العدو المخذول فى وسط نهار الجمعة... وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة [1]. لقد كان الإعداد والاستعداد: فقد اختار الرماة، وزودهم بالنبال الكافية، الكثيرة، فملأ حياتهم بها، وقد بلغ ما فرقه على الرماة من نبال أربعمائة جمل، ورصد حمولة سبعين ناقة فى ساحة القتال وميدان المعركة، وجعل هذه النوق المحملة بالسهام، لمن تنفذ سهامه أن يأخذ منها ما يحتاج ضماناً لاستمرار القتال والرمى وعدم التوقف فيه حتى يتنزل النصر بإذن الله سبحانه وتعالى[2] وقد خاض صلاح الدين المعركة بجيش قوى ومهارة حربية منقطعة النظير، فضلاً عن اختياره لمكان المعركة وزمن وقوعها، حيث عسكر بجيشه على طبرية حائلاً بين العدو وبين الماء، كما أعلن جهاده فى شهر يولية الذى يعد أشد شهور السنة حرارة، وأقلها ماء فى الصهاريج والغدران، حتى أصبح العطش من أقوى الأسلحة بين يديه[3]، لقد مارس صلاح الدين قول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ...(٦٠) ﴾ (الأنفال) فقد جمع الجيوش الإسلامية واستدرج الجيوش الصليبية واختار المكان المناسب للمعركة.

2- **سنة التدرج ووحدة الأمة**: فقد قدم أمراء السلاجقة الكثير من أجل دحر الصليبيين، وقد حقق عماد الدين زنكى إنجازاً عظيماً بوضعه لمشروع رائد، ربما رأى الكثيرون – فى ذلك الوقت – استحالة تحقيقه على بساطته، وهو مشروعه الوحدى التحرُّرى، والذى حقق ابنه نور الدين جُزءه الأوَّل وحقَّق صلاح الدين قسماً مُهمًّا من جُزئه الثَّانى، ولذلك نرى انتصار صلاح الدين فى حطين تتويجاً لمشروع عماد الدين الوحدوى التحرُّرى، فلولا متابعة نور الدين لخُطى والده فى توحيد الشام ثم توحيد مصر مع الشام، لما تحقق هذا النصر [4]، الذى تمّ بفضل الله

(1) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 75.
(2) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (3/280).
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 191.
(4) العلاقات الدولية فى عصر الحروب الصليبية (2/375).

وجهود التوحيد، التى قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة التى تدعو للوحدة الإسلامية التى لا تفرق بين جنس أو لون أو طائفة وإنما جمعتهم الأخوة فى الله التى لم تفرق بين الأتراك والأكراد والعرب والفرس ولا غيرها من الأمم التى انضوت تحت راية الإسلام قال الشاعر:

ولست أدرى سوى الإسلام لى وطناً — الشام فيه ووادى النيل سيان
وأينما ذكر اسم الله فى بلد — عددت أرجاءه من لبِّ أوطانى[1]

ولقد تفاعلت العوامل التى ساعدت على الوحدة فى عهد صلاح الدين مع الزمن والوقت وخضعت لسنة التدرج وأعطت ثمارها فى معركة حطين وتوجت بفتح بيت المقدس وأصبح المؤمنون فى توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى [2].

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها المستعمرون من أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامى، فقد نجحوا فى تقطيع أراضى المسلمين لكنهم لهم ينجحوا فى تمزيق قلوبهم وظل المسلم محباً لأخيه المسلم ولسان حال كل منهم [3] يقول:

لو اشتكى مسلمٌ فى الصين أرّقنى — أو اشتكى مسلم فى الهند أبكانى
فمصر ريحانتى والشام نرجستى — وفى الجزيرة تاريخى وعنوانى
وفى العراق أكف المجد ترفعنى — عن كل باغ ومأفون وخوّان
ويسكن المسجد الأقصى وقبته — فى القلب لا شك أرعاه ويرعانى
أرى بخارى بلادى وهى نائية — وأستريح إلى ذكرى خراسان
شريعة الله لمت شملنا وبنت — لنا مقامًا بإحسان وإيمان[4]

---

(1) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، إبراهيم النعمة ص 9.
(2) البخارى، ك الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم.
(3) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم ص 23.
(4) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم ص 24.

3- **بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية**: من الملاحظ أن صلاح الدين الأيوبى كان يدرك أهمية العمل المزدوج: توحيد الجبهة الإسلامية وجهاد الصليبيين، نظراً لما بينهما من اتصال وثيق، ومما يذكر هنا أن عام 582هـ/ 1186م شهد الاتفاق مع عز الدين مسعود صاحب الموصل على أن يكون تابعاً له، ولذلك استطاع أن يخضع الأربعة مدن الإسلامية الرئيسية التى تحكمت فى الظهير البرى وهى القاهرة، ودمشق، وحلب، والموصل، وجميعها سيكون لها شأنها البارز فى مشروع الجهاد[1]، من زاوية أخرى، لا نغفل أن الصليبيين وعلى رأسهم ريموند الثالث كونت طرابلس، اتجهوا إلى عقد هدنة مع صلاح الدين وذلك عام 581هـ/ 1185م مدتها أربع سنوات. ومن الملاحظ أن كلاً من الجانبين احتاج إليها من أجل تنظيم قواته والتقاط الأنفاس، ومما يدل على بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية مهادنته لبعض القوى الصليبية من أجل المحافظة على قواته وعدم تبديد فعالياتها فى عمليات حربية كبيرة مستمرة لاسيما مع الصليبيين؛ ولذا نجده يتجنب طوال تلك الأعوام الدخول فى معركة حاسمة معهم ولا يتعجل الأمر، بل يترك عوامل الانقسام والفرقة تلعب دورها فى صفوفهم وكانت من أخطر قراراته السياسية قرار "السلام" المؤقت مع الصليبيين، ومن المهم إدراك أن تلك المعاهدات عندما سيتم خرقها ستعطيه المبرر لشن حرب التحرير الشاملة التى من ثمارها معركة حطين. وكانت شرارة الصدام بين صلاح الدين الأيوبى والصليبيين أتت من الفارس الصليبى، رينو دى شاتيون أو أرناط وهو الفارس الذى أدخلته رعونته التاريخ من أوسع أبوابه، فقد خرق أرناط الهدنة واعتبرها صلاح الدين إعلان حرب صليبى، وكان الرد الأيوبى سريعاً وحاسماً كما حدث فى معركة حطين 583هـ/ 1187م [2] ومن بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية أنه قبل الدخول فى معركة حطين قام بهذه الأمور:

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 215.

(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 217.

أ- **تنظيم دولته وإقطاعات أمرائه**: كان صلاح الدين بارعاً في تسوياته الرضائية وحفظ التوازنات لإرضاء الجميع وكان يفوض غيره في أمر الإدارة وينشغل كلياً بالمهمات الحربية، وكان يسند الأمور إلى أهلها ويشترط على نوابه وحكّامه في إدارة الأقاليم والإقطاعات معاملة الرعية بالمساواة والإسهام في نفقات الجهاد والاحتفاظ بجيوشهم جاهزة دوماً للقتال، وكان يهتم بالولاء المخلص من أتباعه، وقال مرّة للقاضي ابن شداد: إنني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر [1]. وقد كتب منشوراً في الرقة ذات مرة قال فيه: إن أشقى الأمراء من سمّن كيسه وأهزل الخلق وأبعدهم عن الحق مَنْ أخذ الباطل من الناس وسمّاه الحق، ومن ترك لله شيئاً عوّضه الله، ومَن أقرض الله قرضاً حسناً وفّاه ما أقرضه [2] وقد تمّ ترتيب الدولة وإقطاعات أمرائه بعد حركة التوحيد التي استغرقت أكثر من عقد من الزمن.

ب- **تنظيم أطماع أسرته وإرضاؤها**: وكانت الأسرة الأيوبية هي سنده وشاغله في وقت معاً، وكانت مطامع أفرادها متّفقة مع مفاهيم عصره، لكنها، لا تتفق مع طموحات صلاح الدين ومفهومه للدولة، كانوا جديدين على عمليات الحكم، يفهمونه على أنه امتلاك لأراضي الناس ورقابهم؛ لا على أنه إدارة لشؤونهم وتسيير لرعية هم مسؤولون عنها، ومفهومه أتاه -- من تتلمذه على يدي نور الدين محمود الشهيد - أمّا أسرته فكان مفهومها مستقى من واقع ما يجري في العصر. وقد عاني صلاح الدين من تباين الحالين، وعبّر عن هذا التباين يوم قال لأخيه العادل - وهو يطلب عقد تملُّك لحلب مقابل 150ألف دينار اقترضها صلاح الدين منه: أظننت أنّ البلاد تباع وتشترى، أوَمَا علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحرّاس لأموالهم [3]؟ وقد انتهى الأمر بعد عدد من التغييرات والمبادلات في سنة 582هـ إلى ما يلي:

---

(1) النوادر السلطانية ص 218.

(2) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 253

(3) كتاب الروضتين (2/52)

- أُعيد تعيين أخيه الملك العادل في مصر لا في ملكية قلعة ولا إقطاع كامل؛ ولكن بصفة وصي على العزيز عثمان بن صلاح الدين.
- عين ابن أخيه تقي الدين عمر لإقطاع ميافارقين وديار بكر بعد أن تمرّد في مصر أو كان يخرج عن الطاعة وعن مصر، وقد أقنعه القاضي الفاضل بعدم التهوّر.
- وتمّ إعادة ابن صلاح الدين: الظاهر غازي لولاية حلب.
- يقي شيركوه بن ناصر الدين محمد في إقطاعه بحمص لم يتغير (1).

ج- **العمل الدبلوماسي الخارجي**: فقد أدرك صلاح الدين من خلال تجاربه ومسؤولياته خلال عشرين سنة ونيف أن الإطار الخارجي للأحداث له أثره فيها، وقد يمارس عليها تأثيراً خطيراً، وأن القوى المادية التي بنى منها دولته قطعة قطعة لا تكفي لضمان الاطمئنان إلى مسيرة الأمور كما يشتهي، ولابدّ من صداقات وهدنات وعلاقات سلام تقوم مع القوى الخارجية، بل والمعادية أحياناً، فقد أقام في عام 577هـ علاقات حسنة مع القسطنطينية وتمّ فتح الجامع الإسلامي فيها وإطلاق حوالي مئتي أسير مسلم عندها وكان من نجاح هذه العلاقة أن زاد العداء بين بيزنطة وفرنجة الشام، مما زاد في اطمئنان صلاح الدين إلى بيزنطة وإلى قبرص(2) ومن جهة أخرى فإن الأساطيل الإيطالية - أساطيل جنوا وبيزا والبندقية وأمالفي - كانت متصلة الورود والتكاشف على السواحل الشامية، ولها امتيازاتها في المرافئ كلها، وهي تحمل الرجال والسلاح والمال إليهم دون انقطاع، وترجع ببضائع الشرق والتوابل إلى الغرب ودورها الفعّال هو الذي ساند الإمارات الفرنجية في المشرق على مدى قرابة قرن؛ ولولا أشرعتها ما بقيت هذه الإمارات ولا قويت، فكان على صلاح الدين أن يكبح من قوتها ما استطاع، ولا يجاريها في البحر، فلم يكن لديه الأسطول الكافي لذلك، وإنما بفتح بعض مرافئه لمصالحها، وهو يعرف أنّ مصلحة هؤلاء التّجار تغلب تديّنهم وتجعلهم ينسون الحرمان الذي يمكن أن يرميهم به

---

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 255

(2) المصدر نفسه ص 256.

البابا؛ كما أنهم متنافسون فيما بينهم، فاستغل منافساتهم وبذل كثيراً من الجهود لاجتذاب تجّارهم إلى مرافئ مصر مما لا يؤدى إلى تأمين منافعهم، ولكن إلى تأمين منافع الدولة وزيادة مواردها، ومنافع التجّار المصريين من وراء الفرنج وقد أقام مع البيازنه والبياشنة - تجار بيزا - معاهدة سنة 569هـ، وثمّة فقرة فى كتاب أرسله صلاح الدين إلى الخليفة فى بغداد تؤكِّد وجود اتفاق مماثل مع جنوا والبندقية. تقول الفقرة: ما منهم إلاّ من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده - أسلحة - ويتقرَّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده وكلهم قد تقرَّرت معهم المواصلة وانتظمت معهم المسالمة [1].

د- **قضية الجهاد**: وهى القضية المركزية التى شغلته حتى وهو فى صيده أو فى خلواته مع أولاده وكانت الأشهر الأخيرة من سنة 582هـ[2] هى أشهر المكاتبات والرسائل لنوَّابه وعمَّاله والتابعين له فى مصر والشام والجزيرة والاستعداد للحرب، وكان لا يجهل بالطبع ما يجرى فى مملكة بين المقدس من منازعات، ويعرف معنى الهدنة التى منحها لريموند أمير طرابلس الغاضب على ملك القدس. وعلى أية حال كانت جميع الخيوط فى يد صلاح الدين فى مطلع سنة 583هـ، وساق الله له قانون الفرصة عندما نقض أرناط عهده ومواثيقه، فتعامل معه بسنة الأخذ بالأسباب والتوكل على الله عز وجل.

4- **لا تقاتلوا عنى وقاتلوا فى سبيل الله: إخلاصه العظيم لله عز وجل**: حين سمع صلاح الدين فى غزوة حطين مسير الجيش الصليبى إليه قال: جاءنا ما كنا نريد، واجتمع أصحابه وأشاروا بالقيام بالغارات، فرفض وقال: الرأى عندى أن نلقى بجميع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجرى بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا، ولا ينبغى أن نفرِّق هذا الجمع إلاّ بعد الجد والجهاد، وقال للجند: لا تقاتلوا عنى ولكن قاتلوا فى سبيل الله [3] وهذا تطبيق عملى من صلاح

---

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 257.

(2) المصدر نفسه ص 257.

(3) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك العادل ص 263 كتاب الروضتين (3/ 297).

الدين لقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ... ﴿٧٦﴾﴾ (النساء). فقد خاض صلاح الدين حروبه مع الصليبيين انطلاقاً من مبدأ القتال فى سبيل الله[1]، فقد كان يحرص كل الحرص أن يكون القتال فى سبيل الله وفى رفع راية الإسلام خفاقة وتنكيس راية الشرك والمشركين من الصليبيين الذين عبدوا الصليب وقدسوه، فقد كان صلاح الدين مخلصاً فى جهاده، ومخلصاً فى طلب الشهادة، وكان يذكّر قواده وأمراءه بضرورة الإخلاص لله وإرادة وجه الله فى قتال الأعداء حتى يثيبهم الله ثواب المجاهدين ويبلغهم منازل الشهداء الغرّ الميامين من أمة سيد المرسلين ﷺ ولقد وفقه الله فى معاركه وفتوحاته لكثرة إخلاصه. كيف لا، وهو إذا فتح بلداً من البلاد لم ينسب النصر له، بل نسبه إلى الله عز وجل، فهو واهب النصر، وناصر المؤمنين الموحدين، وهازم الكافرين المشركين، فما أن ينتصر المسلمون بقيادته إلا وخرّ ساجداً لله تبارك وتعالى شاكراً له على نصره، وهكذا حصل منه فى حطين وغير حطين [2].

5- **تطبيق الشريعة وبركاتها فى دولة صلاح الدين:** يخبرنا التاريخ أن صلاح الدين رحمه الله حينما تولى الإمارة والسلطنة قد تاب إلى الله توبة نصوحاً، وهجر أسباب المعاصى ووسائل اللهو المحرم وندم على كل ما وقع فيه فى مراهقته، فأقبل على الله تعالى بتوبة صادقة واشتغل بالطاعات فأكثر من العبادة، وقد علم جنوده وغيرهم ورباهم على حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والوقوف عند حدوده وهجر معاصيه والإقبال على طاعته، وكان يهتم بالشريعة وعلمائها، يطبق الأحكام الشرعية على الرعية ويسوسها بالعدل والسوية ويقمع أهل الضلالة والفساد، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتواضع للناس ولا يحابى محباً ولا يظلم مبغضاً، بل كان يتجاوز عن المبطل إذا خاصمه بالباطل ويحيطه بكرمه وحسن أخلاقه، وكان يأمر أهله وقواده بتوثيق الصلة بالله، وبكتابه تلاوةً وحفظاً وتدبراً وعملاً، وكان يوصي أبناءه بتقوى الله وطاعته ويذكرهم بالموت وما بعده، وتأمل

(1) صلاح الدين الأيوبى عبدالله علوان ص 113.
(2) دروس وتأملات فى الحروب الصليبية ص 178.

معى هذه الوصية لولد من أولاده الذين بلغوا سبعة عشرة ذكراً وهو الملك الظاهر: أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء، والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام، أوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى الدولة وأكابرها، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد. فإن الموت لا يبقى أحداً واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه، فإنه كريم (1).

إن للحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية. أما الآثار الدنيوية التى ظهرت فى دولة صلاح الدين:

أ- **الاستخلاف والتمكين:** حيث نجد نور الدين وصلاح الدين من بعده حرصوا على إقامة شرع الله فى أنفسهم وأخلصوا لله تحاكمهم فى سرهم وعلانيتهم، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم حتى استخلفهم فى الأرض، وأقام صلاح الدين شريعة الله فى دولته، فمكّن له الله عز وجل ووطأ له سلطانه وهذه سنة ربانية نافذه لا تتبدل فى الشعوب والأمم التى تسعى جاهدة لإقامة شرع الله. وقد خاطب الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعداً إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه فى سورة النور ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ** ... (٥٥) ﴾. أى بدلاً عن الكفار "كما استخلف الذين من قبلهم" من بنى إسرائيل (2)، فإذا حقق الناس الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمن، فستأتيهم ثمرة ذلك وأثره الباقى ﴿ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ** ... (٥٥) ﴾ (النور) فتحقيق التحاكم إلى الدين يتحقق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به يوصل إلى الدين وهذا ما رأيته فى دولة نور الدين وصلاح الدين.

ب- **الأمن والاستقرار:** بعد أن أكرم الله صلاح الدين، بإزالة الدولة الفاطمية وفتح مصر وضم حلب ودمشق، والاتفاق مع الموصل فى جبهة إسلامية عريضة تيسر لدولته الأمن والاستقرار فى تلك الربوع التى حكم فيها بشرع الله

---

(1) دروس وتاملات فى الحروب الصليبية ص 180.

(2) تفسير الجلالين ص 466.

حيث نجد أن دولة صلاح الدين بعد أن استخلفت ومكن الله لها أعطاها دواعى الأمن وأسباب الاستقرار حتى تُحافظ على مكانتها، وهذه سنة جارية ماضية، ضمن الله لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن ييسر لهم الأمن الذى ينشدون فى أنفسهم وواقعهم فبيده سبحانه مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله ما يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ (الأنعام) فنفوسهم فى أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك صغيره وكبيره، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته. إن الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من الأمن والطمأنينة والبعد عن الخوف والفزع قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ...(٥٥)﴾ (النور). وإن تحقيق العبودية لله ونبذ الشرك بأنواعه يحقق الأمن فى النفوس على مستوى الأفراد والشعوب، وهذا ما حدث لصلاح الدين ودولته والمسلمين فى عهده لما انقادوا إلى منهج رب العالمين.

جـ- **العز والشرف**: إن عزّ صلاح الدين والأيوبيين وشرفهم العظيم الذى سطر فى كتب التاريخ يرجع إلى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. إن من يعتز بالانتساب به تشرف الأمة وبه يعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية فى إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)﴾ (الأنبياء). قال ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير هذه الآية: فيه شرفكم [1]، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام، كما قال

(1) تفسير ابن كثير (3/ 170)

عمر بن الخطاب رضى الله عنه "إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله[1]، فعمر رضى الله عنه كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزاً وذُلا، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت في يوم بغير دين الله، ولا ذلت في يوم إلا بالانحراف عنه قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ... ﴿١٠﴾ ﴾ (فاطر) يعنى من طلب العزة فليعتز بطاعة الله عز وجل [2].. وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المنافقون) لقد انتصر صلاح الدين والمسلمون فى حطين بفضل الله عز وجل الذى طبقوا شرعه.

د- **النصر والفتح**: لقد حرص صلاح الدين والمسلمون على نصرة دين الله بكل ما يملكون، وتحققت فيهم سنة الله فى نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (الحج).

6- **العدل**: إن العدل أساس الملك ولهذا أمر الله رسوله بالقيام به فقال: ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ... ﴿١٥﴾ ﴾ (الشورى) كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ... ﴿١٣٥﴾ ﴾ (النساء). وقال تعالى: ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ... ﴿٨﴾ ﴾ (المائدة) وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ...﴿٥٨﴾ ﴾(النساء) والعدل فى الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها وإنصاف المظلوم يبعث فى الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، ورعية تحب حكامها وتطيعهم لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم، وأما الظلم فهو ظلمات فى الدنيا والآخرة، وهو يؤذن بزوال الدول ولهذا حرمه الله على نفسه وجعله محرماً بين خلقه فقال تعالى فى الحديث القدسى: يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً

---

(1) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى الإيمان (1/62).

(2) تفسير ابن كثير (2/526).

فلا تظالموا [1]. وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ... ﴿٢٢﴾﴾ (الصافات) وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ... ﴿٥٢﴾﴾ (النمل).

ومن الحق أن نسجل أن الدولة النورية في عهد نور الدين زنكي والدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين الأيوبي، قد ساد العدل في الرعية، وتم إيصال حقوق الناس إليهم، فنشطوا إلى الجهاد والدفاع عن دولتهم[2]. قال القاضي ابن شداد عن صلاح الدين: لقد كان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد، من كبير وصغير، وعجوز وهرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته وأخذ بقصته [3] لقد قام صلاح الدين بالعدل في دولته وترك لنا وقائع ملموسة وتطبيقات عملية مع الأمراء والرعية في المحافظة على حقوق الأفراد وحقوق الدولة، قامت هذه التطبيقات على العدل والإنصاف وأرست هذه القاعدة: العدل أساس الحكم والظلم يؤذن بزوال الدولة [4]، كما أن العدل الذي أقامه صلاح الدين في دولته كان من أسباب انتصاره في حطين.

7- **جيل مقاتل في سبيل الله:** لم يظهر جيل صلاح الدين من فراغ وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول منهج أهل السنة والجماعة وأصبح ذلك

---

(1) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم 1828.

(2) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 205.

(3) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 13- 14

(4) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 211

الجيل الذى أكرمه الله بالنصر فى حطين تنطبق فيه كثير من صفات الطائفة المنصورة والتى من أهمها:

أ- **أنها على الحق**: وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق واتباعه ما ليس لسائر المسلمين، وهى إنما استحقت الذكر والنصر، لتمسكها بالحق الكامل حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة فى الحق الذى استمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلى:

- الاستقامة فى الاعتقاد وملازمة ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه ومجانبة البدع وأهلها، فهم أصحاب السنة وصلاح الدين والمسلمون الذين معه هم الذين قضوا على الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية.

- الاستقامة فى الهدى والسلوك الظاهر على المنهج النبوى الموروث عن الصحابة رضى الله عنهم والسلامة من أسباب الفسق والريبة والشهوة المحرمة.

- الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وإقامة الحق على العاملين.

- الاستقامة فى الحرص على توفير أسباب النصر المادية والمعنوية واستجماع المقومات التى يستنزل المؤمنون بها نصر الله. ولا شك أنهم إنما ينتصرون لملازمتهم للجادة المستقيمة من جهة، ولبذلهم الجهد الواجب فى تحصيل أسباب النصر من جهة ثانية. وهذا ما قام به صلاح الدين والقادة الذين معه، وبذلُ الجهد فى تحصيل تلك الأسباب هو - فى الحقيقة - جزء من الاستقامة على الشريعة، إذ الشريعة تأمر بفعل الأسباب واتخاذ الوسائل المادية الممكنة، من الصناعة، والسلاح، والتخطيط، والإدارة وغيرها، ولا يتوهم أن النصر يجىء بدونها، لأن تحقيق ذلك هو مقتضيات الاستقامة على أمر الله[1]

ب- **أنها قائمة بأمر الله**: وهذه الخصيصة بارزة جداً فى الوصف النبوى لهذه الطائفة، فهم أمة قائمة بأمر الله، واسمهم "الطائفة المنصورة"، فقد تميز

(1) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين ص 473

صلاح الدين بحمل راية الدعوة إلى الله وإلى دينه وشرعه، وسنة نبيه ﷺ، والقيام على نشر السنة بين الناس بكل وسيلة ممكنة ومشروعة، ووظف إمكانات الدولة لذلك ولدفع الشبهات عن منهج أهل السنة، والرد على مخالفيه.

– كما كانت دولة صلاح الدين قائمة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، باليد، واللسان، والقلب، معارضة لكل انحراف يقع بين المسلمين، أيًّا كان نوعه: سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو علميا، أو اعتقادياً.

جـ– **أنها تقوم بواجب الجهاد فى سبيل الله**: والطائفة المنصورة جاءت الأحاديث النبوية فى وصفهم بأنه "يقاتلون على الحق [1] أو يقاتلون على أمر الله [2]. وإن صلاح الدين وجيشه قاموا بالجهاد الشرعى فى سبيل الله وقتال أعداء الله من الكفار وغيرهم.

د– **أنها صابرة**: فقد خصّ الله الطائفة المنصورة بالصبر، وقد رأيت وسوف ترى بإذن الله كيف تسلح صلاح الدين وجنوده بالصبر الجميل فى جهادهم ولم تستطع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذى يسعون إليه، ولهذا وصف الرسول ﷺ هؤلاء القوم بأنهم: لايضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم، ولا يبالون من خالفهم [3]. وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى هؤلاء العاملين الذى عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم، فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين وعوائق المخذلين ولا تكذيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين [4]. فهذه الصفات التى جاءت فى الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة قد انطبقت على جيل صلاح الدين الأيوبى، وكان صلاح الدين يوصى جنوده بالوصايا النافعة فقد قال – رحمه الله – ذات يوم: اعلموا أنكم جند

---

(1) أبو داود، ك الجهاد، باب دوام الجهاد (3/ 11) رقم 2484.

(2) مسلم، ك الإمارة، باب قوله: لا تزال (31/ 1524) رقم 176.

(3) رواه سعيد بن منصور، ك الجهاد رقم 2376 وله طرق تقوية.

(4) صفة الغرباء ص 205.

الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم فى ذممكم معلقة، والله عز وجل، سائلكم يوم القيامة عنهم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن البلاد والعباد غيركم، فإن توليتم - والعياذ بالله- طوى البلاد وأهلك العباد، وأخذ الأموال والأطفال والنساء، وعبد الصليب فى المساجد وعُزل القرآن منها والصلاة وكان ذلك كله فى ذممكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله، وأكلتم أموال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والسلام [1].

8- الاستعانة بالعلماء واستشارتهم فى الحرب والإدارة: كان صلاح الدين يلازم العلماء، ويجالسهم ويستشيرهم فى الحروب والإدارة ويستمع إلى نصائحهم ويقدرها وكان يعتمد على بعضهم فى إدارة ممالكه وكان أكثرهم مرافقة له فى السراء والضراء وفى حله وترحاله القاضى الفاضل، تأمل حديثه وتحليله لأهم أسباب النصر بعد توفيق الله تعالى حين يقول: ما فتحت البلاد بالعسكر، وإنما فتحتها بكلام الفاضل [2]، فالقاضى الفاضى كان يقدم له الرأى الحصيف، والقول السديد، والقرار الحكيم، وكان يصدقه فى الرأى والحرب والمكيدة والسياسة والحكم: قال ابن كثير: وكان القاضى الفاضل بمصر يدبر الممالك بها ويجهز إلى السلطان ما يحتاج إليه من الأموال، وعمل الأسطول والكتب السلطانية[3]. وقد لاقى صلاح الدين التأييد التام من العلماء والفقهاء، وكان يستشيرهم ويأخذ بآرائهم. وبعد انتصاره الكبير فى حطين رأى صلاح الدين استكمال الجهاد ضد الصليبيين واستعادة المدن الشامية منهم مرّة أخرى، وقد شارك مجموعة من العلماء فى هذه الفتوحات يأتى ذكرهم فى حينه [4] بإذن الله. فقد استعان صلاح الدين بالعلماء والفقهاء على إعداد الأمة جهادياً مبيناً لهم غاية الجهاد فى الإسلام وضرورة الالتزام بها والعمل لها، وقد ساهم العلماء مساهمة جوهرية فى رفع الروح المعنوية القتالية فى حطين وغيرها.

---

(1) البداية والنهاية نقلاً عن واقدساه (1/ 373).

(2) شذرات الذهب (4/ 327).

(3) البداية والنهاية نقلاً عن دروس وتاملات فى الحروب الصليبية ص 198.

(4) دروس وتاملات فى الحروب الصليبية ص 143.

9 ـ **حسن الصلة بالله**: كان صلاح الدين كثير العبادة والدعاء والرجاء في نصر الله وعونه، وكان يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحضهم على الطاعة والعبادة ويتقدمهم في ذلك ويهيئ لهم الفرصة لتزكية النفوس والانشغال بتلاوة القرآن وتدبره وحفظه، وكان حريصاً على صلاة القيام وكثرة الذكر، ويحض أمراءه وجنده على ذلك، فكان رحمه الله يجلس إلى العلماء ويقرأ عليهم القرآن، ويستمع منهم إلى تفسيره، ويجلس إلى أهل الحديث يتفقه عليهم فقه الحديث ويستمع إلى الفقهاء والعلماء، وكان يحضر العلماء والفقهاء والمفسرين ليعلموا الجيش كتاب ربهم ويفقهوهم في دينهم ويوثقوا صلتهم بربهم. وكان رحمه الله يأمر جنوده في الخيام أن يقوموا في الليل وأن يذكروا الله ذكراً كثيراً، وكان يتفقد خيام الجند فإذا وجد خيمة غفل أهلها عن القيام والذكر وتلاوة القرآن أيقظهم وذكرهم بضرورة الإكثار من ذكر الله وعبادته وطاعته وهذه الأمور من أهم عوامل النصر على العدو[1].

10- **اللجوء إلى الله بعد الإعداد**: ومن أسباب النصر أنه كان بعد الأخذ بالأسباب يلجأ إلى الله تبارك وتعالى يطلب منه المد والعون وكان رحمه الله كثير الدعاء واللجوء إلى الله في الملمات وكان في دعائه مخلصاً متضرعاً. قال القاضي العالم المصاحب له في أسفاره وجهاده عن دعائه وحاله في الدعاء: كان يتصدق ويخفي صدقته قبل أن يناجي ربه وهو ساجد فيقول إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية من نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل. ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته، ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول[2]، فسرعان ما يستجيب الله دعاءه ويجعل أمر الصليبيين في اضطراب ويعودون شر مآب بالهزيمة من رب الأرباب، نعم إنه التوكل على الله حق توكله، والدعاء من سويداء القلب إلى ربه وهو القائل

(1) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 185.
(2) النوادر السلطانية ص 12

سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ... (٣) ﴾ (الطلاق) وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ (الطلاق) وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ (البقرة) وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...(٦٠) ﴾ (غافر).

11- **نجاح العمل الاستخباراتى لصلاح الدين:** استطاع صلاح الدين أن يخترق الصليبيين استخباراتياً، فقبيل معركة حطين تمكن صلاح الدين من استمالة زوجة أمير أنطاكية بوهيموند الثالث السيد سيبل، فكانت لها اتصالات سرية مع صلاح الدين الأيوبى وكانت تطلعه على خطط الصليبيين وتحركاتهم أولاً بأول، وذلك فى فجر يوم حطين. ويؤكد المؤرخ ابن الأثير هذه الحقيقة، فيقول إن أميرة انطاكية كانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الأحوال التى يؤثرها [1] علمها. أما أبو شامة فيقول: وكانت امرأة ابرنس انطاكية وتعرف مدام سيبل فى موالاة السلطان، عيناً له على العدو، وتهاديه وتناصحه، وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدى إليها أنفس الهدايا [2]، إن من أسباب الانتصار فى حطين إعطاء هذا الأمر حقه من الاهتمام، فقد جنّب صلاح الدين المفاجآت العدوانية من الصليبيين. وقد كتب صن تزو، مشيراً لأهمية ذلك: إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مائة معركة، وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سوف تواجه الهزيمة فى كل معركة [3] وقد انعكست عبقرية صلاح الدين فى إيجاد شبكة اتصالات ومخابرات متينة ضمن صفوف الصليبيين بحيث كانت أخبارهم وتحركاتهم تصل إليه بسرعة، وباستمرار [4].

---

(1) دور المرأة فى الاستخبارات الإسلامية ص 67.
(2) حطين وقائع وعبر، عبد الفتاح عاشور ص 45.
(3) الاستخبارات العسكرية فى الإسلام ص 311.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 153

12- **الأسباب التي تعود إلى الصليبيين**: لم يكن الصليبيون في معركة منقسمين على أنفسهم كانقسامهم في هذه المعركة، فبينما يرى القونص صاحب طرابلس عدم القتال في المكان الذي اختاره صلاح الدين ينبري له أرناط صاحب مملكة الكرك بالاتهام بالجبن والتواطؤ مع المسلمين، والدعاية لهم بقوتهم ويتهمه بأنه يلاين المسلمين لأن زوجته حاصرها صلاح الدين والمسلمون في قلعة طبرية، ولهذا نجده ما إن وجد فرصة للهروب هرب ومن معه من أرض المعركة وتركهم في أصعب ساعات القتال، كما ترك زوجته في هذا الوضع الحرج.

- لقد وقعوا في الحيلة التي وضعها صلاح الدين عن غباء وعلم بها، وقد نبههم إليها قونص طرابلس.

- الروح المعنوية التي انهارات من حرب الاستنزاف وفي بداية المعركة والمعارك السابقة التي وجدوا أنفسهم أمام المسلمين، أقوياء الشكيمة لا قدرة لهم على دفع الهزيمة والأذى.

- فسق هؤلاء الصليبيين وفجورهم وانتشار الدعارة فيهم، وأن قسماً كبيراً منهم جاء للنهب والسلب والسفك ظلماً. إنهم لا أخلاق لهم، والنصر منهم بعيد على المؤمنين الموحدين المجاهدين.

وفي هذا يقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: ومما يلفت النظر أن هؤلاء الغزاة لا أخلاق لهم وليس عندهم قيم بل كانوا فجرة أشراراً منحلين فاسقين، وهؤلاء أعداء الحضارة وقتلتها، إذا لا يرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين والمهرجين والرهبان والدعار والراهبات العواهر(1).

13- **رأي أبي الحسن الندوي في سر انتصار صلاح الدين**: ألقى الشيخ الندوي كلمة في رابطة العالم الإسلامي جاء فيها: . . . إن الحل الوحيد لقضية فلسطين أن

---

(1) حضارة العرب ص 328.

يبرز صلاح الدين على مسرح القضية الفلسطينية وعلى مسرح الجهاد الإسلامى مّرة ثانية، يقول الزركلى :

هاتى صــلاح الدين ثـانيـــة فـــينا وجــددى حطين أو شبــه حطّينا

.. ماذا كان سر انتصار صلاح الدين الأيوبى الانتصار الباهر الذى حيَّر العالم، وغيَّر مجرى التاريخ؟ إنما السرُّ أنه كان مسلماً مؤمناً محمدياً لا يعرف غير لغة القرآن، ولا يعرف غير لغة الإيمان، ولا يعرف غير لغة الجنان، والمسلمون ما زالوا ولا يزالون... إن المسلمين إلى هذا الوقت وإن كانت المادّية الرعناء، والتربية العصرية قد فعلتا فعلتهما فهم لا يفهمون غير لغة القرآن. إن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، ومهما تعددت لغاتهم، ومهما فاق ذكاؤهم، ومهما فاقت ألمعيتهم وعبقريتهم، إلى الآن لا يفهمون إلا لغة محمد عليه الصلاة والسلام الذى آمنوا به كنبىٍّ خالد وكرافع علم الجهاد المقدس، إنهم لا يفهمون غير لغة القرآن، خاطبوا المسلمين بلغة القرآن أيها الإخوان لا بلغة السياسة، أثيروا فيهم الحنان، والإيمان بكلمة الجهاد، بكلمة الحنين إلى الشهادة، إنهم لا يزالون يحسنون فيهم هذه اللغة، إنما كان سر سيطرة صلاح الدين على القلوب والأرواح فى أنَّه فهم هذا السر. إن المسلمين لا يندفعون إلا بدافع الجهاد، فجمع تحت رايته الإيمانية أشتاتاً من القيادات، وضروباً وأنواعاً من الشعوب واستطاع أن يوحِّد كلمة العالم الإسلامى الممزَّق المشتت، المنقسم على نفسه، وكيف استطاع أن يجمع هذا العالم المترامى الذى تعدَّدت عناصره وتعدَّدت ثقافاته وتعدَّدت مذاهبه الفقهية، كيف استطاع أن يوحِّد العالم الإسلامىَّ فى هذه الفترة الحالكة العصيبة تحت راية محمد عليه الصلاة والسلام، لم يرفع راية القومية العربية، اسمحوا لى أن أقول: أنا هندى الأصل، أنا هندى الثقافة، أنا رجل ولدت ونشأت فى الهند ولكن أؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام وأؤمن بالقرآن. إنّ هناك قلوباً تعدُّ بالملايين، تهفو، وتصبو

إليكم، وتستهين في سبيلكم بأجسامها وحياتها وسلامتها، إن مذبحة كبيرة وقعت في الهند في أحمد آباد في مدة قريبة، وماذا كان السبب ؟ ذلك لأجل التجمع الإسلامي الكبير الذي حصل تأييداً لقضية فلسطين، إنما وقعت هذه المجزرة ووقع هذا الاضطراب الطائفي الهائل لأن المسلمين في أحمد آباد تجمَّعوا على بعد الدار، وحيلولة البحار، وعدم معرفتهم للغة العرب، تجمعوا هذا التجمع الخالد التاريخي ليدافعوا عن قضية فلسطين، وذلك برهان ساطع على أن هنالك قلوباً مخلصة لا يعرف مدى إخلاصها إلا الله تبارك وتعالى. قلوب مؤمنة صادقة لا تعرف لغة السياسة، ولا تعرف لغة اللياقة، إنما تعرف الإيمان، إنما تعرف الحنان إنما تعرف لغة القرآن، فأنتم تملكون ثروة لا تملكها أمريكا ولا تملكها روسيا، تلك ثروة الإيمان، تلك ثروة الإيمان الدافق، ... إن هذه الثروة موجودة ولكنها تحتاج إلى إثارة، تحتاج إلى تحريك، تحريك صادق مؤمن [1].

رابعاً: ردود أفعال معركة حطين:

1- **فرحة القاضي الفاضل بنصر حطين:** كان القاضي الفاضل غائباً عن نصر حطين بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان: ليهن المولى أن الله قد أقام به الدِّين القيِّم، وأنه كما قيل: أصبحت مولاي ومولى كل مُسْلم، وأنه قد أسبع عليه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه المُلكين: ملك الدنيا وملك الآخرة. كتب المملوك هذه الخدمة، والرؤوس إلى الآن لم تُرفع من سجودها، والدموع لم تُمسح من خدودها وكلما فكَّر المملوك أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي يقال فيه: إن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه: إنه واحد، جَدَّد لله شُكراً تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جَفْنه، ....

(1) محاضرات في الفكر والدعوة (227/2، 228).

تلك المكارم لاقَعْبَانِ من لَبَنٍ	وذلك الفتح لا عَمَّان واليَمَنِ

وذلك السَّيفُ لا سيفُ ابن ذى يَزنِ

وللألسنة بعد فى هذا الفتح سبح طويل وقول جليل[1].

2- من شعر العماد الأصفهانى فى حطين:

يا يوم حطين والأبطال عابسة	وبالعجاجة وجه الشمس قد عَبسَا
رأيت فيه عظيم الكُفر محُتقراً	معُفَّرا خدُّهُ والأنف قد تَعَسا[2]
يا طُهْرَ سَيْفٍ برى رأس البرنس فقد	أصاب أعظم من بالشِّرك قد نَجُسا
وغاص إذ طار ذاك الرأس فى دمه	كأنه ضفدع فى الماء قد غطس
عرَّى ظُباه من الأغماد مُهرَقَةً	دماً من الشِّرك ردَّاها به وكسا
مَنْ سَيْفُه فى دماء القوم منغمسٌ	من كلِّ من لم يزل فى الكُفْرِ مُنْغَمِسا
أفناهم قتلهم والأسرُ فانتكسوا	وبيتُ كفرهم من خبْثِهم كُنِسَا[3]

3- وقال الشهاب فتيان الشَّاغورى:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم	يتدامرون على متون الضُّمْرِ
أوردت أطراف الرِّماح صُدُورَهم	فولَغْن فى علق النَّجيع[4] الأحمر
فهناك لم يُرَ غيرُ نجم مُقْبلٍ	فى إثر عِفريت رحيم مدبر
فمن الذى من جيشهم لم يُحترم	ومن الذى من جمعهم لم يُؤسر

(1) كتاب الروضتين (3/300، 301).
(2) كتاب الروضتين (3/301،300).
(3) المصدر نفسه (3/301).
(4) المصدر نفسه (3/301).

حتى لقد بِيعَت عقائلُ أرهقت بالسَّبى بالثَّمن الأخس الأحقر
سقت المماليكُ الكرامُ ملوكهم كأساً به سقت اللَّئيم الهنفرى
وَعَجَمت عُودَ صَليبِهم فكسرته وسواك ألفاه صَليب المَكْسَرِ
أغلى الأداهم[1] من أسرتَ وأُرخصت بيض الصوارم من نِهاب العسكر
وجعلت شرق الأرض يحسد غربها بك فهو داعٍ دعوة المستنصر
لا يَعْدَمَنْك المسلمون فكم يدٍ أوليتهم معروفها لم يُنكر
أمَّنت سِرْبَهم وصُنتَ حريمهم ودرأت عنهم قاصمات الأظهُرِ
ما إن راك الله إلا آمراً فيهم بمعروف ومُنكِرَ مُنْكَرِ
متواضعاً لله جلَّ جلاله وبك اضمحلَّت سطوة المُتكبر
لم يخل سمعاً من هناءٍ مُهنِّئٍ للمسلمين ومن سماع مُبَشِّرِ
واستعظم الأخبار عنك معاشرُ فاستصغروا ما استعظموا بالخبر
مضت الملوك ولم تنل عشرَ الذى أوتِيتَه من منجح أو مفخر[2]

4- وقال أبو الحسن على السَّاعاتى فى فتح طبرية:

جَلَتَ عزماتك الفتح المبينا فقد قرَّت عيون المؤمنينا
رددت أخِيذَةَ الإسلام لما غدا صَرفُ القضاء بها ضَمِينا
وهان بك الصليب وكان قِدما يَعُزُّ على العوالى أن يهونا
يقاتل كلُّ ذى مُلكٍ رياءً وأنت تقاتل الأعداء دينا

---

(1) الأداهم جمع، مفردها: أدهم.
(2) كتاب الروضتين (3/304).

غَـــدَتْ فى وَجْنَـةِ الأيام خـــالاً | وفى جِـيـدِ العُـلا عِـقـداً ثـمـينـاً
فـــيـــا لله كـم سـرَّت قلوباً | وبالله كم أبـكـت عـــيــونا
ومــــا طبــــريـةٌ إلا هَـدْىٌ | ترفع عن أكُفِّ اللاَّمــســينا
حصـانُ الذَّيْلِ لم تُقـذَف بسـوء | وسل عنهـا اللَّيـالىَ والسِّنينا
فَـضَضْت خِتـامـهـا قَـسْراً ومن ذا | يَصُــدُّ الليث أن يَلِجَ العَــرِينا
لقـد أنكحـتـهـا صُمٌّ العـوالى | فكان نِتـاجُـهـا الحرب الزَّبُونا
مـنـالٌ بـذَّ أهـلَ الأرضِ طُـراًّ | سِـوَاك ومَـعـقِلٌ أعـيـا القـرونا
قـست حـتـى رأت كـفـؤاً فـلانت | وغــايـة كلِّ قــاس أن يلـينـا
قـضـيـت فـريضـة الإسـلام منهـا | وصـــدّت الأمـــانى والظُّنونا
تَهُـزُّ مـعـاطف القـدس ابتـهـاجـا | وتُرضى عنك مكة والحَــجُـونا
فلو أن الجـمـــاد يطيق نُطقـاً | لنـادتـك ادخـلوهـا آمـنـيـنـا
جـعلت صـبـاح أهليـهـا ظلامـاً | وأبدلت الزَّئـيــر بهـــا أنينا
تخَـال حُـمـاةَ حَـوزَتِهـا نسـاءً | بمَـوْضُـون الحـديدِ مُـقَنَّعـينا
لبـيْـضك فى جَـمـاجـمـهم غِناءٌ | لذيذٌ عـلَّـم الطَّيـــر الحنـينـا
تميلُ إلى المُثـقَّـفَـةِ العَـوَالى | فـهل أمـسـت رمـاحـاً أم غُـضُـونا
يـكاد النَّقع يُذْهِلـهـا فلـولا | بُرُوقُ القــاضـبــات لما هُدينا[1]
فكم حـازت قُـدودُ قَنَاك منهـا | قُـــدوداً كـــالقـنـا لونـاً ولينـاً
وغـيـداً كـالجـآذر[2] آنسـاتٍ | كـغـيـد نداك أبكاراً وعُـونا

(1) كتاب الروضتين (3/305).

(2) الجآذر جمع الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. آنسات: جمع مفردها آنسة وهى الطيبة النفس التى تحب قربك وحديثك

وقال أيضاً :

فــــلا عَــــدِمَ الشــــامُ وســــاكنوه ... ظبيَ تَشْــفى بهــا الداء الدَّفــينا
سُــهــادُ جُــفُــونـهــا فى كلِّ فــتْح ... سُــهــادُ يمنح الغُــمـضَ الجـفــونا
فــألِم بالسَّــواحِل فــهى صــور ... إليـك وألحق الـهــــام المُتُــــونا
فــقلب القــدس مــســرورٌ ولولا ... سُطاك لكان مكتــئــبــاً حــزينا
أدَرْتَ عـلى الفــرنج وقـــد تلاقَتْ ... جُــمــوعُــهُمُ عليك رحىً طحُــونا
فــفـى بيــســان ذاقــوا منك بُؤسـاً ... وفى صــفــد أتوك مُــصَــفَّــدينا
لقــد جــاءتهم الأحــداث جــمــعــاً ... كــأن صــروفــهــا كــانت كــمــينا
وخـــانهم الزمـــان ولا مَـــلامٌ ... فلست بمُبــغض زمناً خَــؤُونا
لقــد جَــرّدت عــزمــاً ناصــريًّا ... له هَوت الكواكبُ ســاجــدينا
لقــد أتعــبت من طلب المعــالى ... وحــاول أن يــســوس المسلمــينا[1]

5- **رؤى عجيبة** : كانت والدة السلطان صلاح الدين تخبر أنها أُتيت فى نومها وهى حامل بالسلطان، فقيل لها : إن فى بطنك سيفاً من سيوف الله تعالى[2].

6- **فتوحات الساحل قبل فتح القدس** : بعد أن منّ الله على صلاح الدين الأيوبى بالنصر المظفر على الصليبيين فى معركة حطين الخالدة، والتى كانت بمثابة "مفتاح الفتوح الإسلامية"[3] فى المنطقة أراد تتويج جهاده العظيم بتحرير المدينة المقدسة وطرد الصليبيين منها، إلا أنه لم يتوجه نحو مدينة بيت المقدس مباشرة،

(1) كتاب الروضتين (3/306) .
(2) المصدر نفسه (3/307) .
(3) مفرج الكروب (2/88) .

وإنما اختار التوجه نحو الساحل لفتح المدن والحصون والقلاع الصليبية المنتشرة هناك وذلك لعدة أسباب منها:

أ- أن قيامه بالهجوم مباشرة على المدينة المقدسة سيؤدى إلى استنفار كافة القوات الصليبية فى المنطقة، فتجتمع فى حربها ضده مما قد يصعب ويؤخر عملية التحرير.

ب- أن فتح المدينة من قبل صلاح الدين قد يحدث قلقاً شديداً لدى العالم الغربى الذى ربما يؤدى إلى اندفاعه بكل قوة[1] لمحاربته.

ج- كذلك لعلمه بقوة التحصينات التى فرضها الصليبيون على هذه المدينة داخل الأسوار وخارجها.

د- أراد بتوجهه نحو مدن الساحل أن يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالعالم الخارجى وبخاصة الغرب الأوروبى، فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام.

هـ- كما أنه أراد أيضاً تسهيل الاتصال البحرى السريع بين موانئه البحرية الموجودة على الساحل المصرى وبين تلك الموانئ المنتشرة فى الساحل الشامى[2].

لذلك كله قام صلاح الدين بالتوجه إلى المواقع الصليبية المنتشرة على الساحل ضمن خطة تكفل استنزاف قواتهم وتمنع وصول الإمدادات إليهم من أوروبا [3].

فى يوم الأحد 25 ربيع الآخر سنة 583هـ/5 تموز 1187م نزل صلاح الدين على طبرية، واستولى على قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء يرتب أمورها، ثم

(1) سياسة صلاح الدين فى بلاد مصر والشام ص 305.

(2) صلاح الدين وتحرير القدس علية المهتدى ص 124.

(3) صلاح الدين وتحرير القدس ص 124.

ولاها لصارم الدين قايماز النجمي[1]، وفي يوم الأربعاء 8 تموز 1187م تقدم صلاح الدين نحو عكا [2] وما أن وصلها حتى خرج إليه أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وخيّرهم بين الإقامة والرحيل فاختاروا الرحيل، فدخلها الجيش الأيوبي، يوم الجمعة، جمادى الأولى 583هـ[3]، واستولوا على ما فيها من الأموال والذخائر وأطلقوا سراح من كان بها من الأسرى المسلمين، وكانوا أربعة آلاف دون أن يلحقوا أذى بأهل البلد، أو بالتجار البنادقة والبيازنة [4]، فكان لهذه السياسة السمحة التي اتبعها صلاح الدين فوائد كثيرة، حيث ساهمت في تسهيل مهمة فتح مدن الساحل دون مقاومة كبيرة نتيجة لما حدث في عكا، كما حافظت سياسته تلك على استمرار الحياة الاقتصادية في المدينة بعدما لمسه التجار الغربيون من عدله وسماحته [5] وأقام صلاح الدين في مدينة عكا لفترة من الوقت، حيث اتخذها مركزا لانطلاق جيوشه لفتح المعاقل القريبة مثل الناصرة، قيسارية، حيفا، صفورية، الشقيف، الفولة، الطور وغيرها من البلاد المجاورة [6]، حيث استولى عليها. ثم جرى الاستيلاء على مدينة نابلس، وتم إقرار أهالي البلدة على أموالهم وأملاكهم لأنهم كانوا مسلمين، وقد مكثوا في المدينة بعد استيلاء الصليبيين عليها[7] كما تم فتح كل من صيدا وبيروت ومنطقة جبيل، وقرر صلاح الدين أن يكون فتح مدينة صور بعد فتح بيت المقدس ولذلك أراد التوجه نحو عسقلان لأن أمرها أيسر[8]، ولأنها تقع في ملتقى الطرق، بين بلاد الشام ومصر [9]. وفي طريقه إلى عسقلان استولى على الرملة وحصن تبنى وبيت لحم

---

(1) كتاب الروضتين (2/79)، مفرج الكروب (2/196).
(2) عكا: مدينة واسعة كثيرة الضياع ولها مرسى مأمون حيث ترسو.
(3) النوادر السلطانية ص 79.
(4) سياسة صلاح الدين ص 297.
(5) صلاح الدين وتحرير القدس ص 125.
(6) مفرج الكروب (2/202).
(7) المصدر نفسه (2/202،203).
(8) النوادر السلطانية ص 80، صلاح الدين وتحرير القدس ص 126.
(9) صلاح الدين وتحرير القدس ص 126.

والخليل، واستسلمت له عسقلان في رجب سنة 583هـ/أيلول سنة 1187م [1]. كما فتح مدن غزة، والداروم وأرسوف والنطرون، وبيت جبريل، كما زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا، وبذلك سقطت المدن والحصون الداخلية ما عدا الشوبك والكرك اللتان بقيتا على المقاومة، وهكذا دخل الساحل برمته تحت إمرة صلاح الدين، من بيروت إلى يافا ما عدا مدينة صور التى دخلها المركيز "كونراد دى مونتفران". فى ذلك الوقت، وكان شديد القوة كثير الحيلة والمال، فشرع بتحصين المدينة، وتجديد حفر الخندق استعداداً لملاقاة صلاح الدين [2]، وخصوصاً وأن الجيوش الصليبية التى خرجت من مدن الساحل قد تجمعت جميعها فى مدينة صور، بعد أن ترك لها صلاح الدين حرية الاختيار بين الرحيل إلى بيت المقدس أو مدينة صور، فقصد معظمهم صور[3].

خامساً: نتائج معركة حطين:

1- **معركة فاصلة وحاسمة:** توصف معركة حطين، بأنها معركة فاصلة وحاسمة، لأننا نلاحظ أنها غيرت خريطة التوزيعات السياسية فى المنطقة، ففى أعقابها اتجه ذلك السلطان المجاهد إلى فتح مدن الساحل الشامى، وتساقطت الواحدة تلو الأخرى باستثناء صور ذات المنعة والحصانة، وهكذا تم حل مشكلة الساحل الشامى الذى طرد منه المسلمون منذ أعوام طوال ولم يعد المسلمون أصحاب وجود برى حبيس، وهكذا تساقطت مدن عكا، ويافا وصيدا وبيروت، وجبيل وعسقلان وغيرها. والواقع أن من يطالع نصوص المصادر التاريخية لذلك العصر تتملكه الدهشة من موجة سقوط المدن الصليبية بصورة غير مسبوقة عكست التفوق العسكرى الساحق للمسلمين ضد أعدائهم[4]، كما تهاوت

(1) النوادر السلطانية ص 80، 81، صلاح الدين وتحرير القدس ص 126.

(2) مفرج الكروب (2/208، 209).

(3) صلاح الدين وتحرير القدس.

(4) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 219.

القلاع الصليبية التى طالما أغارت على مناطق المسلمين [1]، وأحالت حياتهم أحياناً إلى جحيم، ومن أمثلة القلاع التى تهاوت أمام فعاليات الجيش الأيوبى نذكر طبرية، صفد، هونين، تبنين، بغراس، دربساك، حجر شغلن، القصير، وغيرها كثير. ومن بعد ذلك جاء فتح المسلمين لبيت المقدس عاصمة الكيان الصليبى [2].

2- **بداية النهاية للوجود الصليبى**: كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية، حلّت بالصليبيين، لقد كانت فى حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين فى القضاء على أكبر حركة استعمارية، شهدها العالم فى العصور الوسطى، كما شكّلت حداً تراجع عنده المدُّ الصليبى باتجاه الشرق الأدنى الإسلامى وبداية النهاية للوجود الصليبى[3]، وقد أنهت المعركة زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم فى المنطقة الإسلامية فى الشرق الأدنى؛ لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية فى جنوب غرب آسيا وفى مصر فى مواجهة كل الأخطار. لقد أسست حطين بداية جديدة لموازين القوى وأكدت أن قوة الفرنج يمكن أن تقهر. وقد كشفت الدراسات التاريخية الحديثة التى بحثت تفاصيل تلك المرحلة أن معركة حطين انتهت بانتصار صلاح الدين لكنها لم تقتلع نهائياً وجود الفرنج، فهى استراتيجياً معركة فاصلة بين حدين أى أنها ختمت مرحلة التراجع والهزائم وأسست مرحلة الانتصارات والتقدم وشقت الطريق الطويل والصعب الذى شهد الكثير من الصعود والهبوط والهجوم والهجوم المضاد إلى أن تم خلخلة مواقع الفرنج وتفكيك ممالكهم وطردهم من المنطقة [4].

3- **ارتفاع قدر صلاح الدين**: من أسماء الله عز وجل الرافع فقد كانت معركة حطين من الأسباب التى رفع الله بها صلاح الدين وأصبح فى صفوف كبار المجاهدين والقادة والحكام المسلمين، كما أعاد للمسلمين الثقة بالنفس، والكرامة

---

(1) انظر: النوادر السلطانية ص 89 – 96.

(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 220.

(3) تاريخ الأيوبيين فى مصر ص 53.

(4) المصدر نفسه ص 153.

التى كانوا قد فقدوها بعد وفاة نور الدين محمود[1] وقد كان لهذا النصر صدى بالغ فى نفوس المسلمين بعامة وأهالى دمشق بخاصة، لأن دمشق كانت آنذاك مركز أعماله ومقرَّه وفيها قضاته وكُتّابه، الذين كانوا طوال أوقات المعركة ساجدين لله، وقائمين يدعون له بالنصر على أعدائه ولما علموا بالانتصار، عبَّروا عن فرحهم بالدموع والكلمات المؤثرة التى تضمنت عبارات الشكر والحمد لله [2].

4- **معركة حطين مفتاح بيت المقدس:** كانت معركة حطين معركة تحرير فلسطين لأنها هى التى فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس، وباقى فلسطين، وقد وصف ابن واصل هذه المعركة بقوله: كانت وقعة حطين مفتاح الفتوح الإسلامية وبها تيسر فتح بيت المقدس[3]، وعدّها حلقة وسط بين فتوحات نور الدين محمود وركن الدين بيبرس البندقدارى، فمنذ وفد ملوك الفرنج البلاد الساحلية، واستولوا عليها، لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين، فرحم الله الملك الناصر، وقدّس روحه، فلم يؤيَّد الإسلام بعد الصحابة رضى الله عنهم، برجل مثله ومثل نور الدين [4] محمود بن زنكى، رحمة الله عليهما، فهما جدّدا الإسلام بعد دروسه، وشيَّدا بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك المظفر ركن الدين بيبرس، وكان أمره أعجب، إذ جاء بعد أن استولى التتار على معظم البلاد الإسلامية، وأيس الناس أن لا انتعاش للملّة فبدّد شمل التتار، وحفظ البلاد الإسلامية، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية[5].

5- **أهمية الوعى الجغرافى:** أبرزت هذه المعركة أهمية الوعى الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافى للشرق الإسلامى، واستثمار ميزاته، بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية. ومن دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية مادية بالغة الأهمية فى الربط بين العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى، كما

---

(1) تاريخ الأيوبيين ص 154.

(2) مفرج الكروب (2/188).

(3) أين عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

(4) مفرج الكروب (2/193) مبالغة أين عمر بن عبدالعزيز.

(5) تاريخ الأيوبيين ص 154.

تجلَّت أهمية أرض فلسطين التى تُعَدُّ بمثابة الجسر أو المعبر الذى يوصل بين بلاد الشام ومصر[1].

6- **هيبة صلاح الدين ممزوجة بالإعجاب والإجلال:** غدا لاسم صلاح الدين بعد الانتصار، من الرهبة فى قلوب الصليبيين الممزوجة بالإعجاب والإجلال، نظراً لما اتصفت به فتوحاته من النُّبل والشهامة والمروءة، كما كان لتسامحه معهم، وحسن معاملته لأسراهم، أثر كبير فى استسلام العديد من المدن والحصون دون مقاومة تُذكر. والواقع أنه أظهر رحمة وفروسية كبيرتين فى تعامله مع الصليبيين، وبفضل هذه السجايا مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر وتجنبت ارتكاب الأعمال الوحشية الشائعة فى ذلك الوقت، ففى معرض الحديث عن مروءة صلاح الدين لزوجات وبنات الصليبيين[2] كتب أرنول: لقد أعطاهنَّ الكثير لدرجة أنهن حمدن الله، ونشرت فى الخارج الكثير عن العطف والإجلال اللذين أسداهما لهن صلاح الدين. كما أكرم إسكيفا، زوجة ريموند الثالث، فسمح لها بأن تخرج من قلعة طبرية بالأمان، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها وسارت إلى طرابلس، وكان بالبان الإبلينى من بين الأمراء الناجين، وكانت زوجته وأولاده فى بيت المقدس، فسمح له صلاح الدين بالذهاب إلى المدينة لإخراج زوجته وأولاده، واشترط عليه ألا يبيت فيها أكثر من ليلة واحدة [3]. ولقد وقف الغرب الأوروبى وبخاصة فرنسا موقف الإعجاب والمدح لصلاح الدين، حتى تحوَّل فى المؤلفات الأدبية الأوروبية إلى ما يشبه الأسطورة التى خرجت عن إطار التاريخ الواقعى والموضوعى [4] وقد أضاعت خسارة الصليبيين فى حطين هيبة مملكة بيت المقدس وبخاصة بعد أن أُسر ملكها جاى لوزينان ونقص عن المعركة نقص ملموس فى الفرسان المحاربين، بعد أن سقط معظم فرسان الصليبيين، وغالبية جيش بيت المقدس بين قتلى وأسرى، فمن شهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل[5].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) تاريخ الأيوبيين فى مصر وبلاد الشام ص 155.

(3) المصدر نفسه ص 155.

(4) المصدر نفسه ص 115.

(5) المصدر نفسه ص 115.

7- **الجهود التراكمية التى سبقته:** لم تأت انتصارات صلاح الدين من فراغ ولم تكن النتائج العسكرية التى حققها من دون مقدمات سياسية وتنظيمية وإدارية وإصلاحية وإحيائية امتدت على مدى أكثر من قرن إلى أن بدأ قطف ثمارها فى عهدى عماد الدين زنكى ونور الدين محمود والأخير يعتبر المؤسس الحقيقى للتحولات الكبرى التى شهدتها بلاد الشام ثم مصر، فقد عرف نور الدين محمود بانتصاراته العسكرية وأعماله الإصلاحية الإحيائية وإنجازاته الشرعية، فقد اشتهر ببناء المدارس ومعاهد التربية والتعليم، واهتم بالقضاء وبتشييد المساجد والحصون ونشر العلم فى حلب ودمشق ومختلف مدن الشام، وفى عهده استعاد القضاء دوره الشرعى والتاريخى وبنى داراً للعدل وشجع العلماء والفقهاء على لعب دورهم فى الإعداد النفسى للقوات وتبليغ الرسالة وتعليم أصول اللغة والفقه والحديث لقادة جيوشه. وفى هذه الأجواء العلمية تلقى صلاح الدين دروسه وتربيته الدينية فتعلم على يد المحدث أحمد بن محمد الأصبهانى، والواعظ على ابن إبراهيم بن نجا ونجم الدين الحبوشانى، وهؤلاء جزء من الفقهاء والعلماء الذين أشرفوا على تربية الجيل الثالث من القيادات السياسية والعسكرية الذى كان له شرف إنزال الهزائم بقوات الفرنجة بعد مئة سنة من المواجهات المتقطعة، فصلاح الدين لم يصنعه نفسه، بل وفقه الله تعالى ثم هو نتاج تاريخى وموضوعى لسياق من التقدم بدأ مع بدء الحركة الإصلاحية الدينية[1]، التى تزعمها نظام الملك فى عهد السلاجقة والتى كان من رموزها الإمام الجوينى، وأبو إسحاق الشيرازى والغزالى وغيرهم، ولقد آتت تلك الجهود ثمارها والتى كان من أهمها معركة حطين وفتح بيت المقدس على يدى صلاح الدين.

المبحث الثانى: فتح بيت المقدس

تعتبر "حطين" معركة حاسمة فى تاريخ الحرب الإسلامية الصليبية، إذ فقدت مملكة بيت المقدس قواتها العسكرية الرئيسية فى هذه المعركة، كما تم تدمير

(1) صلاح الدين الأيوبى وسقوط القدس وتحريرها ص 78، 79.

أكبر جيش صليبى أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبى، وأضحى القائد المنتصر فى هذه المعركة، على الصليبيين، صاحب السيادة على العالم الإسلامى بأسره[1] وبعد حطين لم يعد للصليبيين فى المملكة المقدسة خصوصاً، قوة يتباهون بها، لذا، ما إن استسلمت عسقلان وغزة لصلاح الدين فى أيلول / سبتمبر من العام نفسه، حتى قرر صلاح الدين أن ينطلق بجيشه الذى أعاد جمعه من كل المنطقة فى جنوب فلسطين، حيث كان قد نشره منذ سنوات ليستكمل توحيد بلاد الشام، وما إن اتجه بهذا الجيش شمالاً نحو القدس لفتحها عنوة وبالسيف، حتى بدأت مدينة القدس تستعد لمقارعة القائد المسلم الذى جاء يتحدى مناعتها وجبروتها بعد ثمانية وثمانين عاماً من احتلال الصليبيين لها [2].

أولاً استعدادات الصليبيين داخل بيت المقدس:

كان عدد المقاتلين الصليبيين فى القدس "يزيد على ستين ألفاً" من الخيالة "عدا النساء والصبيان" حسبما ذكر "أبو شامة" فى كتاب الروضتين [3]. ويبدو أن عدد سكان المدينة، وبالتالى عدد المقاتلين فيها قد ازداد بسبب توافد اللاجئين إليها من المدن والقرى الفلسطينية المجاورة، والتى تعرضت للأخطار خلال الحرب الإسلامية الصليبية، ويذكر "رنسيمان" أن معظم هؤلاء اللاجئين لم يكن يتقن فن القتال، وكان الرجال فيهم قلة ضئيلة إذ كان مقابل كل رجل "خمسون امرأة وطفل"، ولم يكن فى المدينة سوى "فارسين اثنين" مما حدا بباليان إلى أن "ينصّب فارساً، كل صبى تجاوز السادسة عشرة من عمره، وانحدر من أسرة نبيلة" ثم جنّد كل الذكور الذين بلغوا هذه السن، ووزع الأسلحة على كل من استطاع أن يحمل السلاح[4]، ونشر المقاتلين على الأسوار وفى الحصون، ونصب المجانيق، وحفر الخنادق، يقول أبو شامة فى ذلك: ونصبوا "الصليبيون" على كل نيق منجنيقاً،

(1) حروب القدس فى التاريخ الإسلامى والعربى ص 94.
(2) المصدر نفسه ص 94.
(3) كتاب الروضتين (2/92).
(4) رنسيمان (2/749).

وحفروا فى الخندق حفراً عميقاً، وشادوا فى كل جانب ركناً وثيقاً، وفرّقوا على كل برج فريقاً [1]. إلا أن ابن الأثير يخالف رنسيمان فى عدد الفرسان الذين كانوا فى القدس قبل تجنيد الصبية النبلاء وتنصيبهم فرساناً، فيذكر أنه كان فى القدس "من خلُص" من فرسان الصليبيين "فى حطين" وأن خلقاً كبيراً اجتمعوا فى المدنية، من أهل تلك النواحى، عسقلان وغيرها، وقد صعد الجميع على الأسوار بحدّهم وحديدهم، حيث نصبوا المجانيق وحصّنوا تلك الأسوار، بما وجدوا إليه سبيلاً[2].

ثانياً: خطة صلاح الدين العسكرية:

1- **الخطوات التى سبقت فتح القدس:** تجلت مقدرة صلاح الدين الحربية فى تلك الخطة العسكرية التى اتبعها فى جهاده ضد الصليبيين لاسترداد بيت المقدس، وقامت تلك الخطة على تكوين جبهة إسلامية موحدة تضم مصر وبلاد الشام وأجزاء من العراق، ثم منازلة الصليبيين فى عقر دارهم، وإنزال ضربة قوية بهم، كما حدث فى معركة حطين. وتلا ذلك مسيره إلى مدن الساحل الشامى لإضعاف الصليبيين مادياً ومعنوياً. ولو اتجه صلاح الدين عقب انتصاره فى حطين إلى بيت المقدس لتمكن من دخوله بدون عناء، إلا أن استيلاءه على بيت المقدس قبل السيطرة على مدن الساحل لن يضمن له الاستقرار التام فى بيت المقدس، إذ كان من المتوقع قيام الغرب الأوروبى بإرسال الجيوش الصليبية إلى موانئ الشام، ومجىء فرسانه زرافات ووحدانا، والدخول مع صلاح الدين فى معارك حامية لاسترداد بيت المقدس الذى به كنيسة القيامة لاعتقادهم الباطل كما يقول العماد الأصفهانى أن: فيها صلب المسيح، وقرب الذبيح وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت وقام الصليب[3]، وبفضل الله ثم تلك الخطة العسكرية التى نفذها صلاح الدين بسيطرته على الشريط الساحلى، عزل بيت المقدس ومنع وصول الإمدادات إليه

(1) كتاب الروضتين (2/93).
(2) حروب القدس فى التاريخ الإسلامى والعربى.
(3) المصدر نفسه ص 96.

وقطع كل أمل للصليبيين سواء في الغرب الأوروبي أو في بلاد الشام في الوصول إلى بيت المقدس، وإنقاذه من جيوش المسلمين، ولما استرد صلاح الدين من الصليبيين عسقلان وغيرها من البلاد، المحيطة ببيت المقدس، وضمن بذلك إحكام العزلة على مملكة بيت المقدس، شمر عن ساق الجد والاجتهاد وعزم على قصد بيت المقدس، فأصدر أوامره واجتمعت عليه جميع العساكر الإسلامية التي كانت متفرقة في الساحل[1].

2- **البعد الإعلامي**: كانت تلك الحشود العسكرية الإسلامية قد شاركت صلاح الدين في معركة حطين، واستغل صلاح الدين تواجدها في الشام قبل عودتها إلى إقطاعاتها في السيطرة على مدن وموانئ الساحل، وحرص صلاح الدين على أن يسبق مسيره إلى بيت المقدس حملة إعلامية إلى كافة أطراف العالم الإسلامي بقصد استنفار المسلمين للجهاد، الأمر الذي ثارت معه عزائم المسلمين بالعزم على الجهاد والاشتراك في تطهير تلك البقعة المقدسة أولى القبلتين وثالث الحرمين، ومسرى محمد ﷺ. وذكر أبو شامة وابن كثير أن المسلمين ما أن بلغهم ما منّ الله به على صلاح الدين من فتوح الساحل الشامي، ومن ثم قصده المسير إلى بيت المقدس، حتى توافدوا عليه من كل مكان، يتقدمهم العلماء والفقهاء، الذين قدموا للتطوع في الجهاد لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام[2].

3- **استدعاء القوات المصرية**: ومن ناحية أخرى فقد استدعى صلاح الدين القوات المصرية أثناء قيامه بالاستيلاء على الساحل لمساعدته في الاستيلاء على المدن والقلاع الجنوبية واجتمع بابنه الملك العزيز عثمان في عسقلان فقرت به عينه واعتضد بعضده، ويبدو أن صلاح الدين على الرغم من سيطرته التامة على مدن وموانئ الساحل الشامي كان يتخوف من هجوم صليبي من الغرب، أثناء تقدمه إلى بيت المقدس، لذلك أمر الأساطيل المنصورة بالمسير للمشاركة في الجهاد، فسارت إليه من مصر يتقدمها الحاجب لؤلؤ وأخذت تجوب البحر وتقطع الطريق على سفن الصليبيين ومراكبهم في الوقت الذي كانت فيه الإمدادات تصل من مصر إلى الشام براً وبحراً بكل سهولة. وعندما علم صلاح الدين بأن مدينة بيت

---

(1) النوادر السلطانية ص 81 صلاح الدين والصليبيون ص 208.

(2) البداية والنهاية نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 209.

المقدس قد أخذت قسطاً وافراً من التحصين، لما تتمتع به مكانه عظيمة فى نفوس الصليبيين حرص على إحضار أدوات الحصار الكافية لاقتحام أسوارها ذات الأبراج العالية[1]، فأحضر معه المنجنيقات والعرادات والنفاطات والقطاعات وعدد النقوب وغيرها من الأدوات اللازمة لدك الأسوار ونقبها ثم حشو تلك النقوب بالحطب والنفط وإشعال النيران فيها، لفتح ثغرات فى الأسوار يمكن من خلالها اقتحام الأسوار ودخول المدينة[2].

4- **الحصار والقتال**: كان الصليبيون قد بدأوا القتال قبل تمركز جيش المسلمين حول أسوار المدينة، أى قبل 20 أيلول وذلك عندما تقدمت مفرزة من طليعة الجيش الإسلامى نحو الأسوار بقيادة الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرازى فخرجت إليها مفرزة من حامية المدينة فقاتلتها وهزمتها، وقتلت أميرها[3]، وقد حدث هذا قبل أن يتمركز صلاح الدين بجيشه فى الجانب الغربى من السور. ومهما يكن من أمر فقد بدأ صلاح الدين قتاله الفعلى ضد العدو المتحصن داخل أسوار المدينة فى صباح 26 أيلول سبتمبر 1187م، 21 رجب 583هـ فتقدم بجيشه نحو الأسوار بغطاء كثيف من المدفعية التى كانت سائدة فى ذلك العصر "وهى المجانيق" وكان عددها 12 منجنيقاً كبيراً ترمى الحجارة الكبيرة، وتقدم، تحت هذا الغطاء أيضاً، النقّابون الذين بدأوا ينقبون فى السور ودار القتال عنيفاً بين الفريقين: حامية المدينة تحاول أن تنال من المسلمين، وتوقف تقدمهم، بسهامها ونبالها، ومجانيقها من على الأسوار، ومن التحصينات، وهى تقاتل بعنف وضرواه لا مثيل لهما، بينما كان فرسانها يخرجون إلى ظاهر البلد، يقاتلون ويبارزون، إلا أن ذلك لم يكن ليثنى المسلمين عن تقدمهم ونقبهم للأسوار وتدميرها وتدمير التحصينات بمجانيقهم. وقد قتل فى هذه المعركة من الفريقين الكثير، وممن قتل الأمير عز الدين عيسى بن مالك وكان والده صاحب قلعة جعبر [4] واستمر القتال

(1) وفيات الأعيان (7/184) صلاح الدين والصليبيون ص 210.

(2) صلاح الدين والصليبيون ص 210.

(3) كتاب الروضتين (2/92).

(4) حروب القدس فى التاريخ الإسلامى والعربى ص 100.

عنيفاً بعد ذلك، ويصف "غروسيه" المعركة التى دارت عند أسوار المدينة بأنها كانت من الضراوة، ما لم يسمع بمثله، كما كانت عطشاً حقيقياً للشهادة. وهو يستطرد: لقد كانت المعارك الأكثر ضراوة، كما لم يشهده إنسان، فكل رجل من الجيشين كان ينظر إلى الصراع كفعل دينى والتزام حتمى [1]. وقد كان تفوق صلاح الدين فى المدفعية إلى درجة أن سقوط المدينة كان حتمياً، وأن النقابين العاملين تحت غطاء من حجارة المجانيق نجحوا فى فتح ثغرة فى جدار السور [2]، وقرر الفرسان والنبلاء الصليبيون القيام بهجوم انتحارى على المسلمين خارج الأسوار إلا أن بطريقهم "هرقل" ردعهم عن ذلك بعد أن أقنعهم أن "عملهم البطولى" هذا لن يكون سوى التخلى عن النساء والأطفال للعدو بلا دفاع [3].

5- **الهجوم الحاسم**: بعد هذا القتال العنيف قرر صلاح الدين أن يشن هجوماً حاسماً على المدينة وكثف رمايات المجانيق، مغطياً تقدم المهاجمين بحجارتها، وسيل من السهام والنبال يطلقها الرماة نحو المدافعين عن السور والحصون لكى تشل مقاومتهم، مما جعل أولئك المدافعين يتراجعون عن مراكزهم، بينما تقدم المسلمون واجتازوا الخندق الخارجى المحفور حول السور ثم التصقوا وعملوا به نقباً وتهديماً، واشتد قصف المجانيق وتوالى رمى السهام والنبال من الرماة المتقدمين خلف المهاجمين يحمونهم، ونجح المهاجمون فى فتح ثغرات عديدة فى السور الذى أوشك أن يصبح ملكاً للمهاجمين وفى وقت ما من تاريخ 29 أيلول / سبتمبر (1187م)، استطاع المهاجمون فتح "ثغرة كبيرة" فى السور نفذ منها المسلمون ورفعوا راياتهم عليه، إلا أن المدافعين ما لبثوا أن احتشدوا وردوا المسلمين عن السور، ورغم ذلك فقد أيقن المدافعون أن لا جدوى من دفاعهم، وأنهم مشرفون على الهلاك، بل إنهم هالكون حتما إن هم استمروا فى عنادهم[4]. وتزاحم الناس فى الكنائس للصلاة والاعتراف بذنوبهم، وأخذوا يضربون أنفسهم

---

(1) حروب القدس فى التاريخ الإسلامى والعربى ص 100.

(2) المصدر نفسه ص 100.

(3) المصدر نفسه ص 101.

(4) المصدر نفسه ص 101.

بالحجارة ويرجون المدد والرحمة من الله، وقطعت النساء شعور بناتهن على أمل استثارة الرجال لحمايتهن من سبى المسلمين لهن [1].

6- المفاوضات وتسليم القدس إلى صلاح الدين : اتفق الصليبيون على إرسال الرسل بطلب الأمان مقابل تسليم المدينة لصلاح الدين، وامتنع صلاح الدين عن إجابتهم إلى ذلك وقال : لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها[2]، فلما أعاد صلاح الدين رسل الصليبيين خائبين محرومين اجتمع الصليبيون مرة أخرى داخل بيت المقدس، وحاولوا القيام بهجمات مفاجئة ضد المسلمين ولكن البطريرك هرقل اعترض على ذلك وأوضح لهم أنهم لو فعلوا ذلك فإنهم سيسوقون نساءهم وأطفالهم إلى العبودية، وحرضهم على طلب الأمان من صلاح الدين، فأرسل باليان دى ابلين إلى صلاح الدين طالباً الأمان لنفسه، ليحضر عنده للتفاوض، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحضر باليان عنده وسأله الأمان للصليبيين، فأصر صلاح الدين على فتح المدينة بالسيف، فلما يئس باليان من ذلك أراد أن يستثير عطف صلاح الدين بالتهديد بقتل النساء والأطفال وأسرى المسلمين، حيث قال له : أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة خلق كثير لا يعلمه إلا الله، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه، كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة، فإذا رأينا لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ولنحرقن أموالنا وأمتعتنا ولا نتركلكم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة . وإذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء ونظفر كراما [3] واستشار صلاح الدين أصحابه، فأوضحوا له أنه يكفى للبر بقسمه أن يستولى على بيت

(1) مفرج الكروب (213/2) صلاح الدين والصليبيون ص 213.
(2) الكامل فى الأثر نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 213.
(3) مفرج الكروب (214/2) صلاح الدين والصليبيون ص 214.

المقدس بحد السيف أن تستسلم المدينة بشروط كأنها سقطت بالقتال، وفي هذه الحالة يعتبر سكان المدينة أسرى حرب[1]، فأجابهم صلاح الدين إلى الأمان مقابل تسليم بيت المقدس ووافق على مغادرة الصليبيين المدينة مقابل فداء يدفعونه، فجعل على الرجل عشرة دنانير يستوى في ذلك الغني والفقير وعلى المرأة خمسة دنانير [2]. ويضيف كل من سبط ابن الجوزى والعماد الحنبلى أن صلاح الدين جعل على الصبى أربعة دنانير[3] أما بالنسبة للطفل فقد اختلف فيما فرض عليه فذهب البعض إلى أن فديته دينار واحد[4]، في حين يرى البعض الآخر أن فديته ديناران[5]، ويبدو أن الرأى الأول أرجح بدليل إجماع المراجع الصليبية على ذلك. أما الفقراء والمعدمون فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان مقابل إطلاق سراحهم، مبلغاً إجمالياً قدره ثلاثون ألف دينار، وحدد صلاح الدين لباليان مدة أربعين يوماً، فمن أدى فديته خلالها أطلق سراحه، ومن بقى بعدها صار مملوكاً، وسلمت المدينة يوم الجمعة 27 رجب 583هـ/12 أكتوبر [6] 1187م. وذكر أبو شامة نقلاً عن العماد في البرق الشامي أن الصليبيين عقب توقيع اتفاقية التسليم، شرعوا في إخلاء البيوت، وبيع ما ادخروا من الأثاث والأقوات بأرخص الأثمان، وكان خروجهم شبيهاً بالجان لاسيما ما تعذر نقله وصعب حمله، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) ﴾ (الدخان).

ثالثاً: دخول صلاح الدين بيت المقدس:

تم الاتفاق بين صلاح الدين وباليان على تسليم المدينة وفقاً للشروط التي ذكرنا، ودخلها صلاح الدين: يوم الجمعة في 27 رجب 583هـ وذلك بعد أن أعطى

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 214.
(2) النوادر السلطانية ص 81 – 82.
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 214.
(4) كتاب الروضتين (2/95) صلاح الدين والصليبيون ص 214.
(5) النوادر السلطانية ص 82 صلاح الدين والصليبيون ص 215.
(6) المصدر نفسه.

بالباب الأوامر لحاميتها بإلقاء السلاح والاستسلام لجند المسلمين، وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة المقدسة، وقد استمر حصار صلاح الدين للمدينة اثنى عشر يوماً، وبسقوط القدس، انهارت أمام صلاح الدين معظم المدن والمواقع التى كانت لا تزال تحت سيطرة الصليبيين فى معظم أنحاء بلاد الشام، ودخل صلاح الدين القدس فى 27 رجب وكانت ليلة الإسراء، فأمر بأن يوضع على كل باب من أبواب المدينة أمير من أمراء الجيش لكى يتسلم الفدية من الصليبيين الخارجين من المدينة ويحتسبها، وكان فى المدينة على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والولدان[1]. ويستطرد ابن الأثير: ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البلد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحى من عسقلان وغيرها، والداروم ورملة وغزة، وغيرها من القرى، بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشى [2]. وأما صلاح الدين فإنه بعد أن استقر له الحكم فى المدينة المقدسة، أمر بإعادتها إلى ما كانت عليه قبل احتلالها من الصليبيين، وكان هؤلاء قد أقدموا على تغيير الكثير من المعالم الإسلامية للمدينة، فزرعوا صليباً كبيراً مذهباً على رأس قبة الصخرة، وأمر صلاح الدين بكشفها، وكان فرسان الداوية قد بنوا مبانى لهم غرب المسجد الأقصى لكى يسكنوها، وأنشأوا فيها " هُرى ومستراح وغير ذلك " وأدخلوا قسماً من هذا المسجد فى أبنيتهم، فأمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالها القديم، كما أمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس، ثم عين إماماً للمسجد الأقصى وأقام فيه منبراً، ومحاما كان فيه وفى الأبنية المجاورة من صور كان الصليبيون قد وضعوها أو رسموها وأعاد المسيحيين الوطنيين من أهل القدس إلى مساكنهم كما سمح لهم بشراء ما أراد الفرنج بيعه من ممتلكات ومتاع وأموال [3].

---

(1) حروب القدس فى التاريخ الإسلامى ص 106.

(2) المصدر نفسه ص 106.

(3) حروب القدس فى التاريخ الإسلامى والعربى ص 108.

1- لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من المسلمين: ووفى صلاح الدين بوعده فسمح لمن دفع القطيعة بالخروج وكان قد رتب على كل باب أميراً مقدماً كبيراً يحصر الخارجين، فمن دفع الفدية فقد خرج[1]. وبالرغم من تلك القطيعة الزهيدة التى فرضها صلاح الدين مقابل خروجهم من بيت المقدس، وتأمين وصولهم إلى مأمنهم، فإن كثرة كثيرة منهم، لم يستطع دفعها فداء لنفسه، وأصبح بعد مضى أربعين يوماً أسيراً فى أيدى المسلمين ولم يسهم أحد من أغنياء الصليبيين فى فداء فقرائهم، فقد خرج البطريرك هرقل من بيت المقدس بخزائنه الضخمة دون النظر إلى غيره[2]، ويبدو أن ذلك كان سبب انعدام الروابط الأسرية وغيرها بين الصليبيين فى ذلك الوقت، فالأسرى كانوا خليطاً من أجناس وشعوب أوروبية متباينة، وأجناد الغرباء المأجورين الذين رغبوا فى السفر إلى الشرق تخلصاً من رق الأرض السائد وقتذاك فى المجتمع الأوروبى[3]. والخلاصة أن ذلك الموقف المخزى من كبار الصليبيين، وتلك الشهامة وذلك التسامح من صلاح الدين قد أجبر الكاتب الإنجليزى لين بول على إبداء إعجابه بصلاح الدين حيث قال بعد أن تهجم على البطريرك "إنها كانت فرصة للملك المسلم أن يعلم المسيحيين معنى التسامح"[4]، وقد برهن صلاح الدين وغيره من أمراء المسلمين على تلك الشهامة والتسامح عندما أصبح آلاف المدنيين الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية المقررة أسرى فى يد صلاح الدين، فطلب الملك العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين يطلب منه أن يهب له ألفاً من أولئك الصليبيين الفقراء ليطلق سراحهم لوجه الله، وأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحرك ذلك العمل الإنسانى الذى قام به الملك العادل مشاعر البطريرك وباليان فتقدما إلى صلاح الدين وطلبا منه مثل ذلك، فأعطاهما صلاح الدين ما طلباه وأطلق سراحهم ثم تقدم صلاح الدين وأمر حراسه بالمناداة فى شوارع بيت المقدس، بأنه سوف يطلق سراح من لم يستطع دفع الفدية من

(1) كتاب الروضتين (2/95).

(2) صلاح الدين والصليبيون ص 216.

(3) جيش مصر ص 69.

(4) صلاح الدين والصليبيون ص 216.

الصليبيين لكبر سنه وأن على هذه الطائفة أن تتقدم من الباب الخلفي للمدينة يسمح لها بالخروج من طلوع الشمس إلى الليل. وما أن صدر ذلك الإعلان حتى توافد الصليبيون على ذلك الباب بأعداد لا تحصى[1]، وطلب أمير البيرة إطلاق سراح زهاء خمسمائة أرمني، ذكر لصلاح الدين أنهم من بلده، وأن قدومهم إلى بيت المقدس كان من أجل العبادة هناك، كما طلب أيضاً الأمير مظفر الدين على كوجك إطلاق سراح زهاء ألف أرمني ادعى أنهم من الرها، فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك وأطلق سراحهم [2] ولم يقتصر ذلك التسامح من المسلمين على ما قام به صلاح الدين وأخوه الملك العادل وكبار الأمراء المسلمين، بل تعدى ذلك إلى عامة المسلمين، والواقع أن صلاح الدين قد أبدى من التسامح وكرم الأخلاق تجاه أسرى الصليبيين في بيت المقدس الشيء الكثير. وبلغ من كرم وشهامة صلاح الدين بما قام به تجاه زوجات وبنات الفرسان الصليبيين، الذين قتلوا وأسروا أثناء معاركهم مع صلاح الدين، فقد تجمعن أمام صلاح الدين يبكين، فسأل عن حالهن وما يطلبن، فقيل له إنهن يطلبن الرحمة، فعطف عليهن صلاح الدين وسمح لمن كان زوجها على قيد الحياة بأن تتعرف عليه وأطلق سراحه وسمح لهم بالذهاب حيث يريدون، أما النساء والبنات اللاتي مات أزواجهن وآباؤهن فقد أمر صلاح الدين بأن يصرف لهن من خزانته الخاصة ما يناسب عيشتهن ومركزهن وأعطاهن حتى ابتهلت ألسنتهن بالدعاء له [3].

أ- **ملكة رومية متعبدة**: كانت بالقُدس ملكة رومية متعبِّدة مترهِّبة، في عبادة الصليب متصلِّبة، وعلى مُصابها مُتَلَهِّبة وفي التمسك بملتها متصعِّبة متعصِّبة، أنفاسها متصاعدة للحزن، وعبراتها متحدِّرة تَحدُّر القطران من المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياع، وأتباع، فعاذت بالسلطان، فأعاذها، ومنَّ عليها وعلى

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 217.

(2) مفرج الكروب (2/215).

(3) صلاح الدين والصليبيون ص 218.

كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كلّ مالها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها مصوغات صُلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها، وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها، ورجالها وأسفاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فرحى، وإن كانت من شجنها قَرْحى [1].

ب- **زوجة ملك مأسور:** خرجت زوجة الملك المأسور كي، وهي ابنة أماري وكانت مقيمة في جوار القُدْس مع ما لها من الخَوَل والخَدَم والجواري، فاستأذنت في الإلمام بزوجها، وكان بقيده مقيماً في بُرْج نابُلس، موكلاً به ليوم وَعْدِ تسريحه، فأذن لها، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها [2].

ج- **الإبرنساسة أم هنفرى:** خرجت الإبرنساسة أم هنفرى وهي ابنة فليب وزوجة الإبرنس الذي سُفِك دمه يوم حطين وهي صاحبة الكَرَك والشَّوبك وهي بنوأبها محوطة وبرأيها منوطة، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوُعِدت أنها إن سمحت بحِصنها سمح لها بابنها، ثم أعفيت وأُطلقت وعُصمت واستحضر ابنها هنفرى بن هنفرى من دمشق إليها، وأقرَّ برويته عينيها، وسار معها من الأمراء والأمناء من تسلَّم منهم تلك المعاقل، فمضت إلى حصونها لتسلُّمها، فمانعها أهلها ودافعوها، وردُّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها بإطلاقه إذا تسلَّم تلك الحصون[3].

د- **احترام صلاح الدين مشاعر المسيحيين:** احترم صلاح الدين مشاعر المسيحيين، فعندما أشار بعض المسلمين عليه عقب دخوله بيت المقدس بهدم كنيسة القيامة، وإزالة آثارها وقالوا: إذا هدمت بنايتها، وألحقت بأسافلها أعاليها ونبشت المقبرة وعفيت، وأخمدت نيرانها وأطفيت ومحيت رسومها ونفيت،

---

(1) كتاب الروضتين (3/343) بيت المقدس أمام أحداث التاريخ ص 343.
(2) المصدر نفسه (3/343).
(3) المصدر نفسه (3/344).

انقطعت عنها إمداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع أهل النار، ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة. بينما أشار عليه البعض بأنه: لما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس فى صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان[1]، فأعرض صلاح الدين بتسامحه عن هدمها[2].

هـ- **بقاء بعض النصارى بالقدس**: وتضرع بعض النصارى إلى صلاح الدين ليسمح لهم بالبقاء داخل بيت المقدس بعد أدائهم الفدية المقررة عليهم، وتعهدوا له بألا يزعجوا أحداً، وأن يقوموا بالخدمة بالمدينة، فوافق صلاح الدين على ذلك واشترط عليهم شروطاً قابلوها بالالتزام والقبول، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وعوملوا معاملة أهل الذمة، فأصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من الحقوق والواجبات[3]. وهكذا أبدى المسلمون الرحمة نحو المدينة التى سقطت فى أيديهم. وإذا استعاد الإنسان ذكرى دخول الصليبيين بيت المقدس سنة 1099م عندما نشر جود فرى وتانكرد الموت فى الشوارع وعندما أُغرق المدافعون المسلمون وأحرقوا وأُلقوا فى بحار من الدماء، حيث كان الصليبيون يخوضون حتى كعوبهم فى دماء القتلى، فضلاً عما قاموا به من نهب وسلب وسبى [4] فإنه يدرك الفرق الشاسع بين تسامح صلاح الدين ووحشية القادة الصليبيين، إذ يتضح مدى تمسك صلاح الدين بمبدأ التسامح وأحكام الشريعة الإسلامية السمحاء وبعده كل البعد عن تحكيم عواطفه وأهوائه تجاه الصليبيين الذين لم يمض على ارتكابهم تلك الجريمة الشنعاء قرن من الزمان [5] يقول جيمس رستون: وهكذا سلك جنود صلاح الدين سلوكاً مثالياً فى احتلالهم للقدس سنة 1187م، وقد نظر صلاح الدين لنفسه وسمعته بعد الانتقام لما فعله الصليبيون فى الحرب الأولى سنة 1099م

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 218.

(2) مفرج الكروب (2/231) صلاح الدين والصليبيون ص 218.

(3) الفتح القسى فى الفتح القدسى ص 136 صلاح الدين ص 219.

(4) اعمال الفرنجة، ترجمة حسن حبشى ص 118 – 120.

(5) صلاح الدين والصليبيون ص 219.

وبسبب حمايته لكنيسة القيامة وأماكن مسيحية أخرى كثيرة، سيتذكر الجميع تسامحه تجاه أهل الأديان الأخرى، وتجاه الأماكن المقدَّسة للدين المسيحى. ويبدو أن أفعاله اعتُبرت عَلَما ونموذجاً على كيفية سلوك المسلك الصالح، فبسبب عفوه، ووجوه الخير المتعددة فى طبيعته، وسلوكه تجاه أعدائه، سيظل مشهوراً إلى الأبد باللطف والتسامح والحكمة [1].

و- **رأى ستيفن رنسيمان:** والفضل ما شهدت به الأعداء، قال ستيفن رنسيمان وهو من المؤرخين الفرنجة: الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنج، ومنذ ثمان وثمانين سنة، يخوضون فى دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحلّ بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة، بناء على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين. ومن المناظر التى تدعو للحزن والأسى، ما حدث من التفاف العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير، على سبيل المكافأة على خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، فأطلق العادل سراحهم على الفور، وإذ ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير، ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز، ولما أقبل نساء الفرنج اللاتى افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقى أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا فى الأسر، أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من فى الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كلٌ بحسب حالته. والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين فى الحملة الصليبية الأولى [2].

(1) مقاتلون فى سبيل الله ص 137.

(2) حروب القدس فى التاريخ الإسلامى والعربى ص 108.

ز- **وقال غروسيه ما نصه بالحرف أيضاً:** بعكس الصليبيين نفذ صلاح الدين وعوده بشرف وبشعور إنسانى، وبروح فروسية، مما أثار إعجاب المؤرخين اللاتين الذين سردوا أحداث تلك الفترة.... ويستطرد "غروسيه": طلب بعض المتعصبين من صلاح الدين هدم معابد المسيحيين وتدمير كنيسة القيامة بهدف إلغاء حج المسيحيين "المؤمنين بالثالوث المقدس" فصدهم عن ذلك بكلمة منه، قال: لماذا الهدم والتدمير، طالما أن هدف عبادتهم هو مكان الصليب والقبر المقدس، وليس البناء الخارجى؟ وحتى لو سويت الأبنية بالأرض، فإن مختلف الطوائف المسيحية لن تتخلى عن السعى للوصول إلى هذا المكان. لنفعل، إذن، كما فعل الخليفة عمر الذى احتفظ بهذه الأبنية عندما فتح القدس فى السنوات الأولى للإسلام. ويعلق غروسيه على ذلك بالقول: إن كل ما يتحلى به هذا السلطان العظيم من حرية الرأى والمعتقد يبرز فى هذه العبارة الجميلة [1] وصدق الشاعر الحيص بيص شهاب الدين أبو الفوارس المتوفى 574هـ عندما قال:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلمّا ملكتم سال بالدّم أبطح

وحَلَّلتُمُ قتل الأسارى وطالما ... عدونا على الأسرى نَمُنُّ ونصفح

وحسْبُكُمُ هذا التفاوت بيننا ... وكل وعاءٍ بالذى فيه ينضح [2]

لقد بهر صلاح الدين بأخلاقه الإسلامية ملوك الغرب وقوادهم، حيث كانوا يقودون جحافل جيوشهم فى الشام حتى إن الفرنسيين، كانوا يقولون: إن دماءه دماء فرنسية، والألمان والإنكليز، والإيطاليون كلهم كانوا ينسجون قصصاً رائعة عن أخلاق صلاح الدين ويتحدثون عنها فى قراهم ومدنهم ومسرحياتهم[3]، لقد كان صلاح الدين فعلا رجلاً إسلامياً بكل معنى الكلمة مقتديا بالرسول محمد ﷺ فى

---

(1) حروب القدس فى التاريخ ص 108.

(2) شذرات الذهب (410/6).

(2) الوجيز فى الشام أرض الأنبياء ومهد الأصفياء ص 61.

عفوه وحلمه وسماحته. ولقد قال عنه أحد المؤرخين الأوروبيين: سيظل فى الذاكرة أن الزمان الدموى والقاسى مثل ذاك الزمان، لم يتمكن من إفساد إنسان ذى سلطة عظيمة، إنه صلاح الدين [1] وأكبر دليل على تقدير الإفرنج لهذه البطولة النادرة والسماحة السمحة اهتمام امبراطور ألمانيا بزيارة قبر صلاح الدين عندما زار بلاد الشام سنة 1315هـ / 1899م وكانت معه الإمبراطوره وقد خطب خطبة أشاد فيها صلاح الدين، وأرسلت الإمبراطورة إكليلاً من الزهر ليوضع على ضريح البطل العظيم. ولم ينس أمير الشعراء – أحمد شوقى – أن يسجل هذه الذكرى فقال:

عظيمُ الناس من يبكى العظاما ... ويندبهم ولو كانوا عظاما
فهل من مبلغ غليوم عنى ... مقالا مُرضياً ذاك المقاما
رعاك الله من ملك همام ... تعهّد فى الثرى ملكا هماما
أرى النسيان أظمأه فلمّا ... وقفت بقبره كنت الغماما
أتدرى أىَّ سلطان تحيِّى ... وأىَّ مُملّكٍ تهدى السلاما
دعوت أجلَّ أهل الأرض حربا ... وأشرفهم إذا سكنوا سلاما [2]

رابعاً: أول صلاة جمعة فى بيت المقدس:

لما نزه البيت المقدس ممّا كان فيه من الصّلبان والنواقيس، والرهبان والخنازير والقساقيس، ودخله أهل الإيمان، ونودى بالأذان وهرب الشيطان وقرئَ القرآن، وطهر المكان فكان إقامة أوَّل جمعةٍ فى يوم الرابع من شعبان، بَعدَ يوم الفتح بثمانٍ فنصب المنبرُ إلى جانب المحراب المطهَّر وبسطت البُسُط الرفيعة فى تلك العراض الوسيعة وعلقت القناديل وتُلِىَ التنزيل عِوضاً عمَّا كان يقرأ من التحريف فى

(1) الوجيز فى الشام أرض الأنبياء ومهد الأصفياء ص 61.
(2) صلاح الدين الأيوبى، أحمد عبد الجواد ص 51.

الإنجيل، وجاء الحقُّ وبطلت تلك الأباطيل، وصُفَّت السَّجادات وكثُرت السَّجدات، وتنوعت العبادات وأُديمت الدعوات ونزلت البركات وانجلت الكُرُبات، وأقيمت الصلوات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس، وحضر المؤذِّنون وغاب القسوس وطابت الأنفاس وأطمأنت النفوس، وأقبلت السُّعود وأدبرت النحوس، وحضر العبّاد والزهّاد... وعُبِدَ الواحدُ وكثر الراكع والساجد والقائم القاعد، وامتلأ الجامع وسالت لرقّة القلوب المدامع: هذا يوم كريم وفضل عظيم وموسم وسيم وهذا يوم تجاب فيه الدعوات وتُصبُّ البركات وتسيل العبرات وتقال العثرات، فأذَّن المؤذِّنون للصلاة وقت الزوال، وكادت القلوب تطير من الفرح بتلك الحال. ولم يكن السلطان إلى تلك الساعة عيَّن خطيباً، وقد تهيَّب لها خلق من العلماء خوفاً أن يُدعى إليها أحدُهم فلا يكون نجيبا، فبرز للخطباء المرسوم السلطانى الصَّلاحِىُّ وهو فى قبة الصخرة الغرَّاء، أن يكون القاضى محى الدين بن الزكى اليوم خطيباً فلبس الخلعة السوداء وصعد المنبر وقد كساه الله البهاء وأكرمه بكلمة التقوى وأعطاه السكينة والوَقار والسناءَ فخطب بالناس خطبة عظيمة سنية فصيحة بليغة، ذكر فيها شرف البيت المقدس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات وما فيه من الدلائل والإمارات، وما منّ الله به على الحاضرين من هذه النعمة التى تعدلُ الكثير من القُربات وقد أوردها الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى "الروضتين" بطُولها، فكان أوّل ما قالَ حين تكلمَّ ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ (الأنعام) ثم أورد تحميدات القرآن كلِّها، ثم قال:

1- **قدرة الله على تحقيق النصر**: الحمد لله مُذِلِّ الشرك بقهره، ومصرِّف الأمور بأمره ومُديم النعَم بشكره ومستدرج الكافرين بمكره، الذى قدَّره الأيام دولاً بعدله وجعل العاقبة للمتقين بفضله وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله القاهر فوق عباده فلا يمانع والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه

لأوليائه ونصره لأنصاره وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره.

2- **الثناء على الرسول الكريم وعلى صحابته:** وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحدٌ، شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشَّكِّ وداحض الشرك وراحض الإفك، الذى أسرِىَ به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى وعُرِج به منه إلى السماوات العُلا إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى. صلى الله عليه وعلى خليفته الصِّدِّيق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أوّل من رفع عن هذا البيت شعار الصُّلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأوثان وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان(1).

3- **رضى الله عن المجاهدين:** أيها الناس، أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى، والدَّرجة العُليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضَّالة من الأمة الضَّالة وردِّها إلى مقرِّها من الإسلام بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريباً من مئة عام، وتطهير هذا البيت الذى أذنَ الله أن يُرفع وأن يذكر فيه اسمه وإماطة الشِّرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رُواقه، واستقرَّ فيها رسمه، ورَفْع قواعده بالتوحيد فإنه بنُى عليه، وبالتقوى فإنه أسِّسَ على التقوى من خلفه ومن بين يديه.

4- **مآثر المسجد الأقصى:** فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السَّلام، وقبلتكم التى كنتم تُصلُّون إليها من ابتداء الإسلام، وهو مقرُّ الأنبياء، ومقصد الأولياء ومفرُّ الرسل، ومهبط الوحى، ومنزل تَنَزُّلِ الأمر والنَّهى، وهو فى أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين، وهو المسجد الذى صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقرَّبين، وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروحه،

(1) البداية والنهاية (590/16).

عيسى الذى شرّفه الله برسالته، وكرّمه بنبوّته، ولم يزحزح عن رُتبة عبوديّته، فقال تعالى: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ .. (١٧٢) ﴾ (النساء) وقال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... (٧٢) ﴾ (المائدة). وهو أول القبلتين وثانى المسجدين، وثالث الحرَمَين، ولا تُشَدُّ الرّحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه.

5- **تهنئة صلاح الدين وجنده المسلمين بالنصر**: لولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سُكان بلاده لما خصّكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مُجارٍ ولا يباريكم فى شَرفها مُبَارٍ فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية، والعزمات الصدّيقية، والفتوح العُمريّة، والجيوش العثمانية والفتكات العَلَوية، جدّدتُم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مُهَجكم فى مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم إليه من مُهْرَاقِ الدماء وأثابكم الجنة فهى دار السعداء.

6- **شكر الله على النصر**: فاقدروا – رحمكم الله – هذه النعمة حق قدرها، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها فله النّعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النّعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الذى فُتحَت له أبواب السّماء، وتبلّجت بأنواره وجوه الظُّلماء وابتهج به الملائكة المقرّبون، وقَرَّ به عينا الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النّعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدّس فى آخر الزمان، والجُند الذى تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهانى به بين أهل الخضراء، أكثر من التهانى به بين أهل الغبراء.

7- **فضائل الأقصى والقدس**: أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ونصّ عليه فى خطابه، فقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ...(١) ﴾ (الإسراء) – أليس هو البيت الذى عظمته الملوك وأثنت عليه الرُّسلُ وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلاهكم عزّ وجل؟

أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسَّرَ فتحه ويَقْرب ؟ أليس هو البيت الذى أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب عليهم لأجله، فألقاهم فى التيه عقوبة للعصيان ؟

8- **شكر الله وحمده:** فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل، وقد فضلهم على العالمين ووفَّقكم لما خُذِل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين وجمع لأجله كلمتكم وكانت شَتّى، وأغناكم بما أمضته "كان" و"قد" عن "سوف" و"حتى".

9- **الملائكة يشكرون الله للمجاهدين:** فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده وجعلكم جنده، وشكركم الملائكة المنزَّلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طِيبِ التوحيد، ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتُم عن طُرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم أملاك السموات، وتصلى عليكم الصلوات المباركات.

10- **نهى عن الغرور وارتكاب المعاصى:** فاحفظوا – رحمكم الله – هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم، بتقوى الله التى من تمسَّك بها سَلِمَ ومن اعتصم بعُزوتها نجا وعُصِم، واحذروا من اتباع الهوى، وموافقة الرّدى، ورجوع القهقرى والنكول عن العدى، وخذوا فى انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقى من الغُصَّة وجاهدوا فى الله حقَّ جهاده وبيعوا عبادة الله أنفسكم فى رضاه إذ جعلكم من عباده.

11- **وما النصر إلا من عند الله:** وإياكم أن يستزلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيّل لكم هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم فى مواطن الجِلاد لا والله ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (١٠) ﴾ (الأنفال).

12- **البعد عن المعاصى:** واحذروا عباد الله – بعد أن شَرَّفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصَّكم بهذا الفتح المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين –

أن تقترفوا كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

13- **دعوة للاستمرار في الجهاد:** والجهاد فهو من أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، واذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جِدُّوا فى حسم الدّاء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقيّة الأرض التى أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثُّوا أُصوله، فقد نادت الأيام بالثّارات الإسلامية والملة المحمدية، الله أكبر فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر.

14- **دعوة لتحرير ما تبقى من الأرض المقدسة:** واعلموا - رحمكم الله - أن هذه فُرصة فانتهزوها وفريسة فناجزوها ومهمّة فأخرجوا لها هِمَمكم وَبرِّزُوها وسيِّروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوهَا فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى فى قُبالة الواحد منكم عشرون وقد قال الله تعالى: ﴿ **إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ...** ﴿٦٥﴾ ﴾ (الأنفال). أعاننا الله وإياكم على اتِّباع أوامره والازدجار بزواجره وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ ...** ﴿١٦٠﴾ ﴾ (آل عمران).

15- **أدعيه للسلطان صلاح الدين وللمسلمين فى دينهم ودنياهم:** وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة، وقال بعد الدُّعاء للخليفة: اللهم، وأدم سُلطان عبدك، الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك، سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامى عن دينك المُدافع، والذابٌ عن حرمك الممانع، السيد الأجل، الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين مطهِّر البيت المقدّس، أبى المظفر يوسف بن أيوب، محيى دولة أمير المؤمنين.

- اللهم عُمَّ بدولته البسيطة واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفى جزاءه، واشكر عن المِلَّة المحمدية عزمه ومضاءه.
- اللهم أبقِ للإسلام مُهجته، ووق للإيمان حَوْزته، وانشر فى المشارق والمغارب دعوته.
- اللهم كما فتحت على يده البيت المقدس بعد أن ظُنَّت الظنون، وابتلى المؤمنون، فافتح على يده أدانى الأرض وأقاصيها، وملِّكه صياصى الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مَزَّقها، ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها.
- اللهم اشكر عن محمد ﷺ، وأنفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها.
- اللهم ذلِّل به معاطس الكفار وأرغم به أنوف الفُجَّار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار وابثث سرايا جنوده فى سُبل الأقطار.
- اللهم ثبت الملك فيه وفى عقبه إلى يوم الدين، واحفظه فى بنيه وبنى أبيه الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.
- اللهم كما أجريت على يده فى الإسلام هذه الحسنة التى تبقى على الأيام وتتخلد على مَر الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدىَّ الذى لا ينفد فى دار المتقين وأجب دُعاءه فى قوله: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (النمل).

ثم دعا، بما جرت به العادة[1] وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن علىُّ بنُ نجا المصرىُّ على كرسى الوعظ بإذن السلطان، فوعظ الناس وكان وقتاً مشهوداً وحالاً محموداً فلله الحمد والمنَّةُ واستمر القاضى محى الدين بن الزَّكى يخطب بالناس فى أيام الجمع أربع جمعات، ثم قرَّر السلطان للقدس خطيباً

(1) كتاب الروضتين (3/391).

مستقراً وأرسل إلى حلب فاستحضر المنبر الذى كان الملك العادل نور الدين محمود قد استعمله لبيت المقدس، وقد كان يُؤمل أن يكون فتحه على يديه، فما كان إلا يدى بعض أتباعه بعد وفاته[1].

خامساً: منبر نور الدين فى بيت المقدس:

وكان للملك العادل نور الدين محمود زنكى رحمه الله فى عهده عَرفَ بنور فراسته فتح البيت المقدس من بعده، فأمر فى حلب باتخاذ منبر للقدس، تَعبَ النّجارون والصُّناع والمهندسون فيه سنين وأبدعوا فى تركيبه الإحكام والتَّزيين، وأنفق فى إبداع محاسنه وإبداء مزاينه أُلوفاً، وكان لترديد النَّظر فيه على الأيام أُلوفا، وبقى ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً، سيفا فى صوان الحفظ مقروبا، حتى أمر السُّلطان فى هذا الوقت بالوفاء بالنَّذر النُّورى، ونَقْلِ المنبر إلى موضعه القُدْسى، فَعُرفت بذلك كرامات نور الدين التى أشرق نورها بعده سنين، وكان من المحسنين الذين قال الله فيهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[2] (آل عمران) وفى رواية للعماد الأصفانى: ولم يزل لنور الدين فى قلبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العبّاد وأعبد الزُّهاد، ومن الأولياء الأبرار والأتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب وأن الله لدعائه ولو بعد وفاته مجيب، ويزيده قوة عزمه جدًّا وتمده بحياة الربانية مدًّا، قد طهَّره الله من العَيْب، وأطلعه على سر الغيب [3]، ونزَّهه من الريب لنقاء الجيب وشملت الإسلام بعده بركته وخُتمت بافتتاح مُلك صلاح الدين مملكته، وهو الذى ربَّاه ولَبَّاه وأحبه وحباه، وهو الذى سنَّ الفتح، وسنَّى النُّجح واتفق أن جامع حلب فى الأيام النورية احترق، فاحتيج إلى منبر يُنصب فَنُصِب ذلك المنبر، وحسن المنظر، وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرَّقم، وشابه المحراب المنبر فى الرَّسم، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القُدسى الإحسان، ولما فتح السلطان القدس تقدَّم بحمله وصَحَّ به فى محراب

---

(1) البداية والنهاية (16/ 592).

(2) كتاب الروضتين (3/ 394).

(3) لم يطلع الله أحداً من خلقه على سر الغيب ولكن الإيمان بنصر الله عز وجل بعد تكامل أسبابه.

الأقصى اجتماعُ شَمله، وظهر سِرُّ الكرامة فى فوز الإسلام بالسلامة، وتناصرت الألسن بالدُّعاء لنور الدين بالرحمة ولصلاح الدين بالنصرة والنَّعمة [1] ويدل هذا العمل على مدى إخلاص صلاح الدين لنور الدين محمود زنكى الذى بذل الكثير لتحقيق الوحدة الإسلامية، تمهيداً لاقتلاع الوجود الصليبى فى بلاد الشام، كما أن ذلك يدل على أن صلاح الدين عندما قضى على دولة الزنكيين التى سادها الضعف والوهن عقب وفاة نور الدين محمود وتولى ابنه الصغير الملك الصالح إسماعيل، لم يكن يقصد بذلك سوى مواصلة المسيرة والاستعداد للجهاد ضد الصليبيين لإزالتهم واسترداد بيت المقدس[2].

سادساً: إصلاحات صلاح الدين فى بيت المقدس:

قام صلاح الدين بإزالة ما استحدثه الصليبيون من الأبنية والأسوار فى بيت المقدس، فقد أقام فرسان الداوية غربى المسجد الأقصى أبنية للسكنى، وأدخلوا بعض الأقصى فى أبنيتهم، وبنوا على وجه المحراب جداراً وتركوه مخزنا للغلة، وقيل اتخذوه مستراحاً قاصدين بذلك طعن الإسلام والمسلمين [3] كما بنوا على الصخرة فى بيت المقدس كنيسة وستروها بالأبنية، وملؤوها بالصور، ونصبوا عليها مذبحاً، وعينوا بها مواضع الرهبان كما أقاموا على رأس قبة الصخرة صليباً كبيراً وغير ذلك حتى غيروا معالمها. وقام الطامعون منهم بقطع قطع منها وبيعها فى أسواق القسطنطينية، وجزيرة صقلية بوزنها ذهباً [4]، فلما كان يوم الجمعة سبط شعبان 583هـ/9 أكتوبر 1187م وهى الجمعة التالية للجمعة التى دخل فيها المسلمون بيت المقدس، أمر صلاح الدين بإزالة ما استحدثه الصليبيون من الأبنية والأسوار وكشف الجدار الساتر للمحراب، كما أمر بإزالة ما استحدثوه على قبة الصخرة المقدسة من مبان وصور، ثم أمر الفقيه ضياء الدين الهكارى بأن يكون

(1) كتاب الروضتين (3/393).
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 223.
(3) كتاب الروضتين نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 222.
(4) مفرج الكروب (2/227 – 229) صلاح الدين والصليبيون ص 222.

أميناً عليها وأدار عليها شبابيك من حديد[1]، أما بالنسبة للصليب الذهبي الذى أقامه الصليبيون على قبة الصخرة، فيذكر ابن واصل أن المسلمين ما أن دخلوا البلد حتى تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة واقتلعوا الصليب، الذى سقط، وعند ذلك؛ صاح الناس كلهم صوتاً واحداً، من البلد ومن ظاهره. المسلمون والفرنج، أما المسلمون فكبروا فرحاً، وأما الفرنج فصاحوا توجعاً وتفجعاً [2]. ولما فرغ صلاح الدين من إزالة ما استحدثه الصليبيون داخل بيت المقدس بدأ بعمارة المسجد الأقصى، فبذل جهداً كبيراً فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه، فأحضر له من الرخام ما لا يوجد مثله ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك من المواد للتزيين ما لا يمكن وصفه، وشرع في عمارته، وتزيينه وإزالة ما على جدرانه من الصور والتماثيل[3] وخص صلاح الدين المحراب باهتمام كبير، فعمل على ترخيمه وتزيينه [4]، وتقدم السلطان فى المسجد الأقصى ببسط العراص وإخلائها لأهل الإخلاص، وتنظيفها من الأدناس، وكنس ما فى أرجائها من الأرجاس [5]، وأحضر الملك المظفر تقى الدين عمر إلى قبة الصخرة أحمالاً من ماء الورد وتولى بيده كنس ساحتها وعراصها، ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهرت، ثم أفاض عليها ماء الورد، وطهر حيطانها وغسل جدرانها، ثم بخرها بمجامر الضيب، وجاء الملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين؛ بكل نور جلى وكرم ملى، وبسط بها الضيعة، وفرش فيها البسط الرفيعة [6]. كما قام المسلمون بكنس عراص المسجد وتنظيفها ثم فرشها بالبسط عوض الحصر والبوارى، وعلقت القناديل وصفت السجادات [7] وبعد أن أنهى صلاح الدين تطهير بيت المقدس مما علق به من آثار الصليبيين،

(1) مرآة الزمان نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 222.

(2) المصدر نفسه ص 222.

(3) صلاح الدين والصليبيون ص 223.

(4) المصدر نفسه ص 223.

(5) كتاب الروضتين نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 224.

(6) مفرج الكروب (2/230) صلاح الدين والصليبيون ص 224.

(7) صلاح الدين والصليبيون ص 224.

رتب فى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وغيرها من المساجد داخل بيت المقدس الخطباء والأئمة والمؤذنين والقومة، وأحضر إليها المصاحف والربعات؛ كما قام صلاح الدين بإنشاء المدارس والأربطة فجعل كنيسةً مدرسة للفقهاء الشافعية، وعين دار البطريك رباطا للفقراء وأوقف على ذلك أوقافا جليلة[1] وكان لاسترجاع صلاح الدين لبيت المقدس من أيدى الصليبيين أهمية خاصة بالنسبة لصلاح الدين ومكانة بين أبطال المسلمين حتى إنه يمكن القول إنه إذا كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد طهر بيت المقدس من براثن الروم فى السنة الخامسة عشرة للهجرة، فإن صلاح الدين أعاد تلك الذكرى فى القرن السادس الهجرى بعد أن تعرض بيت المقدس لذلك الاعتداء الصليبى الذى استمر ما يقارب المائة عام، ووضع صلاح الدين بذلك العمل الجليل الأساس لمن بعده من سلاطين المسلمين للقضاء على بقايا الصليبيين فى بلاد الشام[2].

سابعاً: إرسال البشائر والوفود إلى أنحاء العالم الإسلامى:

وصل صلاح الدين باسترداد بيت المقدس إلى قمة المجد السياسى والعسكرى، وأخذت أخبار ذلك الحدث تنتشر فى أنحاء العالم الإسلامى، فقد سارع صلاح الدين بإرسال البشائر باسترداد بيت المقدس إلى الخليفة العباسى فى بغداد وإلى مختلف الأمراء والحكام المسلمين، وذكر أبو شامة نقلاً عن العماد الأصفهانى الذى لم يحضر الفتح لمرض ألم به، أنه لما سمع وهو بدمشق بنزول السلطان صلاح الدين على بيت المقدس شفى من مرضه، وتوجه إليه، فوصل عنده يوم السبت ثانى يوم الفتح، يقول العماد: وطلعت عليه صبحاً، فاستبشر بقدومى وخلع على البشير قبل رؤيتى وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغربوا بها ويشرقوا وهو يقول لهم لهذه القوس بار، ولهذه المأدبة قار، قال: فكتبت فى ذلك اليوم سبعين بشارة، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

(1) مفرج الكروب (2/230) صلاح الدين والصليبيون ص 224.

(2) صلاح الدين والصليبيون ص 225.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... (٥٥)﴾ (النور).

كما أرسل أيضاً إلى الإمبراطور البيزنطى إسحاق انجليوس يبشره بذلك النصر العظيم[1]، واستقبل صلاح الدين رسل ووفود الملوك والأمراء المسلمين من سلاجقة الروم وخراسان والعراق، لتهنئته بما خصه الله به من نصر عظيم[2]، كما أن المسلمين عندما سمعوا باسترداد بيت المقدس، وفدوا للزيارة من كل فج عميق وسلكوا إليه فى كل طريق وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق[3]. وجلس صلاح الدين بالمخيم ظاهر بيت المقدس للقاء الأكابر والأمراء والعلماء الذين أتوه من كل حدب وصوب لزيارة بيت المقدس، وتهنئته بما أفرده الله به من الفضيلة باسترداد بيت المقدس من الصليبيين[4].

ثامناً: اختلاف صلاح الدين مع الخليفة العباسى:

لقد بلى صلاح الدين، فى شخص الخليفة الناصر، بخليفة قوى الشخصية يغار على المظاهر والألقاب أكثر من أى شيء آخر، ذلك أنه على الرغم من أن الناصر أرسل، عندما أصبح خليفة، تقليداً جامعاً لصلاح الدين، إلا أنه بعد برهة أرسل له رسالة عن طريق وزيره يعاتبه على أمور بلغته[5]. وقد لخص ابن كثير الخلاف بين الخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين بقوله: .. وكتب الخليفة يعتب عليه فى أشياء منها؛ أنه بعث فى بشارة الفتح بحطين مع شاب بغدادى كان وضيعاً عندهم، لا قدر له ولا قيمة، وأرسل بفتح القدس الشريف مع نجاب ولَقَّبَ نفسه بالملك الناصر مضاهاة للخليفة الناصر، فتلقَّى الرسول بالبشر واللطف ولم يُظهر له إلا السمع والطاعة، وأرسل يعتذر مما وقع بأن الحرب كانت قد شغلته عن

(1) المصدر نفسه ص 220.
(2) كتاب الروضتين (2/120) مفرج الكروب (2/248).
(3) السلوك (1/97) صلاح الدين والصليبيون ص 221.
(4) كتاب الروضتين (2/96) صلاح الدين والصليبيون ص 221.
(5) دراسة وثقية للتاريخ الإسلامى ص 264.

التروى فى كثير من الأمور، وأما لقبه بالناصر فهو من أيام الخليفة المستضىء ومع هذا فمهما لقَّبنى به أمير المؤمنين فهو لا يُعدل عنه، وتأدَّبَ مع الخليفة غاية الأدب رحمه الله تعالى [1].

تاسعاً: حضور العلماء فى فتوحات صلاح الدين:

كان العلماء والفقهاء مع صلاح الدين ولاقى التأييد التام من جموعهم، وقد بدأ صلاح الدين فتوحاته بعد حطين بفتح عكا يوم الجمعة الثانى من جمادى الآخرة سنة 583هـ/1187م لأنها الطريق الموصل إلى بيت المقدس من ناحية، وحتى يضمن بفتحها قطع الإمدادات التى تصل عن طريقها من أوروبا إلى الصليبيين ببيت المقدس من ناحية أخرى. وقد شارك فى هذا الفتح عديد من الفقهاء والعلماء، يأتى فى مقدمتهم القاضى الفاضل، والفقيه جمال الدين عبداللطيف بن الشيخ أبى النجيب السهروردى، والفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى، فبعد أن تم لصلاح الدين فتح مدينة عكا، قام القاضى الفاضل بتحويل الكنيسة العظمى بها إلى مسجد جامع، وأمر ببناء القبلة والمنبر ثم أقيمت به صلاة الجمعة، ويذكر ابن الأثير فى هذا الصدد أنها: أول جمعة أقيمت بالساحل الشامى بعد أن ملكه الفرنج[2] وقد تولى آنذاك الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبى النجيب السهروردى أمر الخطبة والإمامة، ثم أسند إليه صلاح الدين بعد ذلك مناصب الخطابة والقضاء والحسبة والوقوف فى مدينة عكا [3]، وأما الفقيه عيسى الهكارى فقد كان ملازماً لصلاح الدين فى غزواته وفتوحاته، ولهذا فقد خصص له السلطان بعد فتح عكا كل ما يتعلق بجماعة الفرسان الداوية من منازل وضياع، ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع تكريماً له واعترافاً بمكانته ومشاركته فى الجهاد ضد الصليبيين، وتشجيعاً لاستمراره فى البذل والعطاء لهذه الفريضة [4]،

---

(1) البداية والنهاية (16/596).

(2) الكامل فى التاريخ نقلاً دور الفقهاء والعلماء فى الشرق الأدنى ص 144.

(3) دور الفقهاء والعلماء فى الشرق الأدنى ص 144.

(4) المصدر نفسه ص 144.

فكان هذا التصرف من صلاح الدين بادرة لم يسبقه إليها غيره. وكانت هذه المنحة خلاف ما وزعه صلاح الدين على المجاهدين من أموال الفيء والغنيمة التي اغتنمها المسلمون من وراء هذا الفتح. وقد أجمعت المصادر الإسلامية على اشتراك أعداد كبيرة من الفقهاء والعلماء مع صلاح الدين في فتح بيت المقدس على حد تعبير مؤرخيها: قصده العلمـاء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور[1]، وكان الشيخ أبو عمر بن قدامة المقدسي، وأخوه الشيخ موفق الدين ابن قدامة، ممن شاركوا في هذا الفتح وكانا من العلماء الفضلاء ذائعي الصيت [2]. قال ابن كثير: وكان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد، لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاده الفرنج وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها [3]، ولم ينس صلاح الدين في غمرة هذه الفرحة بهذا الفتح العظيم وزيره ومستشاره القاضي الفاضل الذي منعه مرضه من حضور فتح بيت المقدس وكان مقيماً بدمشق، فأرسل إليه صلاح الدين رسالة يبشره فيها بهذا الفتح ومن خلال كلمات هذه الرسالة يتضح مدى ما كان يكنه صلاح الدين من حب واحترام وتقدير لهذا القاضي الأجل، متمنياً لو أنه كان بحضرته في هذا الوقت حتى تتم فرحته بما منَّ الله به عليه من نصر[4]، وبعد أن منّ الله على صلاح الدين بفتح بيت المقدس في يوم الجمعة 27 رجب سنة 583هـ/أكتوبر 1187م، قام بتفريق الأموال التي أخذت من الصليبيين نظير افتداء أنفسهم وأرواحهم على الأمراء والعلماء والفقهاء الذين حضروا معه هذا الفتح، وبلغت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار[5]. ثم جلس بخيمة ظاهر القدس على هيئة التواضع وهيبة الوقار بين الفقهاء

(1) المصدر نفسه ص 145 نقلاً عن البداية والنهاية.
(2) المصدر نفسه ص 146.
(3) البداية والنهاية نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء والمسلمين ص 146.
(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 147.
(5) المصدر نفسه ص 147.

وأهل العلم لتلقى التهانى بعد بهذا الفتح العظيم[1] وقد قام الشعراء من العلماء والفقهاء يهنئون صلاح الدين بهذا الفتح المجيد بقصائد من الشعر يعبرون من خلالها عن مدى سعادتهم بهذا النصر المبين، وكان منهم الشاعر المشهور القاضى ابن سناء الملك [2]، وجدير بالذكر أن القاضيين الفاضل ومحيى الدين الزكى كانا ضمن نخبة العلماء والفقهاء الذين تنبأوا واستبشروا خيراً بفتح بيت المقدس على أيدى المسلمين، فأرسلا إلى السلطان صلاح الدين يبشرانه بذلك وقد ورد ذلك فى قصيدة ابن الزكى التى نظمها بمناسبة نجاح صلاح الدين فى ضم حلب إلى الوحدة الإسلامية عام 579هـ/1183م حيث قال:

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر　　　مبشر بفتوح القدس فى رجب

ويعد هذا البيت من الاتفاقات العجيبة ومن الفأل الحسن نطق به القاضى ابن الزكى ويشر فيه بفتح القدس فى رجب، وكانت إرادة الله أن يفتح بيت المقدس فى رجب سنة 583هـ بعد تلك البشارة بأربع سنوات ولعل تلك البشارات التى بشرت بفتح القدس، كانت دافعاً وإلهاماً لصلاح الدين أن يجتهد فى فتح بيت المقدس فى هذا التوقيت المبارك الذى يوافق ليلة الإسراء والمعراج[3] وقد قام السلطان صلاح الدين بتكليف القاضى محيى الدين بن الزكى بخطبة الجمعة بالمسجد الأقصى تكريماً له وتشريفاً على بيت الشعر الذى سبق أن مدح به صلاح الدين عند فتحه حلب والذى بشره فيه بفتح القدس فى رجب ولمكانته ومكانة أسرته العلمية وصرامته فى الحق، وفضائله العديدة فى الفقه والأدب، فضلاً عن أنه كان يتمتع بموهبة فريدة وأسلوب بديع فى نظم الخطب وإثارة حماس المستمعين له[4]. وهكذا يتضح لنا مما تقدم مدى عظم الدور الذى قام به الفقهاء والعلماء عند فتح بيت المقدس، حيث انضموا إلى صفوف المجاهدين متطوعين بدافع من حميتهم الدينية،

(1) كتاب الروضتين (2/96).
(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 147.
(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى ص 149.
(4) المصدر نفسه ص 150.

جاؤوا من كل مكان وحملوا السلاح وراء صلاح الدين لتحرير القدس الشريف يحدوهم الأمل في النصر أو الشهادة: وكلل الله جهودهم بالنصر وبعودة القدس والمسجد الأقصى إلى المسلمين، ولم يتوقف دورهم بعد ذلك، وإنما كان هذا الفتح دافعاً قوياً لهم ورافعاً لروحهم المعنوية وهذا ما أدركناه في خطبة القاضي ابن الزكي الذي أخذ يحث المسلمين على مواصلة طريق الجهاد حتى يتم تطهير جميع البلاد الإسلامية من دنس الأعداء، كما أدركنا ذلك أيضاً في الوعظ الذي قام به الفقيه ابن نجا [1]، ومن الأعمال الجليلة الأخرى التي قام بها الفقهاء والعلماء في بيت المقدس بعد فتحها ما قام به الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري من صنع شبابيك من حديد للصخرة المقدسة لصيانتها من أي عبث بعد أن أزال عنها السلطان صلاح الدين ما أقامه الصليبيون من منكرات وصور وصلبان حولها [2].

عاشراً: من قصائد الشعراء في فتح القدس:

على مثل هذه الغايات الجميلة تُوقف القصائد وفي دوحة الفتح الأعظم [3].

ويُذكر أن شاباً مسلماً كان مأسوراً في بيت المقدس وهو من أهل دمشق كتب إلى صلاح الدين أبياتا يدعوه فيها إلى تحرير بيت المقدس يقول فيها:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكّس
جاءت إليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس
كلُّ المساجد طُهرت ... وأنا على شرفي مُنجس [4]

1- قال الشاعر الجلياني:

أبا المُظهَّر أنت المجتبى لهدى ... أُخرى الزمان على خُبْرٍ بخُبْرتهِ

---

(1) المصدر نفسه ص 153.

(2) دور الفقهاء والعلماء والمسلمين ص 153.

(3) واقدساه (1/342).

(4) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ص 69.

فلو رآك وقد حُزْتَ العُلا عمر | فى قُلَّة التل قَضًى كنه عبرته
ورآك وأهل القدس فى وَلَه | أبو عبيدة فدًى من مَسَرته
غداة جزُّوا النَّواصى فى قُمامته | وأعولوا بالتباكى حول صَخرته
دارت بك المِلَّة الحسن فنحن على | عهد الصحابة فى استمرار مرَّته
وأنت كاسْمِك صديق وصاحبه | الملك المظفر سام فى مَبَرته
وفى السُّلالة عثمانٌ يؤيده | عُلا على على إيثار نُصْرتَه
وكم لديك ذوى قربى رقوا | وكم بعيد رأى الزُّلفى بهجرته
يُشَبَّه القُبْجُ [1] ما بين البُزاة لقى | مَلْكَ الفرخ[2] أخيذاً بين عترته
أما رأيت معالى يوسف نُسقت | حتى رمت كلَّ ذى مُلْك بحسرته
أضحى لنشر الهُدى فى فتح منهجه | وبات يطوى العِدَى فى سَد ثُغْرته
واستقبح الرِّجْس ممنَّوا بمشهده | فاستفتح القُدس محشوا بزُمرته
لكنَّ بأس صلاح الدين أذهلهم | بوقعة التَّل واستشرى بَسْورَته
تعيا الجوارحُ والفُرسانُ وهو على | بدء النشاط عشياً مثل بُكرَته
يا فاتح المسجد الأقصى على بُهَمٍ | وقانص الجيش لا يُحصى بقفزته
أبشر بملك كظهر الشمس مُطلع | على البسيطة فتَّاح بشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمةٌ | تحكى النبوةَ فى أيام فَترَته [3]

2- أبو على الحسن بن على الجوينى فى فتح المقدس:

(1) القُبَجُ: ويسكن: الحَجَل.
(2) أى: أسيراً.
(3) المبشرات القدسيات نقلاً عن واقدساه (1/343).

جُنْدُ السماء لهذا الملك أعوان من شكٍّ فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه في زمن وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما لها سوى الشُكرِ بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصَّيْد في يده صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانُوا
كم من فُحول ملوك غُودروا وهُمُ خوف الفرنجة ولدان ونسوان
هذا وكم ملك من بعده نظر إلى الإسلام يُطوى ويُحوى وهو سكران
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والإسلام نُصَّاره صُم وعُميان
فالآن لبَّى صلاح الدين دعوتهم بأمر من هو للمعوان معوان
للنَّاصر ادُّخرت هذي الفتوح وما سمت لها هِمَمُ الأملاك مُذ كانوا
حباه ذو العرش بالنَّصر العزيز فقال الناس داود هذا أم سليمان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلماً فطهرت منه أقطار وبلدن
فأين مَسلمةٌ عنها وإخوته بل أين والدهم بل أين مروان
وَعدِّ عما سواه فالفرنجة لم يَبذُّهم من ملوك الأرض إنسان
لو أنَّ ذا الفتح في عصر النبي لقد تنزلت فيه آيات وقرآن
يا قُبح أوجه عُبادِ الصليب وقد غدا يُبرقعها شؤم وخِذلان
خزنتَ عند إله العرشِ سائر ما ملكتهُ وملوك الأرضِ خُزانُ
فالله يُسقيك للإسلام تحرسه من أن يضام ويُلفى وهو حيران
وهذه سنةٌ أكرم بها سنةً فالكفر في سنةٍ والنصر يقظان
يا جامعاً كلمةَ الإيمانِ قامع مَنْ معبوده دون رب العرش صُلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما يطوى لأجر صلاح الدين ديوان(1)

(1) واقد ساه (1 / 344).

3- وقال الشاعر نقيب الأشراف بالديار المصرية النسّابة الجوّاني :

أتُرى مناماً ما بعينى أبصر — القدس يفتحُ والفرنجةُ تُكسَرُ
وقمامة قُمت من الرجس الذى — بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم فى القيد مصفودٌ ولم — يُر قبل ذاك لهم مليك يُؤسرُ
قد جاء نصر الله والفتح الذى — وعد الرّسول فسبحوا واستغفروا
فُتِحَ الشام وطُهرَ القدس الذى — هو فى القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد — ماذا يقال له وماذا يُذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها — فاروقها عُمر الإمام الأطهرُ
ولأنت عثمان الشريعة بعده — ولأنت فى نصر النبوة حيدرُ
ملكٌ غدا الإسلام من عجب به — يختال والدنيا به تتبخترُ
نثرٌ ونظمٌ طعنهُ وضرابه — فالرُّمحُ ينظُمُ والمهنَّد يَنشُرُ
حيث الرقاب خواضع حيث — العيون خواشع حيث الجباه تُعفَّرُ
غاراته جُمَعٌ فإن خطبت له — فيها السيوف فكلُّ هامٍ منبرُ
إذ لا ترى إلا طُلَى[1] بسنابك — تُحدى نعالاً أو دماءً تُهدرُ
تمشى على جُثثِ العدَى عُرجا — ولا عَرج بها لكنها تتعثر[2]

(1) الطُّلى جمع : مفرده الطُّلاة : وهى العنف .
(2) واقداساه (1/345) .

4- وقال أبو الحسن على بن محمد الساعاتى :

عـصـفت به ريح الخطوب زعـازعـاً فـلقـين طوداً لا تـخفُّ أناتـه
هو منقـذ البيت المقـدس بعـدمـا طالت فـمـا وجـد الشـفـاء شُكاته
بيـتٌ تـأسس بالسـكـون وإنما عنـد الزحـافِ تحـركـات سكناته
أمـشـتت الأعـداء وهى جـحـافل عن شـمل دين جُـمعت أشـتاته
أُوتيت عـزمـاً فى الحـروب مـسـدَّداً لا زيغـه يُخش ولا هَفَـواته
أحـسـنت بالبـيت العـتيق ويثـرب ولك الفـعـال كـثـيـرة حـسـناته
هذى سـيـوفك مـحـرمـات دونه لبـكائهنَّ تـبـسـمت جُـحُـراتُهُ[1]

5- وقال نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور قصيدة :

الوقت أضيق من سـمـاع قـصـيدة مـوسـومـة بصـفـات أغـيـد أهيف
الجـدُّ فى هـذا الزمـان مُـبـينٌ والهـزل فـيـه مع الغواية مُـختف
بـالنـاصـر المهـدى والهـادى إلى سُـبُل الجـهـاد أبى المظفـر يُوسُف
المسـتـعـين بربه والواثق المنصـور والمسـتظهـر البـر الوفى
شُـدت قـوى أركـان ملة أحـمـد وتجـمَّلت بجـهـاده فى الموقف
مـلـكٌ إذا أمَّ المـلـوك جـنـابـه لاذوا بأكـرم من يوم وأشـرف
وإذا أتـوا أسـرى إلى أبوابـه وقَـفـو بأعظم من يعـول وأرأف
مـولى غـدا للدين أكـرم والد حَـدِبٍ على أبنائه مـتـرفـرِف
عـزل الفـرنجـة ثم ولَّى جَـيشـهُ أعـظم بـه من صـارف ومُـصـرف

(1) واقداساه (1/ 345).

قد أنصف التوحيد من تثليثهم وأقام في الإنجيل حد المصحَف
مُغرىً بتجريح الرِجال لأنَّه يَروِي أحاديث العَوالي الرُّعَّفِ
مَلِكٌ له في الحرب بَحرٌ تَفقُه وله غداةَ السلم زُهدُ تَصوف
وعليه أُنزِلَ في الجهاد مُفَضَّلٌ فلذاك يقرؤه بسبعة أحرُف
عَزمٌ وحِلمٌ أنسيا ما كان من عزم ابن مرداس وحلم الأحنف
يا صاحِ قل للإنكتير الكلب دَع عنكَ الجنونَ وخُذ مقالة مُنصِفِ
القُدسُ ما فيه لسرجكَ مطمعٌ كلا ولا نور الإله بمنطفي
والمسجد الأقصى فعنه تقصَّ مِنْ وَقع الدَّبابيس الأليمة تَعرِف
واستفت نفسك فهي أخبث ناصح واترك متابعة اللجَاجِ المتلفِ
واعجب لرُمحٍ بالرؤوس مُعمم واطرب لسيف بالدِّماء مُغلفِ
يا أيها الملك الذي لطباعه وسيوفه خُلُقا رِضى وتعسُّفِ
لله يوم عَروبة إذ أعربَتْ ساعاته عن نَصرِك المتعَرِّف
سَنَّت سيوفُكَ في الرؤوس ختانة ذهبت بمهجة كلِّ عِلج أقْلَفِ
آفاتهم وافت بأخذك منهم يافافكم من حسرة وتأسُّف
أوَما رأى الأعلاج حين دَعوتها بلسان سَيف في الكريهة مُلحِق
لم تستطع عصيانَ أمرك بل أتت مُنقادةً طوعاً ولم تتخلف
فاستدعِ جارَتها وثَن بأختها وكذاك حتى الأربعين ونيف
ما للسواحل غير بحرك حافظٌ بشباسنان أو بصفحة مُرهف
هذا الطراز الأخضر استفتحته فزها بثوبٍ من عُلاك مُسجفِ
أحييت دينَ محمد وأقَمتَهُ وسَتَرتَهُ من بعد طُول تكَشُّفِ

وضبطت ديوان الجهاد بعامل | من عاملٍ وبمشرف من مشرفي
وبجهبذٍ العزم الذى لا ينثني | وبناظر الرأى الذى لم يَطرِف
فخذ الخراج من البسيطة كلها | واستأد فرضي جزيةٍ وموظف
واقبض على الدنيا بكفٍّ زهادة | وابسط لرحمتها جناحَ تعطف
جاءت جنودُ الله تطلب ثأرها | وصدورها بك عن قليل تشتفي
فانهض بها وتقاضى حقَّك موقناً | أن الإله بما تؤمله حَفِي
هم فتية الأتراك كلٌّ مجفجف | يغشى الكريهة فوق كل مجفجف
قوم يخوضون الحِمامَ شجاعة | لا ينظرون إليه من طرف خفي
إن صبَّحوا الأعداء فى أوطانهم | تركوا ديارهم كقاع صفصف
أنت اصطفيتهم لنُصرة ديننا | لله درٌّ المصطفى والمصطفي[1]

6- وقال الرّحالة ابن جبير قصيدة:

أطلّت على أفقك الزاهر | سعود من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدا | يُمدُّ إلى سيفك الباترِ
وكم لك من فتكة فيهمو | حكت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبَهم عنوة | فلله دركَ من كاسر
وأمضيتَ جدك فى غزوهم | فتعسا لجدِّهم العاثر
وأدبر ملكهمو بالشام | وولّى كأمسهم الدّابر
جنودُك بالرُّعب منصورة | فناجز متى شئت أو صابر
فكلهم غرِق هالك | بتيّار عسكرك الزاخر

(1) واقدساه (1 / 351).

ثأرت لدين الهدى فى العدا فآثرك الله من ثائر
وقمتَ بنصر إله الورى فسمّاك بالملك الناصر
تبيتُ الملوك على فُرشهم وترفل فى الزرد السابرى
وتؤثر جاهدَ عيش الجاهد على طيب عيشهم الناصر
وتسهر ليلك فى حقٍّ من سَيُرضيك فى جفنك الساهر
فتحتَ المقدَّس من أرضه فعادت إلى وضعها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى فخلَّصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذخَر الله هذى الفتوح من الزمن الأول الغابر
وخصَّك من بعد فاروقه بها لاصطناعك فى الآخر
محبَّتكم أُلقيت فى النفوس بذكرٍ لكم فى الورى طائر(1)

وروعة هذه القصيدة ليست فى سهولتها السَّلسَة، وخواطرها الصادقة، وعاطفتها الحارة فحسب، فهى مع ذلك كله تُصَوِّر وجهة نظر المسلمين فى المغرب الإسلامى نحو صلاح الدين، وتُنبئ أن العالم الإسلامى حينئذ كان جسداً واحداً، وأن الحدود المصطنعَة سياسياً بين دوله لا تمنع الامتزاج العاطفى بين من يَدينون بنعمة الإسلام فهم فى كل مكان يتحدون فى الآمال والآلام (2).

حادى عشر: حصار صور:

حقق صلاح الدين فى سنة 583هـ/1187م انتصارات عظيمة ضد الصليبيين، سيطر خلالها على معظم أنحاء مملكة بيت المقدس، ما عدا مدينة صور التى وصفها المؤرخون المسلمون بأنها مدينة حصينة متوسطة فى البحر كأنها

(1) صلاح الدين الأيوبى قاهر العدوان الصليبى ص 285.
(2) المصدر نفسه ص 286.

سفينة، ليس لها طريق إلى البر إلا من مكان واحد له سبعة أبراج [1]. فضلاً عما كانت تتمتع به من أسوار منيعة وأبراج عالية قد امتلأت بالصليبيين الهاربين إليها بسبب الأمان الذى منحه صلاح الدين للصليبيين، مقابل تسليم مدنهم له [2] وإذا كان الصليبيون قد فقدوا فى معاركهم ضد صلاح الدين معظم زعمائهم وقادتهم الذين وقعوا بين قتلى وأسرى، فإنه قد ظهر بينهم بعض القادة الأكفاء الذين تولوا مهام أمورهم خاصة كونراد مونتفرات[3] الذى وصفه ابن شداد بقوله: إنه كان رجلاً عظيماً ذا رأى وبأس شديد فى دينه وصرامة عظيمة[4]، ووصفه سبط ابن الجوزى بأنه: كان شجاعاً حازماً [5] وكونراد هذا أو المركيس - كما تسميه المصادر العربية - أصبح زعيماً للصليبيين، وقبل من بداخل المدينة من الأمراء وفرسانهم أن ينضووا تحت لواء كونراد ويعترفوا له بالزعامة عليهم، مقابل تعهده بالدفاع عنهم وحمايتهم من هجمات المسلمين، كما تقرَّر رفض ما عرضه صلاح الدين من شروط أثناء المفاوضات وسارع فى إرسال الوفود لطلب المدد والعون من الغرب الأوروبى وحمل عبء الدفاع عن ما تبقَّى من الكيان الصليبى فى بلاد الشام حتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة [6] واضطر صلاح الدين لرفع الحصار الأول لصور قبل فتح بيت المقدس وعمل كونراد على تقوية استحكامات المدينة وإعدادها للمعركة المنتظرة، فحفر خندقاً فى الجانب الشرقى وهو الجانب الوحيد الذى يربط المدينة بالبر، فأضحت المدينة كالجزيرة، وحصَّن أسوارها مما زاد فى مناعتها [7]. ولما عاد صلاح الدين إلى حصارها فى 22 رمضان/ تشرين الثانى 1188م، وبدأ الحصار بضرب أسوار المدينة بقذائف المنجنيق، واستعمل المسلمون مختلف أنواع الأسلحة لاقتحامها، لكن دون جدوى، فقد صمدت المدينة فى وجه الضرب والهجمات

(1) كتاب الروضتين (119/2) صلاح الدين والصليبيون ص 229.

(2) صلاح الدين والصليبيون ص 229.

(3) المصدر نفسه ص 229.

(4) النوادر السلطانية ص 98.

(5) مرآة الزمان نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 230.

(6) الكامل فى التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 170.

(7) المصدر نفسه ص 170.

الإسلامية البرية والبحرية، عندئذ لجأ صلاح الدين إلى الأسلوب السياسى لإقناع كونراد بالتسليم، إذ كان والده وليم الثالث أسيراً فى قبضة صلاح الدين، فحاول أن يستغله كورقة ضغط فى التأثير عليه وهدَّد بإعدامه، لكن هذه المحاولة فشلت أمام تصلب كونراد الذى ردَّ على صلاح الدين بأنه يفضل أن يُذبح هو وأبوه عن أن يسلم جزءاً من المدينة، وتجاه هذه التطورات السياسية والعسكرية اضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن صور فى آخر شوال 583هـ/أول كانون الثانى 1188م [1] وكان ذلك أول فشل يتعرض له فى أعماله العسكرية ضد الصليبيين منذ معركة حطين [2] ولقد تضافرت عدة عوامل دفعت صلاح الدين إلى فك الحصار عن صور من أهمها:

- كان الوضع النفسى للجيش الأيوبى حرجاً بعد أن جابهته صعوبة فى فتح المدينة وقد أشار بعض قادته بأن العساكر بحاجة إلى الراحة.
- دعاء الأمراء الأغنياء والممولين للجيش إلى فك الحصار عن صور، لأنهم خشوا أن يقترض صلاح الدين منهم ما ينفقه على أفراد الجيش إذا استمر الحصار، فى حين كان رأى صلاح الدين متفقاً مع رأى بعض قادته الآخرين، القاضى باستمرار مرابطة الجيش أمام صور، مع الاتجاه باقتراض الأموال من الأغنياء، لكن هؤلاء ألحوا عليه برفع الحصار.
- انفتاح صور على البحر بعد فشل الحصار البحرى الذى ضربه الأسطول المصرى عليها، فاستمرت المؤن والعتاد فى الدخول إليها.
- تساهل صلاح الدين مع صليبى المدن المفتوحة، والسماح لهم بالتجمُّع فى صور، مما رفع معنويات هؤلاء، فتكتلوا للدفاع عن المدينة.
- أدَّت العوامل الطبيعية دوراً آخر فى فشل الحصار، إذ جاء شتاء ذلك العام مطيراً، والبرد شديداً، كما تفشَّى المرض فى المعسكر الأيوبى[3].

---

(1) النوادر السلطانية ص 138.

(2) الحركة الصليبية (2/ 841) عاشور.

(3) النوادر السلطانية ص 138.

ويُبدى المؤرخون المسلمون أسفهم العميق لفشل صلاح الدين فى فتح صور، أما المؤرخ ابن الأثير - الذى عرف بتحامله على صلاح الدين - حمّل صلاح الدين مسؤولية ما حدث للمسلمين على صور، وذكر أنه لم يكن لأحد ذنب فى أمر صور غير صلاح الدين، فإنه هو الذى جهز جموع الصليبيين وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغيرها، وذلك بسبب إفراطه فى التسامح مع الصليبيين[1] . أما سبط ابن الجوزى فيرى أن صلاح الدين ضيع الفرصة على المسلمين بتركه الصليبيين يذهبون إلى صور ولم ينظر فى عواقب الأمور، وأنه كان من الواجب عليه عرضهم على الإسلام وإلا ضرب رقابهم بالسيف، كما أنه شبه تلك الأحداث بما حدث فى معركتى بدر وأحد، ويبدو أن ابن الأثير تحامل على صلاح الدين، لأنه كان ربيب البيت الزنكى، ولم ينس أن صلاح الدين قضى على ملكهم فى الشام، ولا يستبعد أن يكون سبط ابن الجوزى قد تأثر بابن الأثير فى ذلك[2] .

والواقع أن تلك الخطة التى اتبعها صلاح الدين مع الصليبيين والتى تقوم على تأمينهم مقابل تسليم المدن والحصون له، أتاحت لصلاح الدين فرصة الاستيلاء على معظم مملكة بيت المقدس فى شهور قليلة، ما عدا أماكن قليلة منها مدينة صور، وصلاح الدين لم يكن أمامه غير اتباع هذه الخطة، إذ لو عمد إلى الاستيلاء على مدن مملكة بيت المقدس عن طريق القوة والمصابرة لطال أمر القتال، هذا بالإضافة إلى أنه قد اختار سياسة التسليم مقابل الأمان عملاً بالشريعة الإسلامية السمحاء[3] .

لقد تصرف صلاح الدين طوال حروبه، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقبلين وأن يضع أساس دولة تعيش فيها الديانتان جنباً إلى جنب تحت ظل السلطان، وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية، ولم يكن إبادة المسيحيين[4] .

---

(1) الكامل التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 335.

(2) صلاح الدين والصليبيون ص 235.

(3) المصدر نفسه ص 236.

(4) صلاح الدين الايوبى، قلعجى ص 280.

لقد أثرت تصرفات صلاح الدين المستمدة من هدى الإسلام العظيم في الساسة الأوروبيين وشعوبهم، لما رأوا من عفوه الكريم وتسامحه النبيل، فكان أسوة حسنة ومثلاً يضرب للناس، وكسب للإسلام بقلبه وسيفه، وهذا ما جعل تشرشل يقول عنه إنه من أعظم ملوك الدنيا، ودفع الكاتب الإنكليزي ريدر هجارد إلى القول بأنه أعظم رجل على وجه الأرض[1].

ثاني عشر: استكمال الفتوحات:

1- **فتح الكرك والشوبك:** كانت ستيفاني، صاحبة إقطاع ما وراء نهر الأردن، المجاور لمملكة بيت المقدس من بين الأسرى الذين تمَّ افتداؤهم بعد فتح بيت المقدس، فطلبت من صلاح الدين أن يطلق سراح ابنها همفري صاحب تينين، وافق صلاح الدين على طلبها لكنه اشترط، مقابل ذلك، تسلميه الحصنين الكبيرين، الكرك والشوبك، التابعين لهذا الإقطاع. ويبدو أن ستيفاني وافقت على شرط صلاح الدين، فأفرج هذا الأخير عن ابنها، وفي حين أوعزت هي إلى حاميتي الحصنين بالاستسلام غير أنهما رفضا ذلك، مما دفعها إلى إعادة ابنها إلى الأسر، تجاه هذا التصرف النبيل، بادلها صلاح الدين بتصرف أنبل، فأطلق سراح ابنها بعد عدة أشهر وحاصر الحصنين، واستمر حصار الكرك والشوبك ما يزيد على السنة، تعرض المدافعون عنهما إلى الجوع والعطش، ولم يستسلموا إلا بعد أن نفدت ذخائرهم، وأكلوا دوابهم، ويئسوا من وصول نجدة تساعدهم على الصمود، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال وكان ذلك في شهر ربيع الأول عام 584هـ/ شهر أيار عام 1188م.

2- **الالتفات نحو الشمال:** بعد فتح المناطق الجنوبية لبلاد الشام واتصالها ببقية المناطق الإسلامية من أيلة في العقبة في الجنوب حتى بيروت في الشمال، باستثناء صور، التفت صلاح الدين بعد ذلك إلى الشمال لفتح مناطق السيطرة

(1) المصدر نفسه ص 282.

الصليبية في إمارتي طرابلس وأنطاكية. وكان ريموند الثالث، صاحب طرابلس، قد توفى كمداً بعد فراره من معركة حطين بوقت قصير، ولم ينجب ذرية، فأوصى بأن يخلفه الابن الأكبر لبوهيموند الثالث أمير أنطاكية، ولكن هذا الأخير كان بحاجة إلى ابنه البكر إلى جانبه للدفاع عن إمارة أنطاكية فأمده بابن آخر هو بوهيموند[1] اجتاح صلاح الدين البقيعة بعد أن جاءته إمدادات من سنجار وهاجم حصن الأكراد في شهر (ربيع الآخر/ حزيران) وكان بحوزة الداوية، لكنه جوبه بقوة استحكاماته ومناعته فتجاوزه إلى شواطئ طرابلس وأنطاكية وهاجم أنطرطوس في شهر "جمادى الأولى / تموز" ودخلها، لكن استعصت عليه القلعة، فأمر بوضع النار في البلد وأحرق جميعه [2] وحاصر حصن المرقب، فامتنع عليه أيضاً، فاتجه إلى بانياس في أقصى شمال إمارة طرابلس، وفتحها، ثم أوغل في إمارة أنطاكية، فأذعنت له القلعة الساحلية جبلة، واستسلمت اللاذقية، وهي أكبر موانئ إمارة أنطاكية، وقد غادرها الصليبيون بعد أن عجزوا عن الدفاع عنها وفتح حصن بكسرائيل الواقع على طريق حماة مقابل جبلة[3]. وتحوّل صلاح الدين بعد ذلك إلى الداخل، واصطحب مع ابنه الظاهر غازي صاحب حلب، فهاجم قلعة صهيون التابعة للاسبتارية، وفتحها عنوة، واستسلمت له حاميتا بكاس والشغر الواقعتان في الشمال الغربي، على نهر العاصي، سرمين وبرزية، وهي آخر ما يقع من القلاع في أقصى الجنوب من نهر العاصي[4].

وبهذه الفتوح، تمت السيطرة على جميع المخافر الأمامية لمدينة أنطاكية، ولم يبق من حصون تابعة لهذه الإمارة سوى بغراس ودرساك في الشمال، فهاجمها صلاح الدين فأذعنت له دربساك الواقعة في جبال الأمانوس، وكانت تابعة للداوية، واستسلمت قلعة بغراس، التابعة للداوية أيضاً وكانت تتحكم في الطريق المؤدي

(1) مفرج الكروب (2/ 271) تاريخ الأيوبيين ص 172.

(2) النوادر السلطانية ص 129.

(3) النوادر السلطانية نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 173.

(4) تاريخ الأيوبيين ص 173.

من أنطاكية إلى كيليكية[1]. وهكذا أصبحت إمارتا طرابلس وأنطاكية مقصوصتى الجناح، ولم يبقَ سوى مدينتىّ طرابلس وأنطاكية، فضلاً عن ميناء السويدية واحتفظ الأسبتارية بحصنى المرقب والأكراد، واحتفظ الداوية بأنطرطوس. ونتيجة لما آلت إليه أوضاع إمارة أنطاكية، التمس بوهيموند الثالث من صلاح الدين عقد هدنة، يعترف فيها بكل فتوحاته، وكانت العساكر الإسلامية قد أصابها الإرهاق نتيجة القتال المتنقِّل والمتواصل، لذلك وافق على التماسه وعقدت الهدنة بينهما ثمانية أشهر [2] وأتاحت هذه الهدنة لصلاح الدين، الالتفاف مجدداً نحو الجنوب، وبعد أن سرّح قسماً من جيشه، هاجم حصنى الداوية فى صفد والأسبتارية فى كوكب، وفتحهما فى شهرى (شوال وذى القعدة عام 584هـ/ كانون الأول عام 1188م وكانون الثانى عام 1189م)[3].

ثالث عشر: إنا لم نخلق للمقام فى دمشق وإنما خلقنا للعبادة والجهاد فى سبيل الله:

فى سنة 584هـ دخل صلاح الدين دمشق بعد رجوعه من بعض غزواته وكان دخوله فى ربيع الأول، ففرح به المسلمون ودقَّت البشائر وزُيِّن البلد، ووجد الصفىَّ ابن القابض وكيل الخزانة قد بنى داراً بالقلعة هائلة مطلة على الشرف القبلىِّ، فغضب عليه وعزله من وظيفته وقال: إنا لم نُخلَقْ للمقام بدمشق وإنما خلقنا للعبادة والجهاد[4]. وهذا الذى عملته مما يثبط النفوس ويقعدها عما خلقت له [5]. لقد كانت العقيدة الإسلامية الصحيحة التى تعلمتها الأمة من رسول الله ﷺ هى المهيمنة على حركات صلاح الدين وتصرفاته واختياراته فى الحياة، ولذلك قال هذه الكلمة التى تكتب بماء الذهب، إنما خلقنا للعبادة والجهاد، وقبلها فى حطين قال

(1) تاريخ الأيوبيين ص 173.
(2) المصدر نفسه ص 173.
(3) النوادر السلطانية ص 152–154 تاريخ الأيوبيين ص 174.
(4) البداية والنهاية (16/ 604).
(5) حياة صلاح الدين، محمود شلبى ص 111.

لقادة أركانه: لا تقاتلوا من أجلي ولكن في سبيل الله، لقد طهر التوحيد من نفسه ما يعلق بها من أهواء وفتن ونزغ الشيطان، فقد تحدى بإيمانه العميق وفهمه الدقيق لدينه ادعاء المنجمين الذين حذروه من فتح القدس وقالوا له: تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة. فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، فافتتحها بعد أن كانت بأيدي الفرنج أكثر من تسعين سنة [1]، وأبطل تخرصات المنجمين، فقد كان يصغى فقط لنداء الله ورسوله ﷺ[2] وكان لسان حاله قول الشاعر:

ومما زادني عـــزاً وتيـــهــــاً وكـــدت بأخـمـصي أطأ الثـريا
دخـولي تحت قـولك يا عـبـادي وأن صـيـرت أحـمـد لي نبـيـا

رابع عشر: وفاة أسامة بن منقذ:

توفي عام 584هـ الأمير الكبير العلاّمة، فارس الشام، مجد الدين مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن الأمير مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكِنانيُّ الشَّيْزَري[3] قال الذهبي: عاش سبعاً وتسعين سنة ومات بدمشق في رمضان سنة 584هـ[4] وله أشعار في مدح السلطان صلاح الدين منها قوله:

والناصـر الملك المتـوّج ناصـري وعـلاه قـد خطت كـتـاب أمـاني
قد كنت أرهب صرف دهري قبله فـأعـاد صـرف الدهرِ من أعـواني
أنا جـاره ويدُ الخطوبِ قـصـيـرة عن أن تـنال مـجـاورَ السـلطان
ملك يمنُّ على أسـارى سـيـبـه فـيعـيدهم في الأسـر بالإحسـان
خضعت له صيدُ الملوك فمن يُرى أقـلامـه غـررُ على التـيـجـان

(1) الحروب الصليبية مواقف وتحديات ص99.
(2) المصدر نفسه ص 99.
(3) سير أعلام النبلاء (21/165).
(4) المصدر نفسه (21/165).

مــلأ القلوب مــحــبــة ومــهــابةً ... فــخلت من البــغــضــاء والشنآن

لى منه إكــــرام علوت به على ... زُهر النجـــوم.. ونائل أغنائي

قــرن الكرامــة بالنوال مــواليــا ... فــعــجــزت عن إحــصــاء مــا أولانى

فنداه أخلف مـا مضى من ثروتى ... وبقــاؤه عن أســرتى أســلانى

فــلأهدينَّ إلى عــلاه مــدائحــاً ... تبــقى عن الأحــقــاب والأزمــان

مِداحــاً أفــوق بهــا زهيــراً مثلمــا ... فــاق المليك الناصــر ابن سنان

يا ناصر الإسلام حين تخاذلت ... عنه الملوك ومظهــر الإيمــان

بك قــد أعــزّ الله حــزب جنوده ... وأذلَّ حــزب الكفــر والطغــيــان

لما رأيت الناس قــد أغـــواهم ... الشيطان بالإلحاد والعصيــان

جرّدت سـيفك فى العدا لا رغبة ... في الملك، بل في طاعة الرحمن

فضربتهم ضربَ الغرائب واضعاً ... بالسيف ما رفعوا من الصلبان

وغـــضـــبت لله الذى أعطاك ... فصل الحكم غضبة ثائر حرّان

فقتلتَ من صَدقَ الوغى ووسمت ... من نجّى الفـــرار بذله وهوان

وبذلت أمــوال الخزائن بعدمــا ... هرمت وراء خــواتم الخُــزّان

في جمع كلّ مجاهد ومجالد ... ومـــبـــارز ومنازل الأقــران

من كل من يردُ الحروب بأبيض ... عضبٍ ويصدُ وهو أحمر قان

ويخــوضُ نيــرانَ الوغى وكــأنه ... ظمــآنُ خــاض مــوارد الغــدران

قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى ... مــاذا أتى بالأســد من خَــفّــان[1]

---

(1) خفّان: موضع قبل اليمامة أشب الغياض كثير الأسد.

لو أنهم صدعوا الجبال لزعزعوا أركانها بالبيض والخرصان
فهمُ الذخيرةُ للوقائع بالعداء ولفتح ما استعصى من البلدان
والسعد بشهر الصوم فهو مبشر لعلاك بالتأييد والغفران
في دولة عمّت بنائلها الورى فدعا لها بالخُلد كل لسان[1]

وقال أيضاً في صلاح الدين:

حمدتُ على طول عمرى المشيبا وإن كنت أكثرتُ فيه الذنوبا
لأنى حييت إلى أن لقيت بعد العدو صديقاً حبيبا

وقال أيضاً في صلاح الدين:

سمعت صروف الدهر قول العاتب وتجنّبت حربَ المليك الحارب
وتجافت الأيام عن مطلوبه ومراده أكرم به من طالب
هو من عرفن فلو عصاه نهاره لرماه نقع جيوشه بغياهب
وإذا سطا أضحت قلوب عُداته تُلوى كمحراق بكفى لاعب
من ذا يناوى الناصر الملك الذى فى كفّه بحرا ردى ومواهب
وإذا سرى خلت البسيطة لجّة أمواجها بيض وبيض قواضب
ملك القلوبَ محبة ومهابة فاقتادها طوعاً بهيبة غاضب[2]

(1) أسامة بن منقذ، محمد عدنان قيطاز ص 246، 247.
(2) أسامة بن منقذ ص 108.

وكتب إلى الملك الناصر صلاح الدين بعد مصاف عسقلان سنة 583هـ:

تهنَّ يا أطول الملوك يدا ... في بسط عدل وسطوة وندى

أجراً وذكراً من ذلك الشكر ... في الدنيا ومن ذلك الجنان غدا

لا تستقل الذى صنعت فقد ... قمت بفرض الجهاد مجتهداً

وحُبست أرض العداء وأفنيت من ... أبطالهم ما يجاوز العددا

وما رأينا غزا الفرنج من ... الملوك في عقر دارهم أحدا

فسر إلى الشام فالملائكة ... الأبرار تلقاك ملتقى حُمِدا

فهو فقيرٌ إليك يأمل أن ... تصلح بالعدل منه ما فسدا

والله يعطيك فيه عاقبة ... النصر كما فى كتابه وعدا

فما حباك الورى وألهمك ... العدل وأعطاك ما ملكت سدى

وله من قصيدة يمدح صلاح الدين:

فما أنت إلا الشمس لولاك لم تزل ... على مصر ظلماءُ الضلالة سرمدا

وكان بها طغيان فرعون لم يزل ... كما كان لما أن طغا وتمرّدا

فبصَّرْتهم بعد الغواية والعمى ... وأرشدتهم تحت الضلال إلى الهدى(1)

ومن قصيدة يمدح الملك الناصر صلاح الدين:

قل للملوك تزحزحوا عن ذروة ... العلياء للملك الهمام الناصر

يعطى الألوف ويلتقيها باسماً ... طلق المحيَّا فى القنا المتشاجر(2)

---

(1) أسامة بن منقذ والجديد من آثاره وأشعاره ص 135.

(2) المصدر نفسه ص 160.

وأسامة ابن منقذ من المعمرين عاش عمراً مديداً، حافلاً بالمكارم والمآثر، والرزايا والخطوب، فقد شهد الحملات الصليبية على بلاد الشام، وشارك في حركة الجهاد والاستشهاد من أجل تحرير أراضي المسلمين من غزاة الغرب في شيزر وما حولها وتحت لواء الزنكيين وساهم في الحياة السياسية أيام السلم والحرب على حد سواء إبان العهد الزنكي، وفي أواخر العهد الفاطمي الذي انهارت قواعده على يد الناصر صلاح الدين فجمع مصر والشام في ظل دولة واحدة تمهيداً لتحرير القدس من غاصبيها، وقد تم ذلك بحمد الله. وبموت أسامة بن منقذ طويت آخر صفحة من صفحات تاريخ آل منقذ في بلاد الشام، وصفه ابن العديم بأنه من الأمراء الفضلاء والأدباء الشعراء الشجعان الفرسان له مصنفات عديدة، ومجاميع مفيدة ومواقف مشهورة ووقائع مذكورة وفضائل مسطورة، وقال ابن تغري بردي: كانت له اليد الطولى في الأدب والكتابة والشعر وكان فارساً عاقلاً مدبراً، يحفظ عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية[1].

خامس عشر: من أهم الدروس والعبر والفوائد:

من خلال عرض الأحداث السابقة تظهر للباحث عدة دروس وعبر وفوائد في حياتنا المعاصرة منها:

1- **أهمية العلماء الربانيين في إيقاظ الأمة**: إن الأمة في أشد الحاجة لمن يوقظها من نومها، ويخرجها من جهلها وينبهها من غفلتها، فالخير الذي تمّ على يدي صلاح الدين كان من أسبابه، حركة العلماء في التربية والتعليم والتوجيه والإرشاد، فالدور الأكبر الذي ينتظر العلماء الربانيين تصفية عقيدة الأجيال القادمة مما شابها من العقائد الباطلة والفاسدة والخرافات والشركيات، وتصفية السنة مما شابها، وتصفية التاريخ الإسلامي مما شابه من الفتن؛ لإبراز لآلئ تاريخ أمتنا العظيم ولاستخلاص العبر، وتصفية الفقه مما شابه من الآراء والمحدثات المخالفة، وتصفية الوعظ مما شابه من الإسرائيليات والخرافات وأحاديث القُصّاص، وتربية الجيل على

(1) المصدر نفسه ص 30، 31، 32.

هذا، هذا هو أساسٌ أى إصلاح لإقامة أى نهوض، وينبغى على العلماء أن يوجّهوا المربين إلى إصلاح مناهج التعليم والتربية لإعداد النشء على حب الجهاد وأن يضع نصب عينيه تاريخ القادة العظام الذين دوّخوا الكافرين، أمثال الخلفاء الراشدين، وأبى عبيدة ومعاذ وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، ونور الدين وصلاح الدين وقطز وبيبرس، وأن يدرّس لهذا النشء معارك الإسلام الفاصلة وإلهاب عاطفتهم من الصغر على حب البذل والعطاء لدينهم، وعلى العلماء أن يأمروا بالمعروف وينهوا على المنكر ويواجهوا الشر وهبوط العزائم، ويصونوا الأمة أن يعبث بها كل ذى هوى وكل ذى شهوة، ولابد أن يصلح العلماء اعوجاج الأمة وقادتهم وفيهم الجبار الغاشم والمتسلط وفيهم الهابط الذى يكره الصعود، والمسترخى الذى يكره الاشتداد والمنحل الذى يكره الجدّ، والظالم الذى يكره العدل، وفيهم المنحرف الذى يكره الاستقامة، وفيهم ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر، ولن تعود القدس إلا أن يقود العلماء الربانيون مسيرة الأمة ويوجهوا الحكام إلى الخير [1].

2- تربية الجيل على عقيدة أهل السنة والجماعة: الدعاة إلى الإسلام والناشدون لتحرير القدس والأقصى لابد لهم من تربية جيل النصر المنشود على العقيدة التى كان عليها الرسول وأصحابه، وتصفية العقيدة مما شابها من العقائد الباطلة والفاسدة والخرافيات والشركيات والبدع. ولله در الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة القائل: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وما أجمل قول القائل: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم. وما سقطت القدس إلا على أيدى أهل البدع الفاطميين، وما ضاعت إلا لما ضاع الولاء، وتحالف رجال الثورة العربية مع الإنجليز ضد المسلمين من الأتراك، وما سقطت القدس إلا بعد انحرف الناس عن الجادة وصار ربان السفينة ممن يغيب الإسلام فى الصراع، ومحال أن تعود القدس على أيدى أناس يسبون صحابة رسول الله ويكفرونهم ويطعنون فى الثوابت من هذا الدين، وهم ومن على شاكلتهم كانوا الخناجر التى

(1) واقدساه (3/ 521، 522، 523).

طُعنت بها الأمة، والله يفتح مغاليق الأمور لمن علم فى قلبه الصدق والعزيمة وسلامة النهج وصفاء التوحيد والولاء [1].

3- **تحرير الولاء لله ورسوله والمؤمنين:** وهذا بيت القصيد لابد أن يعلمه القاصى والدانى الصغير والكبير من هذه الأمة وبغض لهؤلاء اليهود والنصارى لكفرهم أولاً، ولأنهم اغتصبوا ديارنا ثانية، وتصريحات زعمائهم تدل على أن الحرب بيننا وبينهم دينية، فمثلاً حكام أمريكا حبهم وولاؤهم لإسرائيل من منطلق دينى توراتى بحت فهم يقدسون التوراة "العهد القديم" مثلما يقدسون الإنجيل "العهد الجديد" وقيام إسرائيل وحمايتها قام على أساس التزام دينى من إنجلترا وأمريكا، فعار على الأمة أن تسلم رقابها ورقاب أبنائها وثرواتها وأراضيها إلى أعدائها، وعار على الأمة أن تتنكر لإسلامها وتتسوّل نفايات الفكر اليونانى الرومانى العفن عار على الغنى أن يتسّول [2] وقد تحدث الرؤساء الأمريكيون عن ماذا تعنى إسرائيل بالنسبة لهم، فقد أصدرت جريدة هيرالد تريبيون الدولية تقريراً خاصاً فى عددها رقم 35818 بتاريخ 29/04/1998م ونشرت فيه كلمات لعشرة رؤساء لأمريكا، على مدى خمسين عاماً منذ نشأة إسرائيل حتى الآن ويؤكدون فى كلماتهم ضمانهم لأمن إسرائيل، وذكرت الجريدة فى تعليقها؛ منذ تحقيق الاستقلال سنة 1948م، كان لإسرائيل مكان خاص فى قلوب الأمريكيين وفى قلوب رؤساء أمريكا، ففى كل إدارة كان الرئيس يعترف بأهمية أمن إسرائيل بالنسبة للأهداف القومية الأمريكية [3].

- **قال بيل كلينتون:** أمريكا وإسرائيل يربطهما ميثاق خاص وعلاقتنا فريدة من نوعها بين كل الأمم، فكما هو الحال فى أمريكا، فإن إسرائيل تتمتع بديمقراطية قوية كرمز للحرية وهى واحة للاستقلال، وملجأ للمظلومين والمضطهدين.

---

(1) واقدساه (3/526).

(2) واقدساه (3/494).

(3) المصدر نفسه (3/491).

- **جورج بوش**: لقد تمتعت الولايات المتحدة وإسرائيل لأكثر من أربعين سنة بصداقة مبنية على احترام متبادل، والتزام بمبادئ الديمقراطية، ويبدأ استمرارنا بالبحث عن السلام فى الشرق الأوسط بإدراك أن الروابط التى تُوحِّد بين دولتينا لا يمكن أن تنفصم.

- **رونالد ريجان**: يثبت الرجال والنساء الأحرار بإسرائيل كل يوم قوة الشجاعة والإيمان، وبالرجوع لسنة 1949م عندما وُجدت إسرائيل، ادّعى النّقاد أن الدولة الجديدة لا يمكن أن تستمر، والآن لا يشك أحد أن إسرائيل هى أرض الاستقرار والديمقراطية فى منطقة الطغيان والاضطرابات.

- **جيمى كارتر**: بقاء إسرائيل ليس مجرد قضية سياسية ولكنه التزام أدبى، وهذا هو إيمانى العميق الذى أرتبط به، وهو الإيمان الذى يشاركنى فيه الأغلبية العظمى من الشعب الأمريكى، فإن إسرائيل القوية الآمنة ليست مجرد اهتمام الإسرائيليين ولكنه اهتمام الولايات [1] المتحدة والعالم الحر كله.

- **جيرالد فورد**: التزامى بأمن ومستقبل إسرائيل مبنى على مبادئ أساسية، وهو اهتمام شخصى، كإنسان متنور "مثقف" كما أن دورنا فى مساندة إسرائيل يُشرف تراثنا الوطنى [2].

- **ريتشارد نيكسون**: الأمريكيون يعجبون بالشعب الذى يحفر الصحراء ويحوّلها لحدائق، لقد أثبت الإسرائيليون بدلالات يقبلها الأمريكيون أن لديهم الشجاعة والوطنية والمثالية، والولع بالحرية، لقد رأيت ذلك وأومن بذلك[3].

- **جون كيندى**: إسرائيل لم تُخلق لتختفى، بل ستبقى، وتزدهر، إنها وليد الأمن والوطن للشجعان ولن تنكسر بالافتراءات، أو بإفساد معنوياتها؛ إنها تحمل درع الديمقراطية، وتشهر سيف الحرية[4].

---

(1) واقدساه (3/492).

(2) المصدر نفسه (3/492).

(3) المصدر نفسه (3/492).

(4) المصدر نفسه (38/493).

- **دوايت إيزنهاور:** لقد أنقذت قواتنا بقايا الشعب اليهودى بأوروبا من أجل حياة جديدة، وأمل جديدة فى الأرض المتجددة ونحن مع كل الرجال ذوى العزيمة الصادقة وأحيى الدولة الصغيرة، وأتمنى لها الفلاح [1].

- **هارى ترومان:** لدى إيمان بإسرائيل قبل تأسيسها كما أن لدى إيماناً بها الآن وأعتقد أنه سيكون لها مستقبل متألق أمامها، ليس لمجرد أمة مستقلة جديدة ولكن تجسيد للمثاليات العظمى لمدنيتنا [2].

4- **وحدة الأمة على أساس من وحدة العقيدة:** قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ (الصف) الأمة المتراصة أقوى عند النزال من جبهات تلتقى وتفترق وتسير وتقف، تجمعها مصالح آنية، إنها سنة الله فى الحياة عندما تكون الأمة متوحدة على أساس من العقيدة تكون أقوى وأعزّ حتى ولو قلّ العدد وهذا واضح من حركة التاريخ، فشتان بين مسيرة يدفعها هوى وتصورات بشرية، وبين مسيّرة تدفعها قواعد ربانية، شتان بين أمة ينير منهاج الله دربها وأقوام يعطيهم الهوى بصيصاً من نور ثم ينطفئ، فاللقاء فى المعارك الفاصلة مع الشيعة الرافضة لا يمكن ذلك، فصلاح الذين تخلص من الدولة الفاطمية ثم استطاع بعد ذلك تحرير بيت المقدس بعد القضاء على الفكر الشيعى الرافضى، فالتاريخ يعلمنا دور الباطنية والشيعة الرافضة فى خيانة الأمة وقتل مجاهديها وعرقلة الحركات الجهادية ضد الصليبيين على مدار التاريخ الإسلامى وفى التاريخ الحديث، تحالفوا مع أمريكا على حساب أفغانستان والعراق ومصالحهم المذهبية فوق كل شىء.

إن أصحاب البدع مثل العقارب يدفنون رؤوسهم وأبدانهم فى التراب، ويخرجون أذنابهمن فإذا تمكّنوا لدغوا وكذلك أهل البدع، هم مختفون بين الناس، فإذا تمكنوا بلغوا ما يريدون[3].

---

(1) المصدر نفسه (3/493).
(2) المصدر نفسه (3/493).
(3) واقدساه (3/490).

5- الراية الإسلامية للمعركة: إن راية الإسلام هى حياتنا وأملنا، نور أبصارنا وبصيرتنا، وهى الرأية الوحيدة لمعاركنا القادمة، إن اليهود والنصارى يحاربوننا بالتوراة حرباً دينية تحت شعار الصليب والنجمة فلا نحاربهم إلا بالقرآن، وإذا رجعوا إلى تعاليم التلمود رجعنا إلى البخارى ومسلم، وإذا قالوا: نعظِّم السبت، قلنا: نعظم الجمعة، وإذا قالوا: الهيكل، قلنا الأقصى، وإذا قاتلونا تحت راية اليهودية والنصرانية قاتلونا تحت راية الإسلام[1]، يقول جمال حمدان: قبل الإسلام لم يكن عرب الجزيرة أمة، ولا كان لهم تاريخ حتى أمة بلا تاريخ لم يكونوا، بل مجرد حفنة أو شرذمة من القبائل المتحاربة المتعاركة المتطاحنة المتعددة اللهجات وأحياناً اللغات، وهى إن لم تكن تقع خارج فإن لها تاريخًا فولكلوريًا على أكثر تقدير [2]. ويقول: لقد خرج العرب من الصحراء ودخلوا التاريخ بفضل الإسلام وما كان لهم هذا ولا ذاك بدونه، لم يكن الإسلام بالنسبة للعرب رسالة من السماء فقط، ولكن نجدة من السماء [3] ويقول: الإسلام جاء ليبقى. ويقول: عودة الإسلام ليقود من جديد [4]. كانت راية نور الدين وصلاح الدين فى معاركهم هى الإسلام وانضوت تحتها الشعوب الإسلامية من عرب، وترك وأكراد وفرس وغيرهم فحققت تلك الانتصارات الرائعة.

6 - استراتيجية إسلامية بعيدة المدى وكوادر علمية تحيط بالواقع علماً: إن تحرير القدس على يدى صلاح الدين يعلمنا أن المسيرة لتحريره من جديد لها خطها ونهجها، ولها أهدافها ووسائلها وكلها أهداف ووسائل شرعية، ولكنها لا يمكن أن تسير دون نهج مفصَّل واضح، يسمح لأفرادها أن يعرفوا ماذا يريدون. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

---

(1) المصدر نفسه (3/495).
(2) المصدر نفسه (3/496).
(3) واقدساه (3/496).
(4) المصدر نفسه (3/496).

وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الأنفال). ولابد من توضيح جملة من الحقائق.

أ- من هم أعداؤنا؟

ب- كيف يفكر كل عدو من أعدائنا، وما هى إمكانياتهم؟

ج- ماذا أعدّ كل عدو من أعدائنا؟

د- هل أعددنا أنفسنا لمواجهة التحديات؟ لماذا نجح العدو فى تحقيق أهدافه؟

س- لماذا نجح العدو فى تكبيل الأمة بالأغلال؟ وإجبارها على التسليم له وقد اغتصب مقدساتها وأرضها وثرواتها وسخر من عقيدتها؟

ش- لماذا تقف الأمة موقف السلبية تجاه هذا الخطر الماحق الذى يتهدّد وجودها؟

إن السبب يكمن فى جهل الأمة بدينها، وبرسالتها التى من أجلها خُلقت واستُخلفت فى هذه الأرض، فترتب على ذلك فساد عقائدى وسياسى وسلوكى وأخلاقى ووقعت فى الحرام، وأكل الحرام وتعطيل فرائض الله، وعدم تحرير الولاء والبراء [1]. والحل ممكن مع صدق النية واللجوء إلى الله عز وجل، ويمكن الاستفادة من التجارب التاريخية لإعداد خطة استراتيجة طويلة المدى فى مواجهة هذه التحديات المعاصرة[2]، استراتيجية مستمدة من "هوية الإسلام" التى ضعنا يوم أن ضيّعناها، قال تعال: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (البقرة).

7- توبة الأمة الإسلامية وعودتها إلى الله عز وجل وبعدها عن المعاصى: إن نصر الله سبحانه وتعالى لا يتنزل على أمة ماجنة عابثة لاهية غافلة شاردة بعيدة عن الله ورسوله، لا ينزل نصر الله على أمة تغوص فى مستنقع المعاصى الآسن

---

(1) واقدساه (510/3).

(2) كيف نفكّر استراتيجياً نقلاً عن واقدساه (512/3).

وتتمرد على منهج ربها، أمة تقلب الموازين وتسير ضد السنن الربانية، إنما ينزل النصر على أمة صابرة تعلم أنها إنما تنصر على عدوها بطاعتها لله ومعصية عدوها له وتعلم أن الله أعزها بالإسلام، فإن ابتغت العزة فى غيره أذلها الله عز وجل، فالنصر يحتاج إلى تبتل ودموع وقنوت وضراعة إلى الله عز وجل، فسلوا ليلة بدر عن بكاء النبى ﷺ وصلاته وسلوا ليلة الأحزاب وكل معارك الأمة(1)، فالرجوع إلى الله من أسباب النصر العظيم.

8- **الجهاد فى سبيل الله الطريق الوحيد لإعادة القدس:** إن الطريق الوحيد لتحرير الأراضى المحتلة هو طريق الجهاد فى سبيل الله الذى يمثل جوهر الأمن فى أمتنا وذروة سنام ديننا، إنه باب من أبواب الجنة، إنه انطلاق من قيد الأرض وارتفاع من ثقلة اللحم والدم، وما كانت الأمة أن تحمى وجودها ومقدساتها إلا بعبادة الجهاد فى سبيل الله، هذه العبادة التى مارسها نور الدين وصلاح الدين كانت من السبب الرئيسى للتصدى للغزو الصليبى قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)** ﴾ (الصف).

ومن الدروس والعبر والفوائد، أهمية التوكل على الله والثقة فيه واليقين بنصره للمؤمنين، والتعامل مع سنن الله واستيعابها وفهمها كسنة التغيير للنفوس، وسنة التدافع وسنة الله فى النصر والهزيمة ومعرفة الأسباب المعنوية للنصر، كالإيمان بالله وتقواه، وإرادة الجهاد، والإخلاص، والتوكل، والصبر والوحدة والشورى والذكر والدعاء، والطاعة والشجاعة والثبات، والأسباب المادية للنصر، كالإنفاق وإعداد العدة والسلاح، وإعداد المجاهدين عسكرياً والرباط، والتخطيط والأخذ بمبادئ الحرب، كاختيار المقصد وإدامته، وحشد القوى، والاقتصاد بالقوة، وادخارها، والمباغتة، والتعرض والمرونة والأمن والتعاون والمطاردة وكسنة الله فى إظهار الحق وإزهاق الباطل، والصراع بين الحق والباطل وسنة الله فى عقاب الأمم

(1) واقدساه (3/485).

ومعرفة أسباب العقاب الإلهى للأمم بالاستئصال، كالكفر بالله عز وجل، وإنكار يوم الجزاء، وإسناد شركهم ومعصيتهم لمشيئة الله اتباعاً للظن، وإيذاء الرسل بشتى أنواع الإيذاء وتكذيب الأمة بعد مجيء الآيات التى تطلبها، واستعجال العذاب، والجدال بالباطل والاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة، الإسراف، الترف، البطر، الاستكبار، المكر، الصد عن مساجد الله، والذنوب... إلخ.

المبحث الثالث: الحملة الصليبية الثالثة ووفاة صلاح الدين

أولاً: الصليبيون يستغيثون بالغرب:

ما كاد القتال ينتهى فى حطين وتتحقق خسارة الصليبيين حتى أسرعت الرسل إلى غرب أوروبا لإعلام ملوك أوروبا وأمرائها بما آلت إليه أوضاع الصليبيين فى الشرق، ولم يلبث أن اقتفى أثرهم رسل آخرون عقب فتح بيت المقدس. والواقع أن تلك الخسارة وهذا الفتح أحدث رد فعل عنيفاً فى المجتمع الغربى الذى ذُعر لنبأ الكارثتين، واعتقد النصارى فى الغرب بأنها جاءتا نتيجة إهمالهم فى عدم الاستجابة للاستغاثات المتكررة التى جاءت من مملكة بيت المقدس فى السنوات الأخيرة وأدرك من اجتمع فى مدينة صور من الصليبيين أنه ما لم تصلهم نجدة من الغرب، فإن فرص الاحتفاظ بصور ستتضاءل بعد أن ضاع كل أمل فى استعادة المناطق التى فقدوها، ولم يلبث كونراد دى مونتفيرات أن أرسل جوسياس، رئيس أساقفة صور، إلى غرب أوروبا فى منتصف عام 583هـ وآخر صيف عام 1187م، ليطلب من البابا وملوك أوروبا وأمرائها النجدة العاجلة، وصل جوسياس إلى صقلية، واجتمع بملكها وليم الثانى الذى استجاب لهذه الدعوة بعدما راعه ما سمعه من جوسياس من أنباء الكارثة التى حلّت بالصليبيين فى الشرق، ولما كان فى حالة حرب مع بيزنطية فقد عقد صلحاً مع الإمبراطور البيزنطى، إسحاق أنجيلوس فى فى شهر محرم 584هـ/ شهر آذار عام 1188م ليتفرغ للقضية الصليبية، ثم أرسل أسطولاً يحمل بضع مئات من الفرسان، إلى طرابلس بقيادة أمير البحر الصقلى مرجريت البرنديزى، وقد نجح فى منع صلاح الدين من فتح طرابلس[1].

(1) تاريخ الأيوبيين فى مصر وبلاد الشام والجزيرة ص 176.

ثم انتقل جوسياس من صقلية إلى روما ترافقه بعثة صقلية ليشرح للبابا أوربان الثالث حقيقة وضع الصليبيين في بلاد الشام، فلم يتحمل البابا الصدمة وتوفى كمداً في 14 شعبان 583هـ تشرين الأول 1187م على أن خليفته جريجورى الثامن بادر على الفور بالاتصال بملكى انكلتر وفرنسا وإمبراطور ألمانيا يستحثهم على أن يتناسوا ما بينهم من خلافات، ويعبئوا قواهم لمحاربة المسلمين. وإذا كان البابا جريجورى الثامن قد توفى هو الآخر في (13شوال/17 كانون الأول) قبل أن يرى ثمرة جهوده، فإن خليفته كليمنت الثالث (583هـ- 587هـ/1187-1191م أسرع بالاتصال بالإمبراطور الألمانى فريدريك الأول بربروسا وأقنعه بالاشتراك في حملة صليبية تتجه إلى الشرق، وحدث هذا في الوقت الذى انتقل فيه جوسياس إلى الغرب لمقابلة ملكى فرنسا وإنكلترا فيليب أغسطس وهنرى الثانى، واجتمع بهما في جيزورز على الحدود بين نورمنديا وفرنسا وأقنعهما بتناسى خلافاتهما التى كانت حادة وشجّعهما على عقد الصلح والاشتراك معاً في حملة صليبية، ومع ذلك، فإنهما تباطآ في التنفيذ، وتجدّدت الحرب بينهما، ثم توفى هنرى الثانى ملك إنكلتر في عام 585هـ/1189م وخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد دوق بواتو، فعقد صلحاً مع الملك الفرنسي، وتجهز للقيام معه بحملة مشتركة إلى الشرق (1).

ويتضح دور رجال الدين المسيحى في الأزمات من خلال ما قام به جوسياس والبابا، وهنا نستخلص درساً مهماً وهو أن على العلماء والفقهاء والدعاة والمفكرين والأدباء والساسة من أمتنا تجاوز مرحلة الشعور بالحسرة والحوقلة في الملمات والنكبات التى تمر بها الأمة والسعى الدؤوب للعمل الصحيح الذى يحبه الله ورسوله من توظيف المهارات القيادية والقدرة على الإقناع وحسن التخطيط وتقديم رؤية حضارية نهضوية... إلخ من أجل إعزاز دين الله تعالى والتصدى للغزاة.

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 176.

قدم الصليبيون إلى بلاد الشام بأعداد كبيرة لا تحصى، يدلنا على ذلك الرسالة التى بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسى فى بغداد فى سنة 586هـ/1190م يخبره بذلك والتى قال فيها: وقد بلى الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبين والأوطان وهجروا المألوفين والأهل والديار، وركبوا للحج ووهبوا المهج، كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالاً لأمر مركيسهم [1]. وخرج المسيحيون على اختلاف فئاتهم وأجناسهم ومن عجز عن الخروج بنفسه جهز بعدته وثروته من يقدر على السفر[2] وخرجت النساء للإسهام فى الحملة الصليبية الثالثة، فمنهن من خرجن وبصحبتهن الفرسان وقد تكفلن بجميع ما يحتاجون إليه من مؤن وعتاد، وعلى سبيل المثال ذكر أبو شامة وغيره أنه فى سنة 585هـ/1189م وصل فى البحر إلى بلاد الشام امرأة مسيحية جليلة القدر وفى صحبتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم، وقد تكفلت بكل ما يحتاجون إليه، فهم يركبون لركوبها، ويحملون لحملاتها ويثبون لوثباتها [3]. ومنهن من خرجن وقد لبسن الدروع وكن فى زى الرجال للاشتراك فى المعارك بأنفسهن لاعتقادهن أن عملهن ذلك عبادة [4]، ومنهن من خرج لإسعاف الغرباء وإسعاد الصليبيين بتسبيل أنفسهن لهم للاستمتاع بهن حتى لا يتسرب الملل إلى نفوس المحاربين [5]، وأما وليم الثانى ملك صقلية فقد بادر بإرسال أسطول فى سنة 585هـ/1189م يشتمل على ستين قطعة بها عشرة آلاف مقاتل أسند الأسطول إلى مدينة صور ثم رجع إلى طرابلس ولم ينفع الصليبيين بشىء لأن ما به من الميرة لم تكن تكفى ما عليه من الرجال [6].

(1) تاريخ الأيوبيين فى مصر وبلاد الشام ص 176.
(2) كتاب الروضتين (2/ 161-162) صلاح الدين والصليبيون ص238.
(3) مفرج الكروب (2/ 308) صلاح الدين والصليبيون ص 238.
(4) كتاب الروضتين (2/ 149) صلاح الدين والصليبيون ص 238.
(5) المصدر نفسه (2/ 149) صلاح الدين والصليبيون ص 238.
(6) مفرج الكروب (2/ 558) صلاح الدين والصليبيون ص 239.

ثانياً: الإمبراطور الألمانى فى طريقه إلى الشرق:

تناسى ملوك وحكام الغرب الأوروبى ما بينهم من خلافات وحزازات وأحقاد وعقدوا العزم استجابة لدعوة البابا على تسيير حملة صليبية إلى بلاد الشام، وكان أول من استجاب لهذه الدعوة فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا [1] ففى ربيع سنة 585هـ/1189م بدأت الجيوش الألمانية فى التجمع عند مدينة راتسبون استعداداً للمسير إلى بلاد الشام وكان ذلك الجيش بالرغم من كثرته العددية يتمتع بنظام عسكرى دقيق، فكان من يجرى منه جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح "مثل الشاة"[2]، وسار ذلك الجيش يتقدمه الإمبراطور فردريك بربروسا وبصحبته أحد أبنائه سالكاً الطريق البرى باتجاه القسطنطينية، حتى واجه عداء شديداً من الإمبراطور البيزنطى إسحاق الثانى إنجليوس الذى بعث إلى حليفه صلاح الدين يخبره بمسيرة الألمان ويعد بأن لا يمكنهم من عبور بلاده، إلا أن المصادر تذكر أن الإمبراطور البيزنطى لم يستطع منعهم من العبور، ولكنه لم يسعفهم بشىء من المؤن والعتاد، فقلت عليهم الأقوات، وعبروا خليج القسطنطينية "البسفور" وقد اشتدت ضائقتهم وحل بهم كرب شديد[3] ولما عبروا إلى آسيا الصغرى تعرضوا لمتاعب كثيرة بسبب جهلهم بتلك الأماكن؛ لذا سلكوا الأودية على غير هدى، فكانوا يقطعون الفرسخ الواحد فى يومين، فوقعوا فريسة للخطف من جانب التركمان سكان المناطق، كما كان لدخول الشتاء أثره البالغ على سيرهم، حيث تراكمت الثلوج، فاحتاجوا إلى أكل الدواب وأحرقوا عددهم لنقص الحطب عندهم، كما عدموا العلف فأنهكوا وأنهكت دوابهم حتى عجزوا عن حمل عددهم، فاضطروا إلى دفن ما عجزوا عن حمله [4]، ولما قاربوا الوصول إلى سلطنة سلاجقة الروم التى كان على رأسها السلطان قليج أرسلان بن مسعود السلجوقى،

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 240.

(2) النوادر السلطانية ص 126 صلاح الدين والصليبيون ص 240.

(3) الكامل فى التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 241.

(4) مفرج الكروب (2/318) صلاح الدين والصليبيون ص 241.

نهض إليهم ابنه قطب الدين ملكشاه، واشتبك معهم في معركة كبيرة هزموه فيها، فتراجع إلى الوراء إلى مدينة قونية عاصمة السلطنة، فتعقبه الألمان، ودخلوا المدينة وأحرقوا أسواقها، ثم أرسلوا إلى والده أرسلان يقولون له: إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنما نزلنا لنثأر لبيت المقدس[1]، وبعثوا إليه الهدايا وطلبوا منه الهدنة فهادنهم، فبعث هو وابنه إلى صلاح الدين يعتذران من تمكين الألمان في بلدهما ويخبرانه بأنهما غلبوا على ذلك. ومكث الجيش الألماني مدة من الزمن في بلاد قليج وتقووا خلالها بما أرادوا من العدد والأزواد ثم واصلوا سيرهم [2]، وأشار ابن شداد وأبو شامة إلى روابط الصداقة بين السلطان قليج أرسلان والإمبراطور فردريك بربروسا، وأن قليج عندما أرسل إلى صلاح الدين يعتذر عن عبور ملك الألمان في بلاده، إنما قصد بذلك التظاهر أمام صلاح الدين بالشقاق لملك الألمان، وهو في الباطن يضمر له الوفاق وأنه أنفذ معه الأدلاء وأعطاه الرهائن حتى يضمن له العبور بسلام [3]. هذا بينما يذكر ابن الأثير أن أسباباً دفعت الملك قليج أرسلان إلى السماح لملك الألمان بعبور أراضيه، منها حالة الضعف التي كانت تتعرض لها بلاده بسبب المشاكل الداخلية نتيجة تقسيمه ملكه بين أبنائه[4]. يضاف إلى ذلك ما كان يتعرض له قليج أرسلان من ضغط بسبب التحالف بين خصميه صلاح الدين من ناحية والإمبراطور البيزنطي من ناحية أخرى[5]. وعلى كلٍّ فتلك التسهيلات التي منحها قليج للإمبراطور فردريك بربروسا لم تنفع الجيوش الألمانية بشيء إذ تعرضت أثناء عبورها لبلاده لهجمات عديدة. الأمر الذي أغضب ملك الألمان فقبض على الأدلاء والرهائن الذين سيرهم قليج معه وقيدهم بعد أن أخذ ما معهم ووضعهم في الأسر[6].

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 242.

(2) المصدر نفسه ص 242.

(3) النوادر السلطانية ص 123.

(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 242.

(5) الحركة الصليبية (2/847) سعيد عاشور.

(6) مفرج الكروب (2/319) صلاح الدين والصليبيون ص 243.

1- **دخول الألمان بلاد الأرمن**: واصل الألمان سيرهم رغم تلك المتاعب الشديدة التي تعرضوا لها، حتى وصلوا إلى بلاد الأرمن، فرحب بهم أميرها ابن لاون، وقدم لهم ما يحتاجون إليه من المؤن والأزواد والعلوفات وأرشدهم إلى أسهل الطرق[1] وكان أمير أرمينية يأمل في أن يتوج ملكاً على أرمينية الصغرى حتى لا يبدو في مكانة أقل من مكانة الأمراء الصليبيين المقيمين ببلاد الشام من جهة، وليبعد عنه أطماع الإمبراطور البيزنطي من جهة أخرى، ويبدو أن أمير أرمينية قد علق آمالاً كبيرة على كل من البابا والإمبراطور الألماني في تحقيق هدفه هذا [2].

2- **وفاة إمبراطور الألمان**: لم يطل مقام الألمان ببلاد ابن لاون بل واصلوا سيرهم بعد أن هداهم الطريق، ونزلوا بطرسوس [3]، وقد أنهكهم السفر بسبب ما تعرضوا له من متاعب في طريقهم، فأرادوا الإقامة هناك أياماً ليريحوا أنفسهم، إلا أن القدر خبأ لهم خلاف ذلك، فحدث لهم حدث مفاجئ قلب الموازين رأساً على عقب، حيث مات الإمبراطور فردريك بربروسا غريقاً في أحد الأنهار وذلك سنة 586هـ/10يونيه 1190م واختلفت آراء المؤرخين في تعليل أسباب وفاته، فذكر العماد وابن واصل أن الألمان عندما عبروا نهر سالف التطم الموج بهم، فطلب الملك موضعاً يعبر فيه وحده، فدخل في مخاضة قوية فاختطفه تيار الماء واصطدم بشجرة شجت رأسه، فاستخرجوه وهو في آخر رمق وهلك بعد قليل[4]، وأشار ابن شداد وغيره إلى أن فردريك بربروسا نزل على شط أحد الأنهار، واستحم في ماء ذلك النهر، فأصابته برودة ذلك الماء بمرض مات على أثره بعد أيام قلائل[5]. أما ابن الأثير، فقد ذكر أن فردريك دخل النهر يريد الاغتسال فغرق[6] ومهما يكن من أمر، فإن الذي يهمنا هو أن الإمبراطور فردريك بربروسا قد هلك دون أن يحقق

(1) مفرج الكروب (2/319)صلاح الدين والصليبيون ص 243.

(2) صلاح الدين والصليبيون ص 243.

(3) المصدر نفسه ص 243.

(4) مفرج الكروب (2/319) صلاح الدين والصليبيون ص 244.

(5) كتاب الروضتين (2/155) صلاح الدين والصليبيون ص 244.

(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 244.

هدفه في المشاركة في استعادة بيت المقدس من يد صلاح الدين، فضلاً عن أن ذلك الحدث المفاجئ كان له أثر كبير على فشل الحملة الصليبية الثالثة، إذ أن جزءاً كبيراً من الجيش الألماني قد عاد عقب وفاته إلى أوروبا [1]. بالإضافة إلى أن الصليبيين قد فقدوا بوفاته شخصية كبيرة مخلصة للمشروع الصليبي لو أنها وصلت إلى عكا لوجد منها صلاح الدين متاعب كثيرة [2].

3- **تفرق الألمان بعد موت ملكهم:** وبموت الإمبراطور فردريك بربروسا حلت بالألمان كوارث كثيرة، فقد اختلفوا منذ البداية حول من يخلفه في قيادة الحملة الصليبية الألمانية، حيث مال بعضهم إلى تولية ابنه فردريك السوابي، بينما مال بعضهم إلى تولية أخ لفردريك السوابي أكبر منه[3]، وما أن رأى الملك الأرمني ما حل بالألمان من التفكك والضعف بعد موت فردريك بربروساً حتى آثر أن لا يلقى بنفسه بينهم، فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر وهم أفرنج، وهو أرمني فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه المنيعة [4]. وتفرق الألمان بعد موت ملكهم فمنهم من عاد إلى أوروبا، ومنهم من سار مع الأمير فردريك السوابي الذى خلف والده في قيادة الجيش الألماني، وعند مسير بقايا الحملة إلى أنطاكية حل بهم وباء شديد ذهب ضحيته كثير من رجالهم ووصلت البقية الباقية إلى أنطاكية؛ وكأنهم قد نبشوا من القبور على حد قول المؤرخ ابن الأثير [5]. وما أن وصل الألمان إلى أنطاكية حتى تبرم بهم صاحبها بوهيمند الثالث وثقلت وطأته عليهم، وطمع في الاستيلاء على أموالهم وعتادهم، فأشار عليهم بالمسير إلى حلب وحسن لهم طريقها. إلا أن فردريك السوابي لم يستجب لمشورة بوهيمند وإنما طلب منه أن يعطيه قلعة أنطاكية ليودع بها ماله وخزائنه وأثقاله فوافق بوهيمند على ذلك على أمل أن يفوز بما يودع فيها من الأموال والعتاد، وكان الأمر على ما أراد، فإن الألمان لما فارقوا

---

(1) المصدر نفسه ص 244.

(2) التاريخ الحربي المصري ص 239.

(3) تاريخ ابن خلدون (5/322) صلاح الدين والصليبيون ص 244.

(4) النوادر السلطانية ص 124 صلاح الدين والصليبيون ص 244.

(5) كتاب الروضتين (2/156) صلاح الدين والصليبيون ص 245.

أنطاكية لم يعودوا إليها ثانية، ففاز بوهيمند بكل ما أودعوه فيها[1]. وفى الوقت نفسه تعرضت فرقة من الألمان لكارثة أخرى كان لها أثر كبير فى إضعاف نفسياتهم، فقد اتجهت هذه الفرقة الألمانية صوب بغراس وهم يظنون أنها لا تزال فى أيدى إخوانهم الصليبيين، وما أن وصلوا إليها حتى فتحت أبواب القلعة وهجم المسلمون على الألمان فاستولوا على ما معهم من الأموال والأسلحة والعتاد، وقتلوا منهم وأسروا العدد الكثير، كما خرج أيضاً بعض سكان حلب وتفرقوا فى طريق الألمان وأخذوا يتخطفونهم، فأسروا منهم أعداداً وباعوهم فى الأسواق بأثمان زهيدة [2]، كما أن ذلك يدلنا أيضاً على مدى تلك العزلة التامة التى فرضها صلاح الدين على الصليبيين ببلاد الشام، بعد إحكام سيطرته على مدن الساحل، حتى إن الصليبيين في الغرب الأوروبى لم يكن في مقدورهم التمييز بين المدن والقلاع التى استولى عليها صلاح الدين وبين التى لا تزال فى أيدى إخوانهم الصليبيين فى الشرق[3]، وأخيراً قرر فردريك السوابى بعد تلك الكوارث التى حلت بجيشه الاتجاه إلى عك، ففى يوم الأربعاء 25رجب سنة 586هـ/أغسطس 1190م سار على رأس جيشه إلى عكا عن طريق جبلة واللاذقية، وانتهز المسلمون فى اللاذقية فرصة مرور شراذم الألمان، فخرج رجالها عليهم، فقتلوا وأسروا منهم أعداداً كثيرة، ولما وصل الألمان إلى طرابلس أقاموا بها للراحة، فنزل بهم وباء شديد مات على أثره أكثرهم ولم يبق منهم سوى حوالى ألف رجل ركبوا فى البحر يتقدمهم فردريك السوابى قاصدين عكا للانضمام إلى بنى جنسهم هناك لمؤازرتهم فى حصارها، فوصلوا إلى عكا فى 16 رمضان سنة 586هـ/أكتوبر 1190م [4].

4- **موقف صلاح الدين من الحملة الألمانية**: لم يهمل صلاح الدين أمر الحملة الألمانية منذ علمه بمسيرها إليه، فقد استنفر الناس للجهاد، فبعث رسولا فى رمضان من سنة 585هـ/1189م من قبله وهو القاضى بهاء الدين بن شداد إلى

(1) مفرج الكروب (2/322) صلاح الدين والصليبيون ص 245.
(2) مفرج الكروب (2/323) صلاح الدين والصليبيون ص 245.
(3) تاريخ ابن الفرات نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 246.
(4) المصدر نفسه.

الخليفة العباسى فى ذلك الوقت الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء لإعلامه بمسير الألمان إلى بلاد الشام وأمر صلاح الدين القاضى ابن شداد بالمسير فى طريقه إلى أمراء الموصل وسنجار والجزيرة وإربل لاستدعائهم للجهاد، فأجابوا إلى ذلك وتأهبوا للمسير إلى صلاح الدين، كما وعد الخليفة العباسى "بكل جميل" وأمد صلاح الدين بالمال والعتاد[1]، وتابع صلاح الدين فى الوقت نفسه تقدم الألمان إليه عن طريق إرسال العيون (الجواسيس) لكشف أخبارهم، كما أرسل نوابه فى البلاد الشامية عساكرهم لكشف أخبار العدو واعتراض طريقه، فوقعوا على فرقة من جيش الألمان، قد خرجت لطلب العلوفة للدواب فقتلوا وأسروا منهم زهاء خمسمائة نفس [2] ولما تحقق صلاح الدين من وصول الألمان إلى بلاد الأرمن وقربهم من البلاد الإسلامية، جمع أمراء دولته وشاورهم فيما يصنع، فاتفق رأيهم على تسيير عسكر كبير لملاقاة العدو فى طريقه وحماية بعض المدن، فسارت تلك الجموع الإسلامية يتقدمها عدد من أمراء المسلمين، فكبدت العدو الألمانى فى طريقه خسائر جسيمة [3]. كما أمر صلاح الدين بهدم أسوار طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل، وذلك لأنه خشى سيطرة الصليبيين عليها واستخدام تلك الأسوار فى محاربة المسلمين [4]، والحقيقة أن حملة الألمان الصليبية فشلت عندما غرق قائدها الإمبراطور فردريك بربروسا فى أحد أنهار آسيا الصغرى، وتشتتت جموع الألمان فى الشام مما حال دون وصولهم إلى بيت المقدس، وتحقيق هدفهم باسترجاعه من أيدى المسلمين، وأخيراً فإذا كان فردريك بربروسا قد عجل الخروج إلى المشرق على رأس حملته الصليبية، واختار لها الطريق البرى إلى بلاد الشام فإن فيليب أوغسطس فرنس، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا لم يتركا الغرب الأوروبى فى حملة صليبية إلا فى صيف 586هـ/1190م واختارا الذهاب إلى عكا بحراً [5].

---

(1) النوادر السلطانية ص 115 صلاح الدين والصليبيون ص 247.

(2) مفرج الكروب (323/2) صلاح الدين والصليبيون ص 247.

(3) صلاح الدين والصليبيون ص 247.

(4) المصدر نفسه ص 247.

(5) المصدر نفسه ص 248.

ثالثاً: الصليبيون يحاصرون عكا:

كان الفرنج المتجمعون في صور قد وردتهم الكثير من الإمدادات من الرجال والسلاح، وأهم من ذلك وصلتهم الوعود البابوية بأن ملوك أوروبا قادمون لنجدتهم، وهذا ما جعل مقاومتهم أشد ضراوة وعنفاً لصلاح الدين حين عاد إليهم. وفيما كانت أوروبا كلها تضطرب حماسة للهجوم على المشرق واسترجاع القدس كان صلاح الدين يحاول فتح صور، وكان روح المقاومة فيها هو الكونت كونراد دى منتفرات الطامع بعرش المملكة، ولهذا لم يقبل أن يسمح لجاى لوزينان ملك القدس حين أطلقه صلاح الدين من الأسر أن يدخل المدينة، فبقى ستة أشهر في نواحي طرابلس بمعسكر بعيد عنها يجمع بعض القوى حوله ليقف بوجه الزعيم الجديد مونتفرات، ثم اصطلح الاثنان على الاشتراك في قتال صلاح الدين وترك مسألة القرار بالعرش للبابوية وملوك أوروبا القادمين. وهكذا قرروا الخروج من صور التى ضاقت بهم لحصار عكا وكان صلاح الدين قد عهد بإعادة تحصين عكا وتزويدها بالسلاح والمؤن إلى خادمه بهاء الدين قراقوش، الذى جعلها مع قلعتها وسورها تحفة معمارية منيعة، وجلب - بأمر صلاح الدين - المقاتلة إليها، والأسطول من مصر إلى مينائها. وقد خرج الفرنج في رجب سنة 585هـ/ أغسطس سنة 1189م وسارت مراكبهم معهم بحذائهم في البحر، ولم يؤخذ صلاح الدين على غرة بمقصدهم إلى عكا، فقد كان اليزك (الطلائع والحرس) التى تركها عند صور قد نبهت حامية عكا لتكون على استعداد، ونزل الفرنج على عكا من البر والبحر يحاصرونها بأعداد كبير في رجب سنة 585هـ/أغسطس 1189م، وكان رأى صلاح الدين مقاتلة الفرنجة أثناء تحركهم نحو عكا، لأنهم إن وصلوا إليها لصقوا بأرضها، ولكن قواده لم يرضوا قتالهم إلا إذا وصلوا إلى عكا بحجة أن الطريق التى سلكها الفرنجة وعرة وضيقة ولا يسهل قتالهم فيها، للإجهاز عليهم دفعة واحدة، ورغم ذلك رتب صلاح الدين للفرنجة كمائن على شكل عصابات من البدو تتخطفهم أثناء سيرهم، لكنهم تابعوا المسير حتى عسكروا أمامها من البر والبحر وانقطع اتصال الجيش الإسلامي بها وكان صلاح الدين قد كتب يستدعى عسكره

المتفرق أمام أنطاكية وطرابلس وصور وعلى سواحل مصر فى الإسكندرية ودمياط مع أخيه العادل فجاءه منهم الأعداد الغفيرة ثم جاء جند الشام والجزيرة وطوّق بهذا الجند الطوق الفرنجى لعكا؛ فكان الفرنج بين حامية المدينة وبين الجند الصلاحى [1]. يقول العماد: وتبين لنا بالعاقبة أن الرأى السلطانى كان أصوب فإنَّ نزالهم عند نزولهم صار أصعب، وقد نزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر. وقامت المعارك سجالاً مع الفرنج كل يوم، وقد كانت تحتدم فى بعض الأيام احتداماً كبيراً. ومن أهم المعارك تلك التى أراد المسلمون فيها إدخال المدد من الرجال والعتاد إلى عكا، فحملوا على الفرنج حتى أزاحوهم عن الأسوار وأدخلوا بعض الأمراء وأعداد كبيرة من الجيوش القادمة من مصر إليها تشد أزرها، وبالمقابل قام الفرنجة قبل وصول بقية الإمداد من مصر بهجمة على المسلمين هزموهم فى أولها حتى وصلوا إلى خيام الملك العادل وإلى خيمة صلاح الدين وقتلوا من حولها، ولكن السلطان صاح فى عسكره: يا للإسلام، وكرّ معهم على الفرنج الذين هُزموا وتناولتهم حامية عكا بالسهام من خلفهم فتشتتوا متراجعين. ويؤكد العماد الأصفهانى أن قتلاهم فى تلك الوقعة كانوا بالألوف، وقد عُرفت هذه الوقعة بالوقعة الكبرى[2].

1- العلماء الذين شهدوا الوقعة: كان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى يتولى مقدمة القلب فى جيش صلاح الدين[3]، كما كان القاضى بهاء الدين بن شداد والفقيه العماد الأصفهانى مشاركين أيضاً فى هذه المعركة، وقاما بوصفها وصفاً دقيقاً كشاهدى عيان لها[4]، دون أن يوضحا دورهما فى المعركة، وكان النصر حليف المسلمين فى نهاية هذه المعركة وتكبد الصليبيون خسائر فادحة فى الأرواح قدرت بعشرة آلاف قتيل[5] وقد استشهد فى هذه المعركة، الفقيه ظهير

---

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 285.

(2) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 286.

(3) مفرج الكروب (2/296).

(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى ص 163 .

(5) البداية والنهاية نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 163 .

الدين الهكارى أخو الفقيه عيسى الهكارى، وكان والياً على بيت المقدس، وقد جمع بين الشجاعة والعلم والدين[1]، وعندما علم الفقيه عيسى الهكارى بنبأ استشهاده أنكر عزاء الناس له قائلاً: هذا يوم الهناء، لا يوم العزاء [2]، كما استشهد أيضاً فى هذه المعركة الفقيه أبو على بن رواحة، عند خيمة صلاح الدين مع جماعة، ويبدو أنه كان ممن يدافعون عن خيمة صلاح الدين حينما اندفع جماعة من الصليبيون إلى الخيمة يريدون الفتك بالسلطان[3] وكان ضمن القضاة الذين شاركوا فى القتال ضد الصليبيين المحاصرين لعكا فى سنة 586هـ/1192م القاضى المرتضى بن قريش، فكانت له مواقف عديدة فى مشاركة المسلمين محاولاتهم فى فك الحصار الذى ضربه الصليبيون على عكا، ولكنه اسشتهد فى يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة 586هـ/1190م [4].

2- **الأثر المعنوى للعلماء على المقاتلين:** لم يكن دور الفقهاء أثناء حصار الصليبيين لعكا فى الحملة الصليبية الثالثة يقتصر على حمل السلاح ومقاتلة الصليبيين لدفعهم عن عكا، وإنما كانوا يطوفون داخل المعسكر الإسلامى بين الجند يبثون الشجاعة فى نفوسهم، فالقراء يقرأون القرآن ويحذرون الجند من الفرار ويذكرونهم بما أعده الله تعالى للشهداء فى الجنة من جزاء عظيم ويستشهدون فى ذلك بآيات الله الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، ليرفعوا من روحهم المعنوية ويزيدون من تصميمهم ومصابرتهم فى الجهاد، وذلك شأن كل المعارك والفتوح التى كان صلاح الدين يخوضها، وكان للقاضى بهاء الدين بن شداد دور عظيم فى هذا الشأن، فعندما بلغت صلاح الدين الأخبار بخروج الإمبراطور الألمانى فردريك بربروسا بجيوشه إلى بلاد الشرق لنجدة الصليبيين بالشام، واشتد ذلك عليه ورأى حث الناس للجهاد وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة[5] فعهد إلى القاضى بهاء

(1) دور الفقهاء والعلماء ص 164.

(2) المصدر نفسه ص 164.

(3) المصدر نفسه ص 164 النوادر السلطانية ص 164.

(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى ص 167.

(5) كتاب الروضتين (2/150، 151).

الدين بن شداد بالمسير للخليفة العباسى الإمام الناصر أبو العباس أحمد، وإلى كافة الأمراء الحكام حتى يقوم الخليفة بدوره فى حث وتحريض المسلمين فى مختلف الأقطار والبلاد للنفير للجهاد ومساعدة المسلمين بالشام، ويقول ابن شداد: فاستدعانى لذلك وأمرنى بالمسير إلى صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب إربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرنى بالمسير إلى بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة. وكان مسيرى فى ذلك المعنى فى الحادى عشر من رمضان، ويسر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم، فأجابوا بنفوسهم...، بكل جميل، وعدت إلى خدمته، رحمه الله، وكان وصولى يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين، وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير، فسر بذلك وفرح فرحاً شديداً [1] ونلاحظ قدرة صلاح الدين على متابعة حركة الأعداء والحصول على المعلومات الدقيقة عنهم فأسعفهم الوقت للإعداد والتجهيز والاستنفار العام. ولعلنا نستنتج مما ذكره ابن شداد أهمية وخطورة المهمة التى كلف بها إلى بغداد، خاصة فى تلك الظروف العصيبة والصليبيون يهددون عكا تهديداً شديداً وتكاد أن تقع فى أيديهم؛ لذلك عرض صلاح الدين على الخليفة الحضور بشخصه لتحميس المسلمين، على أن يتنازل له عن جميع بلاده[2] ولكن الخليفة لم يكن متحمساً للانتقال من قصوره ليعيش فى ميادين القتال فلم يرد على دعوة صلاح الدين واكتفى بأن أرسل إليه عدة أحمال من النفط وتوقيع بمال له عند بعض التجار، مما جعل صلاح الدين يستاء من تصرفه [3]، وكان من المفروض على الخليفة أن يقود الصراع مع الصليبيين رغبة فى الجهاد بنفسه وماله فى سبيل الله، ومحاولة منه لإعادة دور منصب الخلافة فى واقع الأمة، مما يترتب عليه من أثر معنوى على المجاهدين كما أنه حافز كبير لكل

(1) النوادر السلطانية ص 98 ـ 99 دور الفقهاء ص 168.

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 168.

(3) المصدر نفسه ص 168.

المسلمين للمشاركة في الحملة ضد الغزو الصليبي الكبير ومما يسجل لصلاح الدين عظمة نفسه المترفعة عن الدنيا والمطامع حيث عرض على الخليفة التنازل عن كل البلاد التي يملكها.

3- **صلاح الدين يعقد مجلس شورى:** دعا السلطان صلاح الدين بعد انتهاء المعركة لعقد مجلس الشورى، حضره أرباب المشورة والأمراء، أمثال القاضي ابن شداد، والعماد الأصفهاني الكاتب، وذلك للبث في أمر عكا وقام صلاح الدين بإلقاء خطبة عليهم، قال فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا وقد وطئ الإسلام وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا المجتمع اليسير ولابد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر، جاءه مدد عظيم، والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم. فلينجزنا كل منكم ما عنده في ذلك [1] وبعد مشاورات ومناقشات كثيرة انقسم أعضاء المجلس إلى فريقين فقد أيد الفريق الأول السلطان في استمرار القتال قبل أن يجمع العدو شمله ويسعفه البحر بالإمداد، بينما ناد المعارضون باتجاه العسكر إلى الخروبة[2] حتى يستجم قائلين: وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوماً، وما طعمنا في هذه الليالي نوماً، ولا سمعنا لطارق طيف غمضاً، وقد كلت الضوامر وفلت البواتر وملت العساكر، وهذا الشتاء قد أقبل، والعدو قد استقتل، وهؤلاء لا يتمكن منهم إلا بالجمع الجم، والسيل لا يغلبه غير الخضم،س والصواب أن نصابرهم هذه الشتوة، ونستجد لنا ولخيلنا القوة ونتأخر عن هذه المنزلة، لتحصيل هذه المصلحة المؤملة... والصواب الأخذ بالاحتياط وتقديم الكتب والرسل إلى الأطراف والأوساط، ومكاتبة دار الإسلام بالشام، فإن المسلمين لاشك ينجدون،

---

(1) مفرج الكروب (2/304) دور الفقهاء والعلماء ص 165.

(2) حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا معجم البلدان (2/262).

ويقومون بالنصرة ولا يقعدون، فحينئذ ينتهى أمد المصابرة، ونصمم على المكابرة مع المكاثرة، ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر، ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر، وننسفهم ولو أنهم جبال[1] وتغلب رأى المعارضين، واضطر صلاح الدين أن ينزل عند رأيهم وانتقل العسكر إلى الخروبة فى رابع شهر رمضان 585هـ/1189م، وهناك أصيب الفقيه عيسى الهكارى بمرض أدى إلى وفاته وهو فى ركاب صلاح الدين مستعداً كعادته لتلبية نداء الجهاد فى سبيل الله [2] وقد جاء رحيل السلطان وعساكره عن عكا فرصة كبيرة للصليبيين انتهزوها وأحكموا حصارهم حول عكا، وحصنوا أنفسهم، واتخذوا كل الاحتياطات اللازمة لحماية أنفسهم من صلاح الدين[3]، وقد نتج عن هذا ضياع عكا فى النهاية بعد حصار دام عامين كاملين فى سابع عشر جمادى الآخرة سنة 587هـ/12يوليو 1191م [4].

4- **طلب العون من ملك المغرب (الموحدين)** : أبو يعقوب المنصور بن عبد المؤمن الموحدى ولكن هذا السلطان كان غاضباً من صلاح الدين، لأن أحد مماليك ابن أخيه واسمه قراقوش التقوى هاجم برقة وطرابلس الغرب ثم تونس وكان تقى الدين عمر مولاه يأمل فى إقامة ملك له هناك، وفشل المشروع[5]، فقد أرسل صلاح الدين إلى ملك المغرب هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة[6] وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً جاء فيه: الحمد لله الذى استعمل على الملة الحنفية من استعمر الأرض وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجرى على يده النافلة والفرض وزين سماء الذرارى التى بعضها من بعض" وكان عنوان الكتاب:

---

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الادنى ص 165 .

(2) المصدر نفسه ص 166 .

(3) المصدر نفسه ص 166 .

(4) المصدر نفسه ص 166 .

(5) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الفارس ص 287 .

(6) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن (216/4).

من صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب، ويذكر السلاوى أن أبا يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين وأنه أسرها فى نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً، وقد قيل إن المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة وحال دون وصولها استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلل ابن خلدون[1]، بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق فى إنشاء الأساطيل الجهادية[2] على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن المنصور الموحدى لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارى فى الأندلس [3]، كما أن للموحدين تصريحات تدل على رغبتهم فى الرحلة إلى المشرق وضمه لدولتهم. وقد أشار الذهبى عن رغبة السلطان المنصور برغبته من قصد مصر [4] وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس بن عبد السلام الجراوى فى بعض أشعاره كقوله فى مدح الخليفة الموحدى يعقوب بن منصور:

إن الخلافة نالت من محاسنكم ... أوفى الحظوظ فأبدت منظراً عجبا
أعلى المراتب من بعد النبوة قد ... حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا
سينظم السعد مصراً في ممالكه ... حتى يدوخ منها خيله حلباً
إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى ... أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا
هو الذى كانت الدنيا تؤمله ... وكل عصر له ما زال مرتقبا [5]

(1) تاريخ ابن خلدون (490/6).
(2) تاريخ الإسلام (216/4) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامى (518/2).
(3) المصدر نفسه (519/2).
(4) المصدر نفسه (519/2).
(5) دراسات فى تاريخ المغرب ص 115.

لقد كان الموحدون يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي وأن أولى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية، لقد صرح السلطان الموحدي برغبته في غزو البلاد المصرية، وذكر ما فيها من المناكر والبدع وقال: نحن إن شاء الله مطهروها ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمه الله[1] إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله ولا شك أن أمراء الدولة النورية والأيوبية يعلمون بهذا ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم، فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها، وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول لإمارات المشرق في وجه الأطماع الموحدية. وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها [2] لقد تحركت الحملات الأيوبية نحو المغرب واتخذت الطريق الصحراوي، لقصره أولاً ثم لقلة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئاً بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم[3].

ولقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، وخارجي متربص. ولقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ في إكرامه، ولما مدحه سفير صلاح الدين شمس الدين بن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتا أعطاه بكل بيت ألفاً [4]: ومن القصيدة:

(1) دراسات في تاريخ المغرب ص 115.
(2) سقوط دولة الموحدين ص 198.
(3) المصدر نفسه ص 198.
(4) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي (2/520).

سأشكر بحراً ذا عُباب قطعته إلى بحر جُود ما لنعماه ساحل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الهدى إلى من سمت بالذّكر منه الأوائل
إليك أمير المسلمين ولم تزل إلى بابك المأمول تُزجى الرّواحل
قطعت إليك البَرَّ والبحر موقناً بأنَّ نَدَاك الغَمْرَ بالنّجح كافل
فما راعنى من وجبة البَرِّ رائعٌ ولا هالنى من زاخر البحر هائل
ومن كان غايات المعالى طِلابَهُ يهون عليه كلُّ أمرٍ يحاول
رجوتُ بقصديك العُلا فبلغتها وأدنى عطاياك العُلا والفضائل
فلا زِلت للعلياء والجود ثانياً تُبلّغُك الأيَّامُ ما أنت آملُ[1]

إن صلاح الدين الأيوبى لم يعترف بخلافة السلطان الموحدى ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين فى الخطاب الذى أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ، وهذه مسألة لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة فى العلن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة وهذا ما بينه القاضى الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال: . . . بأن الخطاب يكفى وطريق جحدنا له ممكن والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين فى مكان الإجماع مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالى منحطين عن العالى شاقين عصا المسلمين، مغرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحلُّ طاعته، متقلدين لمن لا تصح ولايته [2].

ولو التقى صلاح الدين مع السلطان الموحدى فى غرفة مباحثات مغلقة لوصلوا إلى أمور تنفع الأمة كلها نظراً لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة، ولكن الله غالب على أمره.

(1) كتاب الروضتين (4/206).
(2) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامى (2/521).

ومهما يكن من شيء فإن هذا الخلاف السياسي والعقدى الذى وقع بين صلاح الدين وملك الموحدين لم يحل دون تعاون شعوبهما فى السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان، فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة، قد ساهموا فى الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة واستشهد منهم عدد كبير دفن فى فلسطين[1]. إن صلاح الدين سعى للاستفادة من الموحدين ضد الحملة الصليبية الثالثة، وهذا يدل على مرونته السياسية الكبيرة، فقد أدى ما عليه، أما سلطان الموحدين فكان يمكنه أن يتجاوز الخلافات المنهجية ويساهم مع صلاح الدين فى الدفاع عن الأمة الإسلامية إلا أنه فشل فى هذا الاختبار.

5- **دور القاضى الفاضل أثناء حصار الصليبيين لعكا**: كان للقاضى الفاضل دور بالغ الأهمية أثناء حصار الصليبيين لعكا وكان متواجداً بمصر آنذاك يدبر شؤونها نيابة عن صلاح الدين، وكان من خلال موقعه هذا يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل الميرة إلى عكا، والسلطان يكاتبه فى مهماته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته مشيراً وناصحاً ومسلياً وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصيا [2]. وكانت مكاتباته تتواصل إلى صلاح الدين أثناء حصار الفرنج لعكا بصفة مستمرة، مليئة بالعبارات الصادقة بكل مشاعر الحب والإخلاص للتخفيف عنه من صعوبة هذا الحصار ومشاركته أحزانه وآماله، فكان يشجعه فيها ويحثه على الصبر ويقوى من عزيمته لمواصلة الجهاد وعدم اليأس، وعدم القنوط من رحمة الله وكرمه، ويدعوه للتمسك بالأمل فى نصر الله، وكانت هذه العلاقة مبنية على الأخوة فى الله ووحدة الهدف، وليست قائمة على تابع ومتبوع وسيد وخادم، فجاء فى إحدى هذه الرسائل: ولا يكره المولى أن تطول مدة الابتلاء بهذا العدو فثوابه يطول، وحسناته تزيد، وأثره فى الإسلام يبقى، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها، والعاقبة للتقوى، ولينصرن الله من ينصره، والله تعالى

(1) المصدر نفسه (2/521).

(2) كتاب الروضتين (2/165) دور الفقهاء والعلماء ص 169.

يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه، بولده وبخاصته وبعامة جنده[1]. وكان من ضمن الرسائل الأخرى التى كان يرسلها القاضى الفاضل إلى صلاح الدين تلك التى أوضح فيها اعتذاره عن تأخر وصول الأسطول المصرى إلى الشام بالإمدادات التى طلبها صلاح الدين من مصر، موضحاً أن ذلك مرجعه اشتداد الرياح المعاكسة وليس تقصيراً منه[2]. ومما لا شك فيه أن هذه الرسالة تعتبر تأكيداً للدور الذى كان يقوم به فى مصر هذا القاضى الأجل وغيره من الفقهاء والعلماء لمساعدة صلاح الدين وتأمين مستلزمات وتموين الجند المحارب معه بعكا [3] وجدير بالذكر أن القاضى كان يحاول بكل الطرق والوسائل الممكنة أن يساعد صلاح الدين والمسلمين أثناء هذا الحصار، فأرسل إلى الخليفة العباسى ببغداد كتاباً يستحثه فيه بأقوى العبارات وأوقعها على النفس والقلب، مهيباً به أن يقف بجانب صلاح الدين والمسلمين فى هذا الموقف الصعب، نصرة لدين الله ولرسوله ﷺ وإعلاء لشأن المسلمين، ولعل أقوى العبارات التى أوردها فى هذا الكتاب قوله مناشداً الخليفة: فيا عصبة محمد عليه السلام، أخلفه فى أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا، فإنا والمسلمون عندك ودائعه، وما مثل الخادم نفسه فى هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لوقف بالعتبات ضارعاً وقبل ترابها خاشعاً وناجاها بالقول صادعاً ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الإسلام بل مسيحه بالداء الذى خامر، ولو أمن عدو الإسلام أن يقول قولاً آخر لسافر، ولولا أن فى التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح لقال ما يبكى العيون وينكى القلوب ولكنه صابر محتسب منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب[4] وعلى ذلك تجاوز القاضى الفاضل بالسلطان صلاح الدين تلك المحنة القاسية، التى مرت بها عكا، وكان وحده بمثابة جيش ثانٍ يحارب جانبا إلى جنب مع صلاح الدين [5] ومما جاء فى

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى ص 169.

(2) المصدر نفسه ص 169.

(3) المصدر نفسه ص 169.

(4) دور العلماء والفقهاء المسلمين فى الشرق الأدنى ص 170.

(5) المصدر نفسه ص 170.

رسائل القاضى الفاضل لصلاح الدين من النصح والإرشاد قوله:.. وهذا دين ما غلب بكثرة ولا نُصر بثروة، وإنما اختار الله تعالى له أرباب نيَّات، وذوى قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخَلف لذلك السلف ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... (٢١)﴾ (الأحزاب) واشتدى أزمة تنفرجى والغَمرات تذهب ثم لا تجىء، والله تعالى يُسمعُ الأُذُن ما يُسرُّ القلب، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ما ابتلى إلا بذنب[1] وجاء فى كتاب آخر له: إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صَدَقناه لعجَّل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نَقْدرُ عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحدٌ إلا عمله، ولا يَلُم إلا نفسه، ولا يَرجُ إلا ربَّه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر ولا فلان الذى يعتقد عليه أن يُقاتل، ولا فلان الذى ينتظر أنه يُشير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النَّصر إلا بها ولا نأمن أن يكلنا الله إليها والنَّصر به، واللُّطف منه، والعادة الجميلة له ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا، فلولا أنها تسدُّ طريقَ دُعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل وفيض دموع الخاشعين قد غسل ولكن فى الطريق عائق، خار الله لمولانا فى القضاء السابق واللاحق[2] ومن كتاب آخر: وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خوراً إنما يشكو منه ضجراً والقوى البشرية لابد أن يكون لها حدٌّ والأقدارُ الإلهية لها قصد، وكلُّ ذى قصد خادم قصدها، وواقف عند حَدِّها وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مَقْتَ المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله قال الله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ ... (١٥٩)﴾ (آل عمران) يا مولانا، أليس الله تعالى اطلّع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل، ولم يستصلح، ولم يختر، ولم يسهل ولم يستعمل ولم يستخدم فى إقامة دينه، وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه، وحماية شعاره، وحفظ قبلة موحِّديه إلا أنت ؟ هذا وفى الأرض من هو أحق للنُّبوة قَرابه، ومن له المملكة وراثة، ومن له فى المال كثرة، ومن له فى العدد

(1) كتاب الروضتين (4/179).
(2) المصدر نفسه (4/181).

ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكَسَّلهم ونشَّطك، وقبضهم وبسطك، وحَبَّبَ الدنيا إليهم، وبَغَّضها إليك وصعَّبها عليهم وَهوَّنها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وَجرَّد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبَّطهم وسيَّرك ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾ (التوبة). نعم، وأخرى أهمٌّ من الأولى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ومغرب الشمس ومزخر البحر، ما تأخرَّ منهم متأخِّر ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستعبد وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة، لا أموال تُنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم مهطعين[1] إلى الدّاعي، ساعين، وهم من كل حَدَب يَنسلُون: ومن كل بَرٍّ وبحر يقبلون – أبقاك الله – كما قيل:

ولست بَملْك هازم لنظيره ولكنك الإسلامُ للشّرك هازم

هذا وليس لك من المسلمين كافَّة مساعد إلا بدعوة ولا مجاهد معك بلسانه، ولا خارج معك إلا بهم، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة تشترى منهم الخطوات شبراً بذراع، وذراعاً بباع، فدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة تكلِّفهم النَّافلة، وتعرض عليهم الجنَّة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم[2] وقال في كتاب آخر: .. ولنا ذنوب قد سَدَّت طريق دُعائنا فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا، ولله قَدَرٌ لا سلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لا حول ولا قُوَّة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ...(٦٤)﴾ (الأنعام) وقد جمع العدوُّ لنا وقيل لنا: اخشوه، فقلنا: حسبنا الله ونعم الوكيل، متنجِّزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس إلا الاستعانة بالله، فما دلنا الله في الشدائد

---

(1) كتاب الروضتين (182/4).

(2) المصدر نفسه (182/4).

إلا على الدُّعاء له وعلى طروق باب كَرَمه وعلى التضرع إليه، ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴿٤٣﴾ ﴾ (الأنعام). ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرّحمة، ومن اليأس من الفَرَج فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرُّشد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه ولا حيلة إلا بترك الحيلة، بل قَصدُ من تمضى أقداره بلا حيلة سبحانه وتعالى، إن علم الله من جند مولانا أنَّهم قد بذلوا المجهود فقد عَذَرهم، فيعذرهم المولى، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة أو قصَّروا فى نُصرة كلمة الله فيكفيهم مقت الله [1] والمملوك يذكِّرُ المولى بصبره، وبرحب صدره وبفضل خُلُقه وبتقواه لربه، وبمداراة مزَاجه وببرء القلوب الإسلامية ببرء جسمه ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ الآية إلى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأنعام) والمولى أولى بهذا البيت:

لا بَطِرٌ إن تتابعت نِعمٌ ... وصابرٌ فى البلاءِ مُحْتَسِبٌ

قيل للمهلب: أيسرُّك ظفرٌ ليس فيه تعب؟ فقال: أكره عادة العجز ولا بُدَّ أن تنفذ مشيئة الله فى خَلْقه، ولا رادَّ لحكمه فلا يتسخَّط مولانا بشىء من قَدره؛ فلأن يجرى القضاء وهو راض مأجور خيرٌ من أن يجرى وهو ساخط موزور، فيعطى نار الشدّة - أعاذه الله منها - ولا يجد راحة الثّواب، وفَّر الله حظه منه.من شكا بَثَّه وحزنه إلى الله شكا إلى مُشتكى واستغاث بقادر، ومن دعا ربَّه دُعاء خفيًا استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفيَّة عَنَّا ولا يقطع الظهور التى لا تشتد إلا به ولا يضيق صدوراً لا تنفرج إلا منه، وما شرّد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلا ضائقة القوت بعكا... فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يدبر الدّهر إلا بربِّ الدهر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر، وأنَّه لا يقل الهم إن كَثُرَ الفكر:

(1) كتاب الروضتين (4/186).

قـــد قلت للرجل المُقَـــسَّم أمـــره فـــوِّض إليـــه تنم قـــرير العـــين[1]

كل مقترح يُجاب إليه إلا ثغراً يصير نصرانياً بعد أن أسلم أو بلد يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم. يا مولانا هذه الليالى التى رابطت فيها والناس كارهون، وسَهِرْت فيها والعيون هاجعة وهذه الأيام التى يُنادى فيها: يا خيل الله اركبى، وهذه الساعات التى تزرع الشَّيب فى الرؤوس، وهذه الغمراتُ التى تفيض فيها الصدور بمائها بل بنارها، هى نعمة الله عليك وغراسُك فى الجنة، ومجملات محضرك، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ...(٣٠)﴾ (آل عمران)، وهى مُجَوِّزاتك الصراط، وهى مثقلات الميزان، وهى درجات الرضوان[2]، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قوله: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما بليتُ أيهما ركبتُ. وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع بالغُبار وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، ما استعمل الله فى القيام بالحقِّ إلا خير الخلق، وقد عرف ما جرى فى سير الأوّلين وفى أنباء النَّبيين، وأن الله تعالى حَرَّض نبيه ﷺ أن يهتدى بُهداهم، وأن يسلك سبيلهم ويقتدى بأولى العزم منهم، وَما تغلو الجنَّة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً وكأنَّ ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر وإنما يقظاتُ العينِ كالحُلُم أهم الوصايا أن لا يحمل المولى هما يُضعفُ به جسْمَه ويُغيِّر مزاجه والأمة بنيان وهو – أبقاه الله – قاعدته والله يثبِّتُ تلك القاعدة فى نصرة الحق. ومما يستحسن من وصايا الفرس، إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ما ليس فيه حيلة – والعياذ بالله – فلا تجزع. ورُبَّ واقع فى أمر لو اشتغل عن حمل الهمّ به بالتدبير مع مقدور الله لانصرف همُّه وكُفى خطبه

(1) كتاب الروضتين (4/187).

(2) المصدر نفسه (4/187).

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ (الإنسان). هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره ولا تعويلاً على قوة إلا على قوّته، فهنالك الفرج ميعاده واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يقل "متى نصر الله" وليصبر فإنما خلق للصَّبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلى أنت المعافى، وليرضَ عن الله سبحانه، فإنّ الرَّضِيَّ عند الله هو المسلم الرّاضى فأما أخبار فتنة بلاد العجم فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (الأنعام).

وكتب السلطان إلى القاضى الفاضل كتاباً من بلاد الفرنج يخبره عمّا لاح له من أمارات النَّصر ويقول: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها، فكتب إليه الفاضل: فأما قول مولانا إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه مُحيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عُفى عنها بهذه الساعات وعُفِّيتَ، فيكفى مستغفراً ليسانُ السَّيف الأحمر فى الجهاد ويكفى قارعاً لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، وبعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سَعَتْ فى مِنْهاجك، وطوبى لوجه تَلَثَّم عَجَاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقُتلَت، وأن الخواطر بُشكر الله فيك عن شُكرها لك قد شغلَتْ[1] وهذا هو القاضى الفاضل العالم الربانى، صاحب البيان البديع، والفهم العميق لسنن الله فى تحقيق النصر. ولا نستغرب بعد هذه المكاتبات من قول صلاح الدين ما فتحت بلداً بسيفى ولكن بقلم القاضى الفاضل. إن وجود نوعية القاضى الفاضل بجوار القيادات السياسية والعسكرية له أثره المعنوى، فبها يفتح الله أبواب الأمل للقيادات وتحرص على الثواب فيما عند الله وتكون سبباً فى صبرها وثباتها.

(1) كتاب الروضتين (4/190).

6- **جهود صلاح الدين في فك الحصار عن عكا:** استنفر صلاح الدين المسلمين وأمراءهم للجهاد في سبيل الله، ووقف – رحمه الله – بجموع المسلمين يكرون على الأعداء، والحرب بينه وبين الصليبيين سجال، كلما دمَّر لهم كتيبة استبدلوا بها كتائب، وأوروبا هناك تقف وراء جيوشها تدعمها وتمدها بالمال والسفن والرجال في كل حين، والحقد على المسلمين يملأ قلبها، ولما اشتد الحصار على عكا أصبح هم صلاح الدين الكبير أن يمدّ المحاصرين بالمال والنفط والرجال؛ لأن إمدادات الصليبيين تصل إليهم بسهولة وإمدادات المسلمين المحاصرين لا تصل إلا بصعوبة شديدة ،فلم تبق حيلة أو خدعة حربية يفكر بها القادة، إلا وقد استخدمها صلاح الدين الأيوبي[1] ومن هذه الحيل:

أ- **اختراق الحصار البحري على عكا:** كان صلاح الدين رحمه الله قد أعدّ ببيروت بطسة وعمَّرها، وأودعها أربع مئة غِراره من القمح ووضع فيها من الجُبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا، حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين، وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب في بطسة ببيروت جماعة من المسلمين، وتزيُّوا بزي الفرنج، حتى حلقوا لحاهم، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث تُرى من بُعد، وعَلَّقوا الصُّلبان، وجاؤوا قاصدي البلد من البُعد حتى خالطوا مراكب العدو، فخرجوا إليهم، واعترضوهم من الحَرَّاقات والشَّواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم فقالوا: أولَم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا: لا لم نأخذ البلد بعد. فقالوا: نحن نردُّ القلوع إلى العسكر، ووراءنا بطسة أخرى في هوائها فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها، فاشتدَّت البطسة الإسلامية في السَّير، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد وكان فرجاً عظيماً، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد[2].

(1) كتاب الروضتين (4/154).

(2) المصدر نفسه (4/154).

وفى العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قَرَاقُوش وهو والى البلد، والمقدّم على الأسطول، وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر ما يكفى البلد إلى ليلة النّصف من شعبان لا غير، فأسَرَّها يوسف فى نفسه ولم يبُدْها لخاص ولا عام، خشية الشُّيوع والبلوغ إلى العدو، وتضعف به قلوب المسلمين، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والإدام والمير، وجميع ما يحتاج إليه فى الحصار، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولَجَّجَت فى البحر تتوَّخى النوتية بها الريح التى تحملها إلى عكا، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان وقد فنيت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس فى ذلك اليوم وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من السَّاحل والناس فى تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى فى القضاء بسلامتها إلى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثَّكلى يشاهد القتال، ويدعو ربَّه بنصره وقد علم من شِدَّة القوم ما لم يعلمه غيره، وفى قلبه ما فى قلبه والله يثبته، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح تشتد، والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحُجب، حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى ميناء البلد وتلقّاهم أهل عكا تلقى الأمطار عن جَدْب[1].

ب- **عيسى العوام يخترق الحصار**: ومن نوادر القتال على عكَّا، أن عوّاما مسلماً كان يُقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكُتُب والنَّفقات على وسطه ليلاً على غِرَّة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، وكان ذاتَ ليلةٍ شَدَّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكُتبٌ للعسكر، وعام فى البحر فجرى عليه أمرٌ أهلكه، وأبطأ خبره - عن المسلمين - وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائر عرف المسلمون بوصوله فأبطأ الطائر، فاستشعر هلاكه،

---

(1) كتاب الروضتين (4/154، 155).

فلما كان بعد أيام بينما النَّاس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً فافتقدوه، فوجدوه عيسى العوَّام، ووجدوا على وسطه الذهب ومُشمَّع الكُتب وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رُئى من أدَّى الأمانة فى حال حياته وقدّر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل[1].

قال العماد: فَعُدِمَ – يعنى عيسى – ولم يُسمع له خبر، ولم يظهر له أثر، فظنَّت به الظُّنون، وما تيقنت المنون، وكانت له لا شك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حاله وهى مجملة محتملة فوجد فى عكا ميتاً قد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مما قالوا، فذهب حق اليقين من الظُّنون بباطلها [2].

ج- **استهداف المسلمين آلات الحصار وأدوات الدفاع**: اشتد طمع الصليبيين على عكا ونصبوا المنجنيقات من كل جانب، وتناوبوا على رمى البلد بها ليلاً ونهاراً، ولما رأى من بداخل عكا من المسلمين ما تلحقه تلك المنجنيقات بهم من الضرر، حركتهم النخوة الإسلامية، وعزموا على فتح أبواب المدينة ومهاجمة الصليبيين خارجها ففعلوا ذلك وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب وهاجم المسلمون الصليبيين فى خيامهم، فاشتغلوا بحماية خيامهم وتركوا المنجنيقات، فصوبت إليها شهب الزراقين واشتعلت فيها النيران وأحرقت عن آخرها [3].

د- **محاصرة الصليبيين لبرج الذبان**: وفى شعبان من نفس السنة 586هـ حاصر الصليبيون برج الذبان الذى وصفه ابن شداد بأنه برج فى وسط البحر مبنى على الصخر على باب ميناء عكا لحراسة الميناء لأن المركب متى عبره أمن غائلة العدو، كما أن الاستيلاء عليها يجعل الميناء تحت سيطرتهم فيمنعون السفن المحملة بالميرة من الوصول إلى البلد، وأحضر الصليبيون سفناً جعلوا على صواريها برجاً عالياً ملأوه بالحطب والنفط، على أن يسيروها، وقتل من عليه من الجنود، وعبوا

(1) كتاب الروضتين (4/160).
(2) المصدر نفسه (4/161).
(3) النوادر السلطانية ص 134.

سفينة ثانية ملأوها حطباً ووقوداً على أن يدفعوها إلى أن تدخل بين سفن المسلمين، ثم يشعلوا النيران منها إلى سفن المسلمين فتحرقها مع ما فيها من المير، كما شحنوا سفينة ثالثة بالجنود، وجعلوا عليها حاجزاً على هيئة قبو يمنع عنهم سهام المسلمين، فإذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا ذلك القبو، وبالرغم من أن تجاه الرياح كان بادئ الأمر يسير على ما يريدون، فإن قدرة الله شاءت بعد أن أشعلوا النار فى البرج الذى أقاموه على صوارى السفن، وكذلك السفينة التى كانوا يزمعون إرسالها بين سفن المسلمين، أن انعكس اتجاه الريح عليهم فاحترقت سفنهم الأولى التى عليها البرج وكذلك الثانية، ثم امتدت النيران للسفن التى بها الجنود وعليهم القبو، فانزعج من بداخلها من الصليبيين، ولم يستطيعوا الخروج من القبو فهلكوا جميعاً [1] وبالرغم من تلك الكارثة التى حلت بالصليبيين عند محاولتهم الاستيلاء على برج الذبان، فإنهم لم ينقطع أملهم فى أخذ ذلك البرج، حيث عادوا مرة أخرى، ووضعوا آلة عظيمة على هيئة دبابة[2] لها رأس عظيم برقبة شديدة من الحديد تسمى كبشاً ينطح بها السور فتهدمه بتكرار نطحها، كما استخدموا آلة أخرى هى عبارة عن قبو فيه عدد من الجنود ورأسه محدد على شكل السكة التى تستخدم فى الحرث تسمى سنوراً، فرأس الكبش مدور يهدم بثقله ورأس السنور يهدم بحدته، كما استخدموا أيضاً الستائر والسلاليم الكبار الهائلة وأعدوا فى البحر سفينة عظيمة أقاموا بها برجاً إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقاً إلى المكان الذى ينقلب عليه فتمشى عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه من برج الذبان فيأخذوه ولما اكتملت استعداداتهم شرعوا فى الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب وهم فى خلق لا يحصى وأهملهم المسلمون بادئ الأمر حتى نشبت مخاليب أطماعهم فى عكا، وصحبوا آلاتهم تلك وقربوها من الأسوار، وعندما أصبحوا على تلك الحالة، صاح المسلمون عليهم صيحة واحدة، وفتحوا الأبواب، وباعوا أنفسهم لخالقها وباريها كما يقول المؤرخ ابن شداد

---

(1) النوادر السلطانية ص 138، 139 صلاح الدين والصليبيون ص 260.

(2) صلاح الدين والصليبيون ص 260.

وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوه فى الخنادق، ولما رأوا ما نزل بالصليبيين من الخذلان والهزيمة، هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط، وتمكنوا من إحراقه، وهرب المقاتلة منه، ثم سرت النار كذلك فى السنور وأحرقته ثم علق المسلمون فى الكبش الكلاليب الحديدية وسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم فى البلد وكان هذا الكبش يتألف من عدد من الآلات وألقى عليه الماء حتى برد حديده بعد أيام وكان هذا فى رمضان من سنة 586هـ/أكتوبر 1190م [1].

هـ- **سيطرة المسلمين على الموقف**: ومما مضى يظهر لنا مدى سيطرة المسلمين على الموقف وكذلك مدى ما وصل إليه الصليبيون من الهلع والخوف حيث لم يكتف المسلمون بإلحاق الضرر بآلات الصليبيين بل عمدوا إلى الاستفادة منها فى جهادهم لتصفيتهم، ولما كان يوم الأربعاء منتصف شهر رمضان خرج المسلمون على ظهور سفنهم وباغتوا تلك السفينة الصليبية التى كانت قد أعدت لأخذ برج الذبان، فضربوها بقوارير النفط وباءت محاولة الصليبيين لأخذ البرج بالفشل الذريع [2].

و- **شجاعة فائقة**: وفى جمادى الأولى من سنة 587 هـ/يونيه 1191م هاجم الصليبيون سفينة إسلامية كانت قد سيرت من بيروت بعد شحنها بالآلات والأسلحة والمير والرجال، وكان مقدمهم رجلاً شجاعاً، فما أن رأى إمارات الغلبة عليهم حتى أشار على أصحابه بإغراق سفينتهم بأيديهم لئلا يتمكن العدو من الظفر بها، فوقعوا فى جوانبها بالمعاول حتى دخل الماء إليها فغرقت وغرق جميع ما فيها من الآلات والمير، ولم يظفر العدو بشيء منها [3].

ز- **هجوم إسلامي على دبابة عظيمة مكونة من أربع طبقات**: عزم المسلمون الذين كانوا داخل عكا على مهاجمة الصليبيين وتكبيدهم خسائر أكثر لكى

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 261 النوادر السلطانية ص 140.

(2) النوادر السلطانية ص 143 صلاح الدين والصليبيون ص 261

(3) النوادر السلطانية ص 161 صلاح الدين والصليبيون ص 261.

يثبتوا لهم أن غرق السفينة لم يؤثر عليهم، وحدث فى ذلك الوقت أن اصطنع العدو دبابة عظيمة هائلة مكونة من أربع طبقات، الطبقة الأولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس وكان ارتفاعها أكثر من ارتفاع السور، وشحنوها بالمقاتلة وقربوها من السور لمهاجمة المسلمين، فى الداخل، إلا أن المسلمين بادروا بضربها بالنفط، واستمر ضربهم ليلاً ونهاراً حتى تمكنوا من إشعال النار فيها وإحراقها [1]، وعلى الرغم من تلك الخسائر التى ألحقها المسلمون بالصليبيين، فإن الغرب الأوروبى لم تنقطع إمداداته عن الصليبيين ببلاد الشام، الأمر الذى مكن الصليبيين من مواصلة حصارهم لعكا، ففى الوقت الذى كان صلاح الدين قد حقق انتصارات عظيمة على الصليبيين سواء فى المعارك أو فى تحطيم آلاتهم وأدواتهم وصل إلى المشرق الإسلامى أعظم ملوك أوروبا فى ذلك الحين وهما الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشادر قلب الأسد ملك انجلترا، اللذين سلكا طريق البحر إلى هناك، ولا شك أنه كان لوصولهما أثره البالغ فى رفع الروح المعنوية للصليبيين [2].

ح- **إخراج عسكر عكا، وإدخال البدل عنهم إليها** : ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدوُّ من أن يضرب مصافاً وأن يبالغ فى طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر فى العود إلى بلادها ليأخذوا نصيباً من الرّاحة.... ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحَلْقة الخاصة [3] واشتغل السلطان بإدخال البَدَل إلى عكا، وحمل المِيَرِ والذخائر، وإخراج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها، ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً. وكان مُقَدَّم البَدَل الدّاخل من الأمراء سيف الدّين المشطوب دخل فى سادس عشر المحرّم سنة سبع، وفى ذلك اليوم خرج المقدّم الذى كان بها

(1) النوادر السلطانية ص 162 صلاح الدين والصليبيون ص 262.

(2) صلاح الدين والصليبيون ص 262.

(3) النوادر السلطانية ص 231.

وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خَلْق من الأمراء وأعيان من الخلق وتقدم إلى كلٍّ من دخل أن يصحب معه ميرة سنة كاملة [1].

ط- **بلاء عظيم على المسْلمين**: انتقل الملك العادل بعسكره إلى حيفا على شاطئ النّهر، وهو الموضع الذى تُحَمّلُ منه المراكب، وتدخل إلى البلد، وإذا خرجت تخرج إليه، فأقام ثَمَّ يحثُّ الناس على الدُّخول، ويحرس المير والذَّخائر لئلا يتطرق إليها من العدو من يتعرضها، وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخولها يوم الاثنين ثانى ذى الحجة، فانكسر منها مركب على الصخر الذى هو قريب الميناء فانقلب كل من فى البلد من المقاتلة إلى جانب البحر لتلقى البطس وأخذ ما فيها ولما علم العدو انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر اجتمعوا فى خلْق عظيم وزحفوا على البلد من جانب البَرِّ زحفة عظيمة وقاربوا الأسوار وصَعِدوا فى سلَّم واحد، فاندق بهم السُّلم كما شاء الله تعالى، وأدركهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقاً عظيماً وعادوا خائبين خاسرين [2]، وأما البطس، فإن البحر هاج هيجاناً عظيماً، وضرب بعضها ببعض على الصَّخر، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها، وهلك فيها خلق عظيم، قيل كان عددهم ستين نفراً وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم وحَرِجَ [3] السلطان لذلك حرجاً شديداً، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد[4].

ى- **إسلام بعض الفرنج**: استأمن من الإفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلى معسكر السلطان صلاح الدين وقالوا: نحن نخوض البحر فى براكس[5] ونكسب

---

(1) كتاب الروضتين (4/232).

(2) المصدر نفسه (2/233).

(3) المصدر نفسه (2/233).

(4) حَرِجَ: ضاق صدره.

(5) براكس: مراكب صغيرة.

من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم وأعطاهم بركوساً – وهو المركب الصغير – فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة فأسروهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدى السلطان، فأعطاهم السلطان جميع ما غنموه[1]، فلما أُكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المُنعمة، وأسلم منهم شطرهم وأحضروا مائدة فضة عظيمة، وعليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها فى الوزن ولو وزنت تلك الفضيات قاربت قنطاراً، فما أعارها طرفه احتقارا [2].

ك– **استشهاد جمال الدين محمد بن أركز**: والتقى فى هذه السنة شوانى المسلمين بشوانى الفرنج فى البحر، فأحرقت للكفر شوانى برجالها وكان عند العود تأخر شينى، مقدّمه الأمير جمال الدين محمد بن أركز، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاّحوه إلى الماء وسلّموه إلى البلاء فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان، فقال: ما أضع يدى إلا فى يد مقدّمكم الكبير، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير، فجاء إليه المقدم الكبير، وظنّ أنه قد حصل له الأسير فعاقره وعانقه وقوّى عليه وما فارقه، ووقعا فى البحر وغرقا وترافقا فى الحمام واتّفقا، وعلى طريقى الجنة والنار افترقا [3].

ل– **وصول القاضى الفاضل إلى معسكر السلطان صلاح الدين**: وصل القاضى الفاضل من مصر إلى المعسكر المنصور فى ذى الحجة وكان السلطان متشوقاً إلى قدومه وطالت مُدة البين لغيبته عنه سنتين، على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبّة وقد جمع للملك العزيز بمقامه هيبة ومحبّة وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه وإلى أركانه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام وإن تركه نال وحشة التفرُّد بالقضايا

(1) كتاب الروضتين (236/4).
(2) المصدر نفسه (236/4).
(3) المصدر نفسه (236/4).

والأحكام، وكان يكاتبه بشرح الأحوال ويستشيره والنجّابون متردّدون بالمكاتبات والمخاطبات والاستشارة فى المهمّات، فوصل إلى القدس واعتاق بتوالى الأمطار... ورجع الفضل واجتمع الشمل واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأى مشيره [1].

م – **وفاة قاضى القضاة كمال الدين الشهرزورى بالموصل**: فى هذه السنة توفى بالموصل قاضى القضاة محيى الدين أبو حامد محمد بن قاضى القضاة كمال الدين بن الشهرزورى وقد أثنى العماد الكاتب عليه فى "الخريدة" ثناءً كبيراً وأنشد له أشعاراً حسنة منها فى التوحيد:

قامت بإثبات الصفات أدلّة — قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت — هزمت ذوى التشبيه والتمثيل
فالحق ما صِرنا إليه جميعنا — بأدلة الأخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد — ألقاه فرط الجهل فى التضليل

وله فى مدح الصحابة رضى الله عنهم:

لائمى فى هوى الصحابة — ارجع إلى سقر
لا بلغتَ المُنَى ولا — نِلْتَ من رفضك الوطر
كيف تنهى عن حب قوم — هم السمع والبصر
وهم سادة الورى — وهم صفوة البشر
فأبو بكر المقدم — من بعده عمر
ثم عثمان بعده — وعليٌّ على الأثر
أيها الرافضى حسبك — فالحق قد ظهر [2]

(1) المصدر نفسه (4/238).
(2) كتاب الروضتين (4/239).

7- **الملكان الفرنسي والإنكليزي في عكا**: وصل إلى المشرق الإسلامي أعظم ملوك أوروبا في ذلك الحين وهما الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا اللذين سلكا طريق البحر إلى هناك، ولا شك أنه كان لوصولهما أثره البالغ في رفع الروح المعنوية للصليبيين حيث أبحر ملك فرنسا من مدينة جنوا وأبحر ملك انجلترا من مرسيليا وتقابلا في جزيرة صقلية، وهناك قضيا ومعهما جيوشهما نحو ستة أشهر يتمتعون بدفء الشتاء في الوقت الذي كانت فلول الصليبيين ببلاد الشام، المتجمعة أمام عكا تنتظر حضورهما في قلق بالغ [1] ثم أبحر فيليب أغسطس من مسينا في 2 ربيع الأول 587هـ/ 31 آذار 1191م ووصل إلى صور حيث رحّب به قريبه كونراد مونتفيرات ثم صحبه إلى عكا وسط ابتهاج الصليبيين، وذلك في 23 ربيع الأول 587هـ/ 31 آذار 1191م[2]، وفي المقابل ازداد موقف المسلمين في داخل عكا وخارجها، صعوبة، فضجر العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل [3] ويبدو أن فيليب أغسطس لم يشأ أن ينتظر وصول ريتشارد قلب الأسد، وإنما بدأ على الفور بتشديد الحصار على عكا، بعد أن نظّم صفوف الصليبيين وجدّد آلات الحصار وشيّد لهم الأبراج، وراح هؤلاء يقذفون المدينة بشكل متواصل، كما عملوا على ردم الخندق المحيط بها، فقد تأجلت المحاولة لمهاجمة الأسوار حتى يصل ريتشارد قلب الأسد وأتباعه[4] وكان ريتشارد قلب الأسد قد عَرّج على جزيرة قبرص، بعد مغادرته مسينا وكانت تحت حكم إسحاق دوكاس كومنين الذي اشتهر بكراهيته للاتين فوصل إليها في 10 ربيع الآخر عام 587هـ/ 8 آيار عام 1191م واستولى عليها وأسر إسحاق ثم غادرها إلى بلاد الشام فوصلت سفنه إلى الشاطئ في 10 جمادى الأولى / 5 حزيران، ونزل هو إلى البر قرب صور، فرفضت حامية

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 262.

(2) النوادر السلطانية ص 237 تاريخ الايوبيين ص 183.

(3) النوادر السلطانية ص 230 تاريخ الأيوبيين ص 183.

(4) تاريخ الأيوبيين ص 183.

المدينة السماح له بالدخول، وذلك بناء على تعليمات كونراد دى مونتفيرات عندئذ واصل بحراً إلى عكا على رأس خمس وعشرين سفينة فوصل إليها فى 13 جمادى الأولى/8حزيران، وكان وصوله باعثا للأمل فى نفوس الصليبيين الذين يحاصرون عكا على الرغم من فتور العلاقات بينه وبين الملك الفرنسى[1] وفى المقابل ازداد موقف الحامية الإسلامية فى المدينة سوءاً أمام ضغط تلك الجموع الهائلة من الصليبيين التى شدَّدت من حصارها على المدينة وكثَّفت هجماتها عليها [2].

رابعًا: سقوط عكا:

كان صلاح الدين يراقب تطورات الموقف من مراكزه عند شفرغم ثم عند الخروبة ثم العياضية وتلقى فى نهاية جمادى الأولى / حزيران إمدادات جديدة من الجزيرة، وعندما نفّذ عدة هجمات مضادة على الصليبيين، لجأ هؤلاء إلى مهاجمة عسكره ولكنهم فشلوا فى تحقيق أى هدف، بعد أن ثبت المسلمون لهم ثبوتاً عظيماً وصبروا صبر الكرام[3] وكان الهدف من القتال الوقوف على قوة الخصم، فقد أراد صلاح الدين أن يثبت لريتشارد قلب الأسد أن جيشه ما زال قوياً، وأن بوسعه ملاقاته، وأما ريتشارد قلب الأسد، فإنه أراد من جانبه أن يتأكد مما إذا كان بوسعه أن يفرض إرادته على صلاح الدين بقوة السلاح، أو أن يفرض عليه المفاوضات بعد أن يُلحق بالمسلمين هزيمة تجبرهم على الموافقة على شروطه، مدركاً فى الوقت نفسه أن الظروف العسكرية مهيأة لتحقيق ذلك [4]. لم تفلح الهجمات المتعددة التى شنَّها المسلمون ضد الصليبيين المحاصرين لعكا لكن صمودهم فى وجه الهجمات المضادة، دفعت ريتشارد قلب الأسد إلى طلب المفاوضات وأعلن عن رغبته فى الاجتماع بالسلطان، وكان يأمل بالتوصل إلى

---

(1) تاريخ الأيوبيين فى مصر وبلاد الشام ص 184.

(2) المصدر نفسه ص 184.

(3) النوادر السلطانية ص 241، 242، تاريخ الأيوبيين ص 184.

(4) تاريخ الأيوبيين ص 184.

تسوية سلمية غير أن صلاح الدين أجاب بحذر: ليس من الحكمة أن يجتمع ملكان متعاديان حتى تنعقد بينهما هدنة، ومع ذلك فإنه أعرب عن استعداده لأن يسمح لأخيه العادل أن يجتمع بالملك الإنكليزي. وتقرر وقف القتال مدة ثلاثة أيام وتم الاتفاق أن يُعقد الاجتماع في السهل الذي يفصل المعسكرين الإسلامي والصليبي غير أنه حدث أن خرّ ملكاً إنكلترا وفرنسا مريضين فجأة، واشتدت العلة على ريتشارد قلب الأسد، لكن ذلك لم يؤثر على معنويات الصليبيين الذين ازدادوا إصراراً وعتواً (1).

1- **مفاوضات على تسليم عكا**: والواقع ان الهجمات التي شنّها صلاح الدين ضد القوات الصليبية لم تفلح، وكانت عكا قد ضعفت ضعفاً شديداً واشتد الخنق بالمسلمين في داخلها، وهدمت مجانيق الصليبيين جزءاً من سورها وتخلخل جزء آخر وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة أعمالهم. وفي 7 جمادى الآخرة/2 تموز أرسلت الحامية رسالة جاء فيها: إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد، إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلّم البلد ونشتري مجرد رقابنا(2). كان هذا الخبر من أعظم ما وقع على المسلمين، لأن عكا كانت مخزناً كبيراً لسلاح الساحل وبيت المقدس ودمشق وحلب ومصر، وفيها كبار أمراء صلاح الدين، مثل سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب وبهاء الدين قراقوش (3)، ثم إن الحامية اتخذت فعلاً قراراً بوقف القتال، وذهب سيف الدين علي المشطوب بنفسه إلى المعسكر الصليبي لمقابلة الملك الفرنسي والاتفاق معه على شروط التسليم. وذكر أن المسلمين كانوا إذا أخذوا بلداً منهم، وطلب من بذلك البلد الأمان على أنفسهم أعطوهم وعرض عليه تسليم البلد له بشرط أن يعطيهم الأمان على أنفسهم، إلا أن ملك فرنسا الذي كان بعيداً كل البعد عن صفات الشهامة والمروءة التي كان صلاح الدين

(1) تاريخ الأيوبيين ص 185.

(2) النوادر السلطانية ص 185 تاريخ الأيوبيين ص 185.

(3) النوادر السلطانية ص 252 تاريخ الأيوبيين ص 185.

يتحلى بها، امتنع عن إجابة طلبه ورد عليه رداً دل على وحشيته الأمر الذى أثار نخوة سيف الدين المشطوب، فأغلظ له فى القول، وكان مما قال له: إنا ما نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل واحد منا حتى نقتل خمسين نفساً من كباركم. ثم انصرف عنه المشطوب ودخل عكا يستثير الناس للجهاد وبذل أرواحهم فى سبيل الله [1].

وعلى الرغم من ذلك التعنت من ملك فرنسا، فإن الصليبيين كانوا بلا شك يحسبون للقوة الإسلامية حساباً كبيراً بدليل ما ذكره ابن الأثير من أن الصليبيين لم يكتفوا بالتفاوض مع قادة الحامية الإسلامية بعكا، بل إنهم اتجهوا كذلك إلى مفاوضة صلاح الدين نفسه، حيث أرسلوا إليه فى أمر التسليم، فأجابهم إليه على أن يطلقوا من بعكا من المسلمين، ويطلق هو من أسراهم بعدد من فى البلد [2].

2- **صلاح الدين يحث المسلمين بعكا على الصبر**: ومهما يكن من أمر فإن صلاح الدين لما رأى ذلك التعنت من الصليبيين أرسل إلى من بعكا من المسلمين يحثهم على الصبر ويأمرهم بأن يخرجوا من المدينة يداً واحدة بعد أن يحملوا على العدو حملة رجل واحد ووعدهم بأن يتقدم هو إلى تلك الجهة التى يخرجون منها بعساكره ويقاتل الصليبيين حتى يتمكنوا من الخروج إليه، إلا أن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح بسبب سيطرة الصليبيين على البلد[3] وهنا أدرك من بداخل عكا من المسلمين أنه لم يعد أمامهم سوى الجهاد والاستبسال فى قتال الأعداء، فكتبوا إلى صلاح الدين يذكرون له أنهم قد تبايعوا على الموت، وأنهم قد عزموا على الاستمرار فى القتال وأنهم لن يسلموا ماداموا أحياء[4] وعلى الرغم من تلك التضحية الكبرى الكبيرة من أهل عكا وحبهم للاستشهاد فى سبيل الله فإنه يبدو أن صلاح الدين وأمراءه الذين كانوا بالداخل أمثال الأمير سيف الدين المشطوب

---

(1) النوادر السلطانية ص 168 صلاح الدين والصليبيون ص 265.

(2) الكامل فى التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 266.

(3) مفرج الكروب (2/358) صلاح الدين والصليبيون ص 266.

(4) النوادر السلطانية ص 196 صلاح الدين والصليبيون ص 266.

وغيره، كانوا حريصين كل الحرص على سلامة أرواح المسلمين، يدلنا على ذلك ما ذكر من أن سيف الدين المشطوب عندما رأى الموقف، خرج إلى الصليبيين للمرة الثانية، وقرر معهم تسليم البلد مقابل خروج من به من المسلمين بأموالهم، وأنفسهم، وأن يدفع لهم فدية قدرها مائتا ألف دينار وخمسمائة أسير، فضلاً عن إعادة صليب الصلبوت، ودفع مبلغ من المال إلى كونراد مونتفرات صاحب صور وهنا يذكر له تلك الشروط، أنكر ذلك إنكاراً شديداً [1].

3- **غدر الصليبيين ونقضهم للعهود**: قبل الصليبيون تلك الاتفاقية، وحلفوا لسيف الدين المشطوب فسلم لهم البلد، ودخلوه سلماً، ولما دخل الصليبيون عكا نقضوا عهودهم كعادتهم وغدروا بمن فيه من المسلمين، واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم وحبسوهم وذلك فى 17جمادى الآخرة 587هـ/يوليه 1191م متظاهرين بأنهم فعلوا ذلك حتى يصل إليهم ما اتفقوا عليه من الفدية والأسرى. وهنا شرع صلاح الدين فى جمع الأموال، واجتمع عنده مبلغ كبير من المال، واستشار أصحابه فى تسليمه للصليبيين فأشاروا عليه بأن يعود مرة أخرى فيستخلف الصليبيين على إطلاق أصحابه وأن يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل تدين ووفاء إلا أن الداوية امتنعوا عن ذلك، وقالوا "لا نحلف ولا نضمن، لأننا نخاف غدر من عندنا "[2]؟. عند ذلك علم صلاح الدين غدرهم فلم يجبهم إلى ذلك [3]، كانت ألوية الصليبيين ترفرف فى ذلك الوقت فوق أبراج عكا واستطاع الصليبيون دخول عكا بعد أن حاصروها قرابة عامين، الأمر الذى أثار موجة من الأسى والحزن عبّر عنها المؤرخون المسلمون. ويبدو أن الصليبيين ماطلوا فى تنفيذ الشق المتعلق بهم، وكان صلاح الدين قد أرسل لهم القسط الأول من المال والرجال الأسرى ولما طالبهم بتنفيذ البند الخاص بهم كاملاً رفضوا، عندها أدرك عزمهم على الغدر ورفض أن يسلمهم ما تبقى من المال والأسرى[4]، ولما رأى ريتشارد قلب الأسد توقف صلاح

(1) النوادر السلطانية ص 170، 171 صلاح الدين والصليبيون ص 267.

(2) الكامل فى التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 267.

(3) صلاح الدين والصليبيون ص 267.

(4) المصدر نفسه ص 267.

الدين عن بذل المال والأسرى وصليب الصلبوت لهم لم يعاود الاتصال بصلاح الدين، بل دفعه تهوره وحمقه إلى أن ساق أسرى المسلمين الذين بعكا وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم إلى تلك العياضية وأوثقهم بالحبال ثم حمل الصليبيون عليهم حملة واحدة وقتلوهم عن آخرهم وذلك في 27 رجب 587هـ/20أغسطس 1191م [1] ولاشك أن ذلك التصرف الوحشي الذي اتخذه ريتشادر مع أسرى المسلمين في عكا لم تكن له نتيجة سوى إثارة النخوة الإسلامية في صفوف المسلمين، الذين استشعروا ذلك الخطر الصليبي، فهبوا من كافة الأقطار الإسلامية للجهاد ضد الصليبيين، وبالفعل فإن الجيوش الإسلامية قد منعت الجيوش الصليبية من تحقيق أي انتصار عقب دخولهم عكا وذلك لتفاني الجيوش الإسلامية في ميادين القتال لشعورها بزيادة الخطر الصليبي، فضلاً عما أعقب دخول الصليبيين عكا من خلاف وشقاق بين قادتهم أدى إلى اختلاف كلمتهم وعجزهم عن تحقيق انتصار آخر غير دخولهم عكا، ذلك الانتصار الذي لا يقاس في حد ذاته بما لحق بالصليبيين من خسائر[2] وشتان بين السلوك الهمجي الذي اتبعه ريتشارد مع أسرى المسلمين بعكا، وبين ذلك السلوك الإنساني الذي كان صلاح الدين قد اتبعه مع الصليبيين في مواقف كثيرة، منها ما فعله بأسراهم عقب انتصاره في حطين ثم عقب استيلائه على بيت المقدس، إذ حرص دائماً على السماح لأهل المدن التي استولى عليها من الصليبيين بمغادرتها سالمين[3].

ومن المواقف الإنسانية الإسلامية الصلاحية التي ظهرت من صلاح الدين وهو في حصار عكا:

4- **المرأة النصرانية التي تبحث عن ابنها الرضيع**: كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو، فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون، فأخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 268.

(2) المصدر نفسه ص 268.

(3) المصدر نفسه ص 268.

تلك الليلة، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: إنه رحيم القلب، وقد أذنَّا لك فى الخروج إليه، فاخرجى واطلبيه منه فإنه يرد عليك، فخرجت تستغيث لليزك الإسلامى، وأخبرتهم بواقعتها، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان، فأتته وهو راكب على تَلِّ الخروّبة، وكان القاضى ابن شداد فى خدمته - وهو الذى روى القصة - وكان فى خدمته خلق عظيم، فبكت بكاءً شديداً ومرّغت وجهها فى التُّراب، فسأل عن قِصَّتها، فأخبروه، فَرقَّ لها، ودَمِعت عينه وأمر بإحضار الرّضيع، فمضوا، فوجدوه قد بيع فى السُّوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المُشترى، وأخذه منه، ولم يزل واقفاً - رحمه الله - حتى أحضر الطِّفل، وسُلِّم إليها، فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمَّته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون، وأنا واقف فى جملتهم فأرضعته ساعة، ثم أمر بها، فَحُملت على فرسٍ، وألحقت بمعسكرهم مع طفلها فانظر إلى هَذه الرحمة الشاملة لجنس الإنسان(1).

5- **معاملته لملك انكلترا**: تكررت الرّسائل من الفرنج إلى السلطان شغلاً للوقت بما لا طائل تحته، منها أن ملك الانجليز طلب الاجتماع به، ثم فَتَر بعد أيام، ثم جاء رسوله يطلب الاستئذان فى إهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر أنها قد ضَعُفَت وتغيَّرت وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى، ثم تُهدى، ففهم أنه محتاج إلى ذلك لنفسه، لأنه حديث عهد بمرض ثمَ نفَّذ أسيراً مغربياً عنده، فأطلقه السلطان صلاح الدين، ثم أرسل فى طلب فاكهة وثلج، فأرسل إليه ذلك (2).

خامساً: أسباب سقوط عكا:

كان ثمة أسباب عديدة تجمعت وأدت إلى سقوط عكا المريع، بعد أن دافع عنها المسلمون قرابة السنتين ولعل من أبرزها:

1- **وصول قوات أوروبية جديدة حسم الموقف لصالح الصليبيين**: فعلى الرغم من كثرة من قتل منهم، إلا أن البحر كان يزودهم بإمدادات جديدة، حتى أضحوا فى أعداد لا تحصى من أمم كثيرة تلك التى اشتركت فى هذه الحملة الصليبية

(1) كتاب الروضتين (4/245).
(2) المصدر نفسه (4/253).

الضخمة، فتجهز لها الأمراء بما أعدوه من الأموال والأدوات وبما تكفَّلت به المدن الإيطالية من بذل المساعدة والاشتراك فى نقل العساكر والمعدات، وعدم السماح للسفن الإسلامية بإيصال المؤن والمعدات اللازمة إلى المدينة المحاصرة، فكان تفوقهم البحرى واضحاً[1]. لقد قاومت المدينة حصار الصليبيين سنتين كاملتين وشهدت خلالهما أعظم عمليات حربية اشترك فيها الصليبيون بأكثر من ربع مليون جندى وامتاز الصليبيون خلال هذا الحصار بأسطول قوى وآلات حربية ضخمة [2].

2- **استخدام الصليبيين لأسلحة جديدة ومتنوعة**: استعمل الصليبيون فى قتال عكا أنواعاً كثيرة من الأسلحة والمعدات الحربية القديمة منها أو التى أدخلوا إليها التحسينات سواء الهجومية منها لدك أسوار المدينة أو لحماية أنفسهم خلف الجدران والخنادق التى أقاموها لمنع وصول قوات صلاح الدين إليهم، واستطاعوا بعد مرابطتهم الطويلة بين أسوار عكا وقوات صلاح الدين، إحداث الخلل فى الأسوار[3] ففى رسالة حررها القاضى الفاضل بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسى أعلن فيها أن الصليبيين: قاتلوا مرة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات ورادفة بالدبابات وتابعة بالكباش، وآونة باللوالب ويوماً بالنقب، وليلاً بالسرايات، طوراً بطم الخنادق وآنا بنصب السلالم، ودفعة بالزحوف فى الليل والنهار وأحيانا فى البحر بالمراكب[4] وكان رجال ريتشارد يستطيعون أن يتسلقوا جدران السور بواسطة آلة جديدة مستحدثة سموها " الهر" ومجانيق تستطيع رمى الحجارة الضخمة التى تزعزع الجدران وتحدث الهزات حيث تقع فى المدينة[5].

3- **طول مدة الحصار البحرى والبرى**: ولّد تعباً أصاب المسلمين وسبب ذلك ضجراً، رغم ما كان يحدثه صلاح الدين من تبديل بين المحاربين بإرسال البدل إلى داخل المدينة، إلا أنه لم يستطع الاستمرار على ذلك، لاسيما حين شدد الصليبيون

---

(1) كتاب الروضتين (184/2) الجيش الأيوبى ص 465.

(2) صلاح الدين الأيوبى، قدرى قلعجى ص 204.

(3) الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين ص 465.

(4) كتاب الروضتين (185/2) الجيش الأيوبى ص 466.

(5) الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين ص 466.

من حصارهم عليها، وكذلك لم تجد نفعاً النجاحات التى أحرزها الجيش الصلاحى الذى يحاصر الصليبيين بين فترة وأخرى ولاسيما فى بداية الحصار الصليبى [1].

وكانت النتيجة الحتمية هى التوانى فى بذل المجهود الحقيقى، ثم إبداء الأمراء التذمر من صلاح الدين، فلم يلبث التذمر حتى صار عادة وتطور إلى نقد ثم إلى معارضة، أضعفت الصف الإسلامى[2] وقد روى السلطان للخليفة العباسى فى رسالة أوضح فيها أبعاد الموقف أمام عكا، وانسحاب الأمراء واحداً بعد آخر لأن: المدة الطويلة والكلف الثقيلة قد أثرت فى استطاعتهم لا فى طاعتهم، وفى أحوالهم لا فى شجاعتهم، فالبرك (الثياب) قد أقضوه، والسلاح قد أحفوه والدرهم قد أفنوه فى حين أن البحر يمد الإفرنج بمراكب أكثر عدة من أمواجه... فإذا قتل المسلمون واحداً من البر بعث عوضه ألفاً، وإذا ذهب بالقتل صنف منهم أخلف بدله صنفاً [3]. إلا أن السلطان لم يأسف لشيء بقدر ما أسف لتغيب ابن أخيه تقى الدين عمر الذى ذهب إلى إمارته فى الجزيرة على أن يعود فى أقرب وقت، فشغلته أحداث الإمارة عن العودة السريعة، وقد رأى صلاح الدين فى غياب تقى الدين أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى سقوط عكا [4].

4- **ضعف المؤسسة المالية فى جيش صلاح الدين:** كشف الصراع الطويل مع الصليبيين، وسقوط عكا عن مواطن الضعف المادية فى جيش صلاح الدين، ومعروف عن صلاح الدين أنه لم يولِ اهتماماً كافياً بالإدارة المالية ولم يدخر المال ليوم الحاجة، ويفسر بذل المال الذى عرف عنه، بأن ظروف الجهاد اقتضت ذلك. فقد أنفق المولى مال مصر فى فتح الشام وأنفق مال الشام فى فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع فى فتح الساحل [5]. وسرعان ما لقى نفسه بحاجة شديدة إلى المال، لسد نفقات الأسلحة والمؤن والعلف والمعدات وعطاء الجند، وكذلك لم يقدر على

---

(1) الجيش الأيوبى ص 466.

(2) المصدر نفسه ص 466.

(3) صلاح الدين الأيوبى قلعجى ص 300.

(4) المصدر نفسه ص 300.

(5) كتاب الروضتين (2/177) الجيش الأيوبى ص 467.

التخفيف من الضائقة المالية عن العساكر المرابطين على عكا، والذين اضطروا إلى الاستدانة، وكذلك إحلال خيول وأسلحة جديدة بدلاً من المستهلكة، فالخيول: أجهدها الجهاد.. والعدد فقدت بالكلية وعدمت وتكسر وتحطمت، وأما النشاب فقد فني ونفضت الكنائن [1]. ويضيف العماد إلى كلامه أنه: احتيج في هذه السنين إلى أحمال كثيرة لا يفي بها الصناع ولا يرفعها العمال[2].

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط عكا

5- **بعد عكا**: كان لسقوط عكا تأثيره الكبير على وضع المسلمين، وعلى الرغم من أن الضربة لم تكن قاضية، إلا أن هذا الحدث أضعف المسلمين كثيراً بحيث ركنوا بعده إلى الدفاع السلبي، والذي من مظاهره تخريب بعض القلاع والحصون لكي لا تقع بيد العدو ثم يجعل منها مرتكزاً للهجوم على المناطق الإسلامية. صحيح أن فشل جيش صلاح الدين في حصار صور يعتبر بداية لخط الانكسار الإسلامي، إلا أن هذا الفشل يوضع في التحليل الأخير ضمن إخفاقات جيش صلاح الدين، وليس ضمن انتصارات الصليبيين، والقصد من ذلك أن ما حصل في صور هو عدم نجاح حصار المسلمين لإحدى المدن، أما في عكا فقد هزم المدافعون عنها وانتصر الصليبيون[3].

سادساً: وقعة أرسوف:

وضع ريتشارد قلب الأسد خطة تقضي باسترداد المدن الواقعة على شاطئ فلسطين من عكا حتى عسقلان قبل أن يتوجه إلى الداخل ليسترد بيت المقدس، فغادر عكا يوم الخميس في 29 رجب 587هـ/22آب 1191م على رأس الجيش الصليبي متخذاً الطريق الساحلي حيث يلقى جناحه الأيمن الحماية والتموين من الأسطول الصليبي، لم تكن ظروف الرحلة سهلة، فقد عاني الصليبيون من شدة

---

(1) الجيش الأيوبي ص 467.

(2) الجيش الأيوبي ص 467 الفتح القسي ص 553.

(3) الجيش الأيوبي ص 468.

الحر وقلة المؤن، وخراب المدن والقرى التي مروا بها، ومضايقة المسلمين لمؤخرتهم (1) والواقع أن صلاح الدين لم يشأ أن يدع الجيش الصليبي يزحف بسلام وإنما رحل في إثره، وكان يخشى أن يتحرك ريتشارد قلب الأسد نحو عسقلان ليحتلها ويتخذ منها قاعدة يقطع بواسطتها طريق الاتصال بينه وبين بيت المقدس ومصر التي تمده بالقوة الضاربة، وبعد أن استولى الصليبيون على حيفا التي أخلتها حاميتها الإسلامية، استأنفوا زحفهم نحو قيسارية ولما اقتربوا منها في 17 شعبان / 30 آب" أضحى الالتحام بين الجيشين وشيك الوقوع، تمتَّع المسلمون بميزة حرية الحركة في الوقت الذي حصر الصليبيون أنفسهم بينهم وبين البحر (2)، وكان القتال الحاد ينشب بينهم كل يوم وحاول صلاح الدين استدراج الصليبيين إلى الداخل حتى ينحرفوا عن خط سيرهم بمحاذاة الساحل، فيفقدوا ميزة دعم الأسطول، إلا أن ريتشادر قلب الأسد، الذي اتصف بالبراعة القتالية لم يقع في فخ صلاح الدين، وحافظ على خط سيره، ودعا رجاله إلى الحفاظ على النظام، وألا ينساقوا وراء الاستفزازات الإسلامية، مفوِّتاً فرصة طالما كان صلاح الدين توّاقاً إليها (3) واستولى الصليبيون على قيسارية الخاوية على عروشها بعد أن خرَّبها المسلمون ولم يستفيدوا منها بزاد أومال، ثم واصلوا زحفهم حتى بلغوا مشارف أرسوف وتحركوا باتجاه غابتها الواقعة في شمال شرقي المدينة على امتداد ميلين من البحر، حيث كان السهل من الاتساع ما يكفي لنشوب اشتباك(4) وقرَّر صلاح الدين الذي سبق العدو إلى الغابة، أن يصطدم به في هذا المكان فعبَّأ قواته استعداداً للمواجهة، وحين علم ريتشارد قلب الأسد بخطته تصرف على محورين:

- أرسل بطلب نجدة صليبية من عكا.
- حاول تسوية القضايا مع صلاح الدين بالطرق السلمية. والراجح أن صلاح الدين أراد أن يكسب الوقت حتى تصل قوات التركمان التي كان قد طلبها، فتظاهر

---

(1) النوادر السلطانية ص 189.

(2) تاريخ الأيوبيين ص 189.

(3) المصدر نفسه ص 189.

(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 190.

بقبول مبدأ التفاوض وأناب عنه أخاه العادل الذى اجتمع بريتشارد قلب الأسد (فى 12 شعبان/5 أيلول) لكن المفاوضات تعثرت بسبب تصلب ريتشارد قلب الأسد فى موقفه، إذ أصرَّ على أن يتنازل المسلمون عن الأماكن التى فتحوها فى مملكة بيت المقدس، فبادر العادل على الفور إلى قطع المفاوضات ولم يبق أمام الطرفين سوى القتال [1]. ووصلت، فى هذا الأثناء، نجدات عسكرية إلى كل من الطرفين فتعبأً للقتال وبدأت المعركة فى ضحى (يوم السبت 14 شعبان 587هـ/7 أيلول) أحاط الفرسان المسلمون فى بدايتها بالصليبيين وأوشكوا أن يقضوا عليهم، لكن ريتشارد قلب الأسد ثبت فى القتال، وأعاد تنظيم صفوف قواته بسرعة، فمال ميزان المعركة إلى صالحه ولم تلبث صفوف المسلمين أن تداعت[2]، ولما رأى صلاح الدين ما نزل بالمسلمين صاح فيهم وحرضهم على الجهاد فى سبيل الله، وبقى هو ثابتاً فى المعركة، فلما رآه الناس على تلك الحالة من الشجاعة والصبر توافدوا عليه، وقاتلوا الصليبيين قتال الأبطال حتى تمكنوا من دحرهم وإجبارهم على التراجع إلى منزلتهم[3].

سابعًا: خراب عسقلان:

بعد معركة أرسوف، توجه ريتشارد نحو يافا وأخذها دون مقاومة إذ لم يكن بها أحد من المسلمين ليدافعوا عنها، على حد قول ابن الأثير [4] وشرع فى إعادة بناء استحكاماتها، أما صلاح الدين فتوجه نحو الرملة، وعقد فيها مجلس حربه، واستشارهم فيما يفعل، فأشار عليه الأمير علم الدين سليمان بن جندر، بإخلاء عسقلان ومن ثم تخريبها لأن هدف العدو، بعد عكا ويافا هو عسقلان ومن ثم القدس، ولأن يافا، التى نزل عليها ريتشارد تتوسط القدس وعسقلان ولا سبيل إلى

(1) النوادر السلطانية ص 273 – 275 تاريخ الأيوبيين ص 190.
(2) تاريخ الأيوبيين ص 190.
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 270 النوادر السلطانية ص 184.
(4) الجيش الأيوبى ص 476 نقلاً عن الكامل فى التاريخ.

حفظ المدينتين معا [1] وقد أعلن الأمراء الداعين إلى تخريب عسقلان أن الدفاع عن هذه المدينة يتطلب وجود حامية كبيرة فيها، تعدادها ثلاثون ألف مقاتل، أو عشرون ألفا [2]. وأعلنوا لصلاح الدين: قد رأيت ما كان منا بالأمس، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان، ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها، فهم لاشك يقاتلوننا لننزاح عنها، فينزلوا عليها، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا، لأن العدو قد قوى بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها، وضعفنا نحن بما خرج عن أيدينا، ولم تطل المدة حتى نستنجد غيرها، فاعترض صلاح الدين على هذا الرأى وطلب من بعض أمرائه الدخول إلى عسقلان، وتنظيم الدفاع عنها، فامتنعوا، بل إنهم ردوا عليه بخشونة غير مألوفة، اعتادوا عليها من الآن فصاعداً، كما يظهر من رواية العماد وابن الأثير وقالوا: إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا [3]، ولم يستطع صلاح الدين إقناع الأمراء ولذلك حزن كثيراً، وبات ليله مهموماً، يقول ابن شداد إنه: ما نام الليلة إلا قليلاً، ولقد دعاني إلى خدمته سحراً، فحضرت وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في الأمر. ثم قال: والله لأن أفقد أولادى كلهم أحب إليَّ من أن أهدم من عسقلان حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع [4].

واضطر أخيراً إلى الانصياع إلى قرار أمرائه، ووافق على تخريبها، فأمر والى المدينة بأن يتولى ذلك بنفسه، فوضع الوالى المعول عليها فجر 19شعبان 587هـ/12أيلول 1191م، ثم استنفر الناس، وقسم سور المدينة عليهم، وجعل لكل أمير وطائفة جزءاً من السور واشترك هو وولده فى تخريبها وأرسل إلى أخيه العادل، الذى كان نازلاً على بلدة يبنى بالقرب من الرملة ويافا وطلب منه أن "يسوف القوم ويطول حديث

(1) المصدر نفسه ص 477.

(2) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبى ص 477.

(3) الجيش الأيوبى ص 478.

(4) المصدر نفسه ص 478.

الصلح معهم، ريثما نتمكن من خراب البلد[1]. وقد تألم الناس على ما يفعلونه ووقع فيهم الضجيج والبكاء، لأن عسقلان كانت مدينة نضرة خفيفة على القلب، محكمة الأسوار، عظيمة البناء، مرغوبة فى سكناها حتى سميت عروس الشام لحسنها[2]. وبعد إكمال تخريبها أمر بإضرام النار فيها، وهاجرها وأهلها وتفرقوا بين مصر والشام واستمرت أعمال التخريب والحرق إلى مستهل رمضان 587هـ/ نهاية أيلول 1191م. ولم يكد الجيش يفرغ من تخريب عسقلان حتى سار إلى يبنى مقر قيادة العادل، ثم مضى إلى الرملة [3]، أما ريتشارد فإنه انشغل بإقامة التحصينات فى يافا، ولم يخاطر فى الهجوم على بيت المقدس، لأنه إذا غامر بالمسير نحو هذه المدينة، فثمة احتمال قوى أن يقوم جيش صلاح الدين بقطع طريق الاتصال بينه وبين البحر، فكان من الحكمة والتعقل أن يتأكد من مناعة يافا قبل أن يشرع فى مغامراته، لأن الخسارة تكون أشد وجعاً لسمعة الصليبيين إذا استولوا على المدينة ثم يضطرون إلى تركها ثانية [4]. ومع ذلك فإن التمهل والإرجاء أضحيا بالغى الطول، فتهيأت لصلاح الدين الفرصة لتدعيم وسائل الدفاع عن المدينة المقدسة، وتنظيم صفوف جيشه للجولة التالية فى وقت كان الصليبيون ينعمون بأسباب الراحة فى يافا، فاهتمام ريتشارد بيافا وتعميرها لم يقل عن اهتمام صلاح الدين بتدمير عسقلان، لأن القائد الصليبى أدرك أنه يتعذر عليه أخذ بيت المقدس دون إحكام سيطرته على يافا لاسيما وأن عسقلان قد تم تخريبها [5].

ثامناً: تنظيم الدفاع عن القدس:

لم يعد صلاح الدين إلى القدس إلا متأخراً، أى فى آخر ذى القعدة 587هـ، إلا أنه أرسل إليها الملك العادل لتفقد أحوالها والنظر فى عمارتها [6]. وفضل أن

---

(1) النوادر السلطانية ص 188.

(2) معجم البلدان (4/122) آثار البلاد ص 222.

(3) النوادر السلطانية ص 189 كتاب الروضتين (2/192).

(4) الجيش الأيوبى ص 479.

(5) المصدر نفسه ص 480.

(6) النوادر ص 192 الجيش الأيوبى ص 480.

يقيم فى المناطق القريبة منها التى خربها الجيش، أى بالقرب من الرملة. وقصد من ذلك أن يكون قريباً من العدو، ومن القدس معاً، حتى إذا فكر العدو بالإغارة على القدس منعهم وتصادم معهم في لقاء مكشوف. وفى 6 شوال جمع صلاح الدين أكابر أمرائه وأرباب الأمراء فى دولته وشاورهم كيف يصنع إن خرج العدو، وكان قد تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج إلى العسكر الإسلامى، فاتفق الرأى على أنهم يقيمون فى منزلتهم، فإن خرج الفرنج كانوا على لقائهم[1]، وفعلاً وصل اثنان من الصليبيين المستأمنين إلى معسكره وأخبراه أن العدو على عزم الخروج بعد غد، ثم وصل أحد المسلمين الذى كان أسيراً لديهم، وهرب من معتقله، وأخبر أنهم ينوون الخروج. عندها بدأ صلاح الدين بتحصين القدس، وأرسل إلى البلاد يطلب رجالاً يقومون بهذه الأعمال، وعمل السلطان وأولاد، وأمراؤه فيها، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء [2]. ووصل من الموصل جماعة كبيرة تقدر بخمسين رجلاً من الحجازيين برسم قطع الصخور، لتقوية أسوار القدس وخندقها[3]، وحين انتهى من هذا العمل أمر الجاووش أن ينادى بالعسكر حتى يتجهز وشدت الرايات، للوقوف بوجه العدو، وفى هذا الوقت نكب الجيش الأيوبى بوفاة أبرز قواده، هو تقى الدين عمر فى منطقة الجزيرة، وقد تألم له السلطان كثيراً، إلا أنه أخفى الخبر عن العسكر لكى لا يصل الخبر إلى العدو فى تلك اللحظة الحرجة[4]. وكذلك توفى القائد الشجاع الأمير حسام محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، لمرض اعتراه، يوم وفاة تقى الدين عمر، وهو 19 من رمضان 587هـ/ خريف 1191م [5]، ويحتمل أن خبر استعدادات الجيش الأيوبى وصل إلى ريتشارد، فلم يشأ أن يلتقى معه فى مصاف، إضافة إلى إلحاح هذا الملك على مبدأ المفاوضات، لتكون الأساس للعلاقات بين الطرفين، كما أظهرت أحداث

(1) النوادر ص 196 – 197 الجيش الأيوبى ص 480.

(2) مفرج الكروب (2/375) كتاب الروضتين (2/194).

(3) مفرج الكروب (2/375) الجيش الأيوبى ص 481.

(4) النوادر السلطانية ص 198.

(5) الجيش الأيوبى ص 480 كتاب الروضتين (2/195).

الأيام التالية، فما أن حل الشتاء 587هـ/ 1191م إلا وتوقف الطرفان ولم يحصل أى صدام أو لقاء بينهما، فرحل صلاح الدين حين اشتدت الأمطار إلى القدس، وعاد الصليبيون إلى يافا، وذهب قسم منهم إلى عكا، لكن ريتشارد ما أنفك يبعث برسله إلى صلاح الدين ويحثه على الصلح. ونجد أن صلاح الدين كان غير متحمس فى عقد الصلح، لكنه كان يبغى الاستفادة من جو المفاوضات فى هذا الفصل الذى رحلت عنه جيوش أمرائه وقفلت راجعة إلى أوطانها، لذا طلب من الملك العادل - مرة أخرى - أن يماطل ريتشارد إلى أن تصل عساكر الأطراف، فغادر الملك العادل القدس فى بداية ربيع الأول سنة 588هـ/آذار 1192م[1]. إلا أن المفاوضات لم تثمر، عندها قامت جماعات من الصليبيين باحتلال بعض المدن والحصون التى كان دفاعها ضعيفًا، مثل مدينة عسقلان التى أعاد ريتشارد تعميرها [2]وجعلها أمنع قلعة على كل الساحل الفلسطينى [3]، وكذلك احتلوا حصن الداروم الذى أمر صلاح الدين بتخريبه فى وقت سابق وحين احتله ريتشارد نكل بالمدافعين عنه [4]، واحتلوا حصوناً ومواقع أخرى صغيرة على الساحل الفلسطينى[5].

تاسعاً: طبيعة المفاوضات بين العادل وريتشارد فى هذه المرحلة:

بدأت المباحثات فى 18 شوال سنة 588هـ/9 تشرين الثانى سنة 1192م عندما أرسل ريتشارد قلب الأسد رسالة إلى صلاح الدين من معسكره قرب بازور، يطلب منه الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح بحجة أن القتال أهلك كثيراً من قوى الطرفين وخربت البلاد[6]. لكن هذه المفاوضات، التى أناب فيها صلاح الدين

---

(1) النوادر السلطانية ص 205 الجيش الأيوبى ص 482.
(2) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبى ص 482.
(3) النوادر ص 210.
(4) الجيش الأيوبى ص 482.
(5) تاريخ الأيوبيين ص 193.
(6) النوادر السلطانية ص 292 تاريخ الأيوبيين ص 194.

أخاه العادل، لم تلبث أن تعثَّرت بسبب إصرار ريتشارد قلب الأسد على استعادة بيت المقدس والإقليم الواقع غرب الأردن بما فيه من حصون، وصليب الصلبوت، بالإضافة إلى تمسُّكه بعسقلان، وكلها شروط رفضها صلاح الدين. وعرض ريتشارد قلب الأسد بعد بضعة أيام مقترحات جديدة تقضى:

1- بأن يتزوج الملك العادل، أخو صلاح الدين، من الأميرة جوانا، أخت ريتشارد قلب الأسد وأرملة ملك صقلية.

2- يُعطى صلاح الدين أخاه كل ما بحوزته من أراضٍ فى فلسطين، ويمنح ريتشارد قلب الأسد أخته ما بحوزته من المدن الساحلية، بما فيها عسقلان التى احتلها مؤخراً.

3- يقيم العروسان فى بيت المقدس، ويتردّد النصارى على كنيسة القيامة.

4- يستعيد النصارى صليب الصلبوت.

5- يُطلق سراح الأسرى من الجانبين.

6- تُرَدُّ إلى الداوية والأسبتارية بعض القرى فى فلسطين دون الحصون[1].

رحَّب العادل بهذا العرض، ورأى فى ذلك "عين الصواب" ولعله هدف إلى توحيد المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام تحت حكمه، وإقرار الأمور فى تلك البلاد على أساس المحبة والارتباط بين الطرفين[2].

ورأى صلاح الدين فى هذا العرض نوعاً من المزاح، لكنه أبدى سروره للموافقة عليه، ويبدو أن قبوله بهذا المشروع سببه الاعتقاد بأن ملك إنكلترا لن يتمكن من تنفيذ مشروعه وأن هذا منه هزء ومكر[3] وسرعان ما ظهر أن العقبة فى سبيل تنفيذ ذلك المشروع جاءت من جوانا نفسها التى ارتاعت عندما سمعت بهذا العرض، وقالت بأنه ليس ثمة ما يدعوها لأن تتزوج من رجل مسلم، مما دفع

(1) الحركة الصليبية عاشور (882/2).

(2) النوادر السلطانية ص 293 تاريخ الأيوبيين ص 194.

(3) الجيش الأيوبى ص 482.

يريتشارد قلب الأسد أن يطلب من العادل أن يعتنق النصرانية لتذليل تلك العقبة، فرفض العادل ذلك[1].

والحقيقة أن قبول المسؤولين الثلاثة بهذا المشروع، إنما يدل على التقارب السياسى والحضارى فى بلاد الشام بعد مرور قرن على بداية الحروب الصليبية، بالإضافة إلى روح التسامح التى أخذت تنمو بوضوح فى بعض تصرفات الفريقين، بدليل أن الملك ريتشارد قلب الأسد اجتمع مع العادل على وليمة فاخرة أقيمت فى 18 شوال 588هـ ثم افترقا بعد أن تحقّقت بينهما أواصر الصداقة، وقد أبدى الملك الإنكليزى رغبة فى الاجتماع بصلاح الدين، لكن العادل رفض طلبه وقال: إن الملوك إذا اجتمعوا تصبح بينهم المخاصمة بعد ذلك، وإذا انتظم أمر، حسن الاجتماع [2]. ثم شُغل ريتشارد قلب الأسد بحلٍّ مشاكل الصليبيين وبخاصة الخلاف الحاد بين كونراد دى مونتفيرات وجاى لوزينان[3].

عاشراً: فقه سياسى صلاحى مواكب للحرب:

فى الوقت الذى كانت تدور فيه المفاوضات مع ريتشارد قلب الأسد، استقبل صلاح الدين رينولد صاحب صيدا، رسولا من قِبَل كونراد دى مونتفيرات، عرض عليه التحالف مقابل حصوله على صيدا وبيروت، بل إنه اقترح أن تعود عكا إلى المسلمين، وقد هدف بذلك إلى تحويل مسار المفاوضات لصالحه الخاص [4]. وعندما علم ريتشارد قلب الأسد بتحركات كونراد دى مونتفيرات، بذل جهوداً فى إعادته إلى الصف الصليبى، غير أن جهوده باءت بالفشل، وكرّر دى مونتفيرات محاولة التفاهم مع صلاح الدين وعقد صلاح الدين مجلساً لأركان حربه ليقرّر أىّ جانبى الصليبيين يمضى معه فى المحادثات، فرأى الملك العادل وبعض الأمراء الميل إلى المضى فى المحادثات مع الملك الإنكليزى لأنه سوف يغادر الشرق، فى حين أن

---

(1) تاريخ الأيوبيين ص 194.

(2) النوادر السلطانية ص 300 – 301 تاريخ الأيوبيين ص 194.

(3) تاريخ الأيوبيين ص 195.

(4) النوادر السلطانية ص 285 – 286، 297.

كونراد دى مونتفيرات كان ينوى البقاء والاستقرار فى فلسطين، فتقرر قبول مقترحات ريتشارد قلب الأسد من حيث[1] المبدأ. ومهما يكن من أمر محاولات التفاهم بين المسلمين والصليبيين وما وقع فى تلك الأثناء من قتال بينهما، وإن كان محدوداً، لم يعد ثمة ما يدعو إلى التقارب ووصلت فى غضون ذلك إلى مسامع ريتشارد قلب الأسد أخبار سيئة من الغرب إذ أن أخيه حنا قام بثورة ضده، مما تطلب منه العودة إلى بلاده بسرعة، لكنه لم يشأ مغادرة الشرق قبل أن يحل مشاكل الصليبيين الداخلية ويتفاهم مع المسلمين، وأما المشاكل الداخلية فقد حُلّت باغتيال كونراد دى مونتفيرات على يد الحشيشية فى 13/ربيع الآخر عام 588هـ/ 28 نيسان عام 1192م[2]، فتخلص ريتشارد قلب الأسد من خصم عنيد وتحكّم فى صور واختار هنرى دى شامبانيا لعرض مملكة بيت المقدس بعد أن تزوج من إيزابيلا أرملة كونراد ووريثة عرش المملكة [3]، وأما المشاكل مع الجانب الإسلامى، فقد تطلبت حلاً من نوع آخر يقوم على القوة وتطلع إلى استعادة بيت المقدس، فاستولى على قلعة الداروم فى 9 جمادى الأولى / 23 آيار، بعد مقاومة من جانب حاميتها، لكنه فشل فى الاستيلاء على مجدل يابا، فاتجه إلى عسقلان، ومنها شرع بالزحف نحو بيت المقدس، فوصل فى 27 جماد الأولى / 11 حزيران إلى بيت [4] نوبة، واستعد صلاح الدين من جهته لمقاومته فسار إلى بيت المقدس.

حادى عشر: تدابير صلاح الدين للدفاع عن القدس:

قام صلاح الدين بتدابير آنية للدفاع عن المدينة المقدسة منها:

1- قسّم أسوارها على أمرائه وجهّزهم بما يحتاجون إليه للمقاومة.

2- أفسد مصادر المياه المحيطة بالمدينة بحيث لم يبق حول بيت المقدس ما يُشرب أصلاً، مما سيجعل العدو فى حالة عطش شديد إذا حاول الهجوم عليها.

---

(1) تاريخ الأيوبيين ص 195.

(2) النوادر السلطانية ص 31 تاريخ الأيوبيين ص 195.

(3) تاريخ الأيوبيين ص 195.

(4) المصدر نفسه ص 196.

3- استدعى القوات من الأطراف، فجاءه الملك الأفضل مع العساكر الشرقية وبدر الدين دلدرم الياروقي من التركمان وعز الدين بن المقدم [1].

4- قيام فرسان المسلمين بشن غارات مفاجئة وخاطفة على معسكر الصليبيين[2].

ثم عقد صلاح الدين في 19 جماد الآخرة/ أول تموز، اجتماعاً في بيت المقدس، مع أركان حربه للتشاور في أفضل السبل للدفاع عن المدينة في وجه الحشود الصليبية، وطلب السلطان من القاضي ابن شداد أن يفتتح الجلسة، فتحدث هذا في بداية كلامه عن فضل الجهاد، ودعاهم إلى الاقتداء بالرسول الأعظم، فاستحسن الجميع كلامه، ثم سكتوا وكأن على رؤوسهم الطير، وبعد هنيهة شرع صلاح الدين في الكلام وضمن ما قاله: إن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، فإن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم، طوى البلاد كطي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم، فإن أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام [3] فانتدب لجوابه الأمير سيف الدين المشطوب وقال: يا مولانا، نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلا أن يموت. ووافق على كلام المشطوب بقية الحضور، فسر بذلك السلطان، لكن الأمراء سرعان ما تراجعوا عن موقفهم في اليوم التالي، كما أخبر بذلك أبو الهيجاء، فقد أعلنوا أن من الخطأ أن يحصروا أنفسهم داخل القدس لأنهم يخافون أن يجري عليهم ما جرى على أهل عكا.

وأنهم يرون أن يكون لقاؤهم خارج أسوار القدس، وقالوا: إن قدر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى - أي الهزيمة - سلم العسكر

---

(1) المصدر نفسه ص 196.

(2) المصدر نفسه ص 196.

(3) مفرج الكروب (386/2) الجيش الايوبي ص 485.

ومضت القدس[1]، لم يقتنع صلاح الدين بجواب الأمراء لأن أمر القدس عنده أمر عظيم لا تحمله الجبال، بل إنهم ردوا عليه بخشونة اعتادوا عليها منذ أمد كما ذكرنا، ويبدو أن الصراع بين عناصر جنده وأمرائه من الأكراد والتركمان قد ذر قرنه، وبلغ مستوى خطيراً وظهر ذلك من كلامهم حين قالوا: إنك إن أردتنا فتكون (داخل القدس) معنا، أو بعض أهلك، حتى نجتمع عنده وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك والأتراك لا يدينون للأكراد[2] والواقع أن صلاح الدين صار فى وضع لا يحسد عليه وقد أحس ابن شداد بهذا العجز بوضوح حين طلب منه أن يفوض أمره إلى الله، وأن يعترف بعجزه أمامه فيما تصدى له، لعل الله يستجيب لدعائه. وقد رآه المؤرخ وهو يصلى، ودموعه تتقاطر فى مصلاه حين يسجد ومر يوم الجمعة الثقيل، ثم جاء رجال استخباراته ليعلنوا أن الصليبيين قرروا إيقاف زحفهم تجاه القدس[3]. يقول ابن الأثير إن ريتشارد طلب من الصليبيين القدامى "الفرنج الشاميين" أن يصوروا له وضع مدينة القدس، والاستحكامات التى أقامها صلاح الدين حولها، فصوروا له كل ما طلب وحين دقق فى وضع المدينة قال: هذه مدينة لا يمكن حصارها ما دام صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة[4]. وهذا الموقف جعل الصليبيين ينقسمون بين من يطالب بالهجوم على القدس وبين من ينادى بالتوقف، وكان ريتشارد مع الفريق الثانى. فى حين كان الفرنسيون مع الرأى الأول حين قالوا: نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس، ولا نرجع دونها. ورد عليهم ريتشارد: إن هذا الموضع قد أُفسدت مياهه، ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب؟ فقالوا: نشرب من ماء نقوع[5]. الواقعة بالقرب من القدس بمقدار فرسخ ونكتفى بالشرب فى اليوم مرة واحدة [6] وقد لجأ الصليبيون إلى مبدأ

(1) مرآة الزمان (8/416) الجيش الأيوبى ص 485.

(2) النوادر السلطانية ص 217 الجيش الأيوبى ص 485.

(3) الجيش الأيوبى ص 486.

(4) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبى ص 486.

(5) نقوع: قرية من قرى بيت المقدس.

(6) النوادر ص 217 ـ 218 الجيش الأيوبى ص 486.

الانتخاب، وأخذ الأصوات، لتحكيم رأى الأغلبية، فكان القرار هو إيقاف الهجوم فرحلوا نحو الرملة[1]، وسر بذلك السلطان كثيراً [2].

ثانى عشر: معركة يافا:

تُعد معركة يافا وما نتج عنها، آخر صدام مسلح بارز وقع بين المسلمين وصليبيى الحملة الثالثة، وكان ريتشارد قلب الأسد قد اتخذ من هذه المدينة قاعدة لجيشه إثر انتصاره على صلاح الدين فى أرسوف، نظراً لقربها من بيت المقدس [3] وفى الوقت الذى كانت المفاوضات دائرة بين الطرفين الإسلامي والصليبى بشأن عقد الصلح، غادر ريتشارد قلب الأسد يافا إلى عكا، وقد أعدَّ خطة للإقلاع إلى بلاده إذا لم يتم، حتى وقتذاك، توقيع معاهدة مع المسلمين، وتقضى هذه الخطة بالزحف نحو بيروت، ثم يبحر منها إلى أوروبا [4].

وقد هيأ هذا التحرك فرصة لصلاح الدين استغلها فى تنظيم حملة على يافا، ومن المحتمل أنه استهدف تحقيق أربعة أهداف :

– أنه أراد الحصول على يافا فى غياب الملك الإنكليزى.

– أمل فى تحقيق انتصار حاسم على الصيبيين فى يافا.

– محاولة رفع معنويات جنوده.

– منع ريتشارد قلب الأسد من احتلال بيروت [5].

وما كاد صلاح الدين يقترب من يافا فى 15 رجب 588هـ / 27 تموز 1192م حتى توجهت رسالة عاجلة إلى ريتشارد قلب الأسد تحمل إليه نبأ الهجوم على يافا، فبادر إلى النهوض لنجدتها متخذاً فى تقدمه طريق البحر، يسانده البيزيون

---

(1) شفاء القلوب ص 175 الجيش الأيوبى ص 487.

(2) الجيش الأيوبى ص 487.

(3) تاريخ الأيوبيين فى مصر وبلاد الشام والجزيرة ص 199 .

(4) تاريخ الأيوبيين ص 199.

(5) المصدر نفسه ص 199.

والجنويون، بينما أرسل جيشاً بطريق البر، غير أن الرياح العكسية حجزته عند رأس جبل الكرمل، ولم يشأ أفراد الجيش البرى أن يبلغوا يافا قبل قدوم ملكهم، لذلك تمهلوا فى سيرهم[1] وقد أتاح هذا التطور العسكرى فرصة طيبة للمسلمين لتحرير يافا، وفعلاً دخلوا المدينة يوم الجمعة فى 18 رجب/30 تموز بعد قتال مرير مع حاميتها وضربوا حصاراً على قلعتها، فاضطر الصليبيون إلى طلب الصلح، وفى الوقت المحددً لتسليم القلعة إلى المسلمين هبط ريتشارد قلب الأسد إلى البر وشن هجوماً مضاداً واستطاع دخول المدينة وحمل المسلمين على الخروج منها، وسحب صلاح الدين جيشه من المدينة[2]، وكان المرض قد اشتد على ريتشارد واستمر فى إرسال الرسل تتردد على صلاح الدين فى طلب الفاكهة والثلج كما أوقعه مرضه فى شهوة الكمثرى والخوخ، وكان صلاح الدين بتسامحه يمده بذلك[3]، وجدّد ريتشارد قلب الأسد عرض الصلح على صلاح الدين مدفوعاً بعدة عوامل منها:

- لقد ألمّ به المرض واشتد عليه، فتدهورت صحته بشكل ملحوظ حتى عجز عن قيادة قواته، والتخطيط السليم.
- وردت إليه أخبار أخرى مزعجة من إنكترا تفيد بأن أخاه يوحنا ارتكب من الأعمال السيئة ما تتطلب عودة عاجلة.
- انقطاع النجدات العسكرية من أوروبا.
- يئس من استرداد بيت المقدس.
- ما حلَّ بالصليبيين من الإرهاق وما أظهره كل من ابن أخته هنرى والطوائف الدينية والعسكرية، من عدم الثقة فى سياسته[4].

وأشار صلاح الدين إلى الأسباب التى دعته إلى قبول الصلح ومنها:

---

(1) المصدر نفسه ص 200.
(2) المصدر نفسه ص 200.
(3) المصدر نفسه ص 200.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 201.

- النزاع بين الأكراد والأتراك في جيشه.

- سآمة العساكر ومظاهرتهم بالمخالفة.

- ازدياد قوة العدو.

- خشيته من حدوث الخلاف بعد وفاته داخل أسرته، وانصرافهم عن الاهتمام بالمصلحة العامة(1).

ثالث عشر: المفاوضات وصلح الرملة:

استمرت المفاوضات مع الفرنج خمسة عشر شهراً واقتضت 42 وفداً ومفاوضة تتقطع وتتصل، وكان البادئ في طلبها دوماً ملك الإنكليز ريتشارد (2) وأهم هذه المراحل التي مرت بها المفاوضات حتى توجت بالصلح:

المرحلة الأولى: بعد عشرة أيام فقط من وصول الملك الإنجليزي ريتشارد بادر بإرسال رسول إلى صلاح الدين وقد سمح للرسول بالتوجه إلى الملك العادل أولاً، فاستصحبه إلى صلاح الدين، وكان موجز الرسالة التي أرسلها ريتشارد تتلخص في أن ملك الإنجليز يطلب الاجتماع بصلاح الدين، ولما علم صلاح الدين بذلك أجاب دون تردد وقال إن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة أي هدنة، وإذا أراد ريتشارد الاجتماع بصلاح الدين فلابد من تقرير الهدنة قبل الاجتماع ولابد من ترجمان موثوق به بين الطرفين يفهم كل ما يقوله الطرف الآخر، وإذا تقررت الهدنة تم الاجتماع بالملك الإنجليزي. عاد الرسول إلى ريتشارد وعاد مرة أخرى وكان حديثه مع الملك العادل وانتهى الأمر بالاتفاق على اجتماع العادل مع الملك ريتشارد في مرج عكا والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان وعاد الرسول ولكنه تأخر عدة أيام بسبب المرض، والراجح أن ريتشارد هو الذي كان مريضاً وليس الرسول، وفي رواية أخرى أن القادة الصليبيين أنكروا فكرة الصلح مع المسلمين وقالوا: هذه مخاطرة بدين النصرانية، وقد عاد الرسول مرة أخرى واعتذر عن

(1) المصدر نفسه ص 201.

(2) صلاح الدين المفترى عليه ص 325.

التأخير بسبب المرض. ومما قاله الرسول إن "الملوك" إذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا، وأضاف: عندى ما يصلح للسلطان وأنا أستخرج الإذن فى إيصاله إليه، فوافق الملك العادل بشرط إرسال هدية فى المقابل للملك الإنجليزى، فرضى الرسول وقال: الهدية شيء من الجوارح قد جلبت من وراء البحر، وقد ضعفت فيحسن أن تقدموا لنا طيراً ودجاجًا حتى نطعمها فتقوى ونحملها إليكم. فداعبه الملك العادل وقال: الملك قد احتاج إلى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة، فانقطع الحديث عدة أيام، ثم عاد الرسول ومعه إنسان مغربى مسلم قد أسره الصليبيون من مدة طويلة هدية إلى السلطان فقبله وأطلقه، وأعاد الرسول مكرما[1]. وقد بلور المؤرخ ابن شداد الأسباب الحقيقية التى تكمن وراء تبادل الرسل، فقال: وكان غرض الصليبيين بتكرار الرسائل تعرُّف قوة النفس وضعفها عند المسلمين، وكان غرض المسلمين بقبول الرسائل تعرُّف ما عند الصليبيين من ذلك[2].

المرحلة الثانية: ففى التاسع من جمادى الآخرة عام 587هـ/الرابع من يوليو 1191م أثناء القتال فى عكا بين المسلمين والصليبيين عندما قررت حامية عكا الإسلامية التخلى عن القتال وأرسلت إلى ريتشارد رفض عرض حامية المدينة، إلا أنه أرسل فى اليوم نفسه ثلاثة رسل إلى صلاح الدين يطلبون فاكهة وثلجاً، وقد ذكر الرسل أن مقدم الأسبتارية جارنيه سيحضر فى اليوم التالى للتحدث فى معنى الصلح. وقد أكرم صلاح الدين الرسل وأدخلهم سوق العسكر وشاهدوه وعادوا فى اليوم نفسه إلى عسكرهم، وقد أعقب ذلك استسلام مدينة عكا للصليبيين واستقبال صلاح الدين لسفراء الصليبيين حول تسليم عكا، وهو جانب يتعلق بمدينة عكا فقط، وقد سبق أن أوضحناه ولا يمس جوهر قضية الصلح العامة التى نناقشها على هذه الصفحات[3].

(1) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران ص 175.

(2) المصدر نفسه ص 175.

(3) تاريخ الحروب الصليبية ص 177.

المرحلة الثالثة: وكانت المرحلة الثالثة من المفاوضات فى المرحلة السابقة لمعركة أرسوف، ففى الحادى عشر من شعبان 587هـ/ الثالث من سبتمبر 1191م أتت بعض رسل الصليبيين تطلب التحدث إلى الملك العادل، فسمح لهم وكان حاصل حديث الرسل "إنه قد طال القتال، وإنه قتل من الجانبيين الرجال والأبطال وإنا نحن جئنا فى نصرة فرنج الساحل، فاصطلحوا أنتم وهم، وكل منا يرجع إلى مكانه" . وعلم صلاح الدين بمضمون أفكار الرسل فكتب إلى أخيه العادل يطلب منه إطالة الحديث مع الرسل حيث تصل النجدات الإسلامية، وفى اليوم التالى اجتمع الملك العادل بالملك الإنجليزى ريتشارد وتولى الترجمة همفرى سيد تبنين وسأل العادل ريتشارد عن شروطه حول عقد الصلح، فذكر له "القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا وتنصرفون إلى بلادكم" ومعنى ذلك عودة الحال إلى ما قبل معركة حطين، ولم يقبل الملك العادل مثل هذه الشروط فأخشن للملك الإنجليزى الجواب، وجرت منافرة اقتضت رحيل الملك الإنجليزى ورفاقه، ثم كانت معركة أرسوف التى انتصرت فيها القوات الصليبية، وإن كان نصراً غير حاسم، وبعد ثمانية أيام وأثناء إقامة القوات الصليبية بقيادة ريتشارد فى مدينة يافا، وقيام صلاح الدين بتخريب مدينة عسقلان وصل فى التاسع عشر من شعبان 587هـ/الحادى عشر من سبتمبر 1191م إلى صلاح الدين من أخبره من جانب الملك العادل أن الصليبيين تحدثوا معه فى أمر الصلح وأن شروطهم إعادة جميع البلاد الساحلية، فطلب صلاح الدين من أخيه العادل فتح باب المفاوضات لما رآه فى نفوس المسلمين من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة، كما طلب منه أيضاً إطالة أمد المفاوضات حتى يتم تخريب عسقلان.وفى خلال الأيام التالية وقع حادث له مغزاه فى تاريخ الحملة الصليبية الثالثة، ففى الثانى عشر من رمضان 587هـ/الثالث من أكتوبر وصلت رسل من جانب كونراد الذى تصفه المصادر العربية باسم المركيس، كونراد قد استشعر أن الصليبيين يريدون الاستيلاء على صور، فانحاز عن قوات الحملة الصليبية الثالثة، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب الصلح مقابل إعطائه صيداً وبيروت، مقابل مجاهرة ريتشارد بالعداوة والسير بقواته إلى عكا ومحاصرتها

والاستيلاء عليها. والمعروف أن كونراد كان خبيثاً ملعوناً، لذلك أراد صلاح الدين معرفة حسن نواياه، فطلب منه فى بداية الأمر القيام بحصار عكا والاستيلاء عليها، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين فى عكا وصور، ثم يقوم صلاح الدين بعد ذلك بتسليمه صيدا وبيروت. وفى عشية اليوم نفسه وصلت رسل الملك ريتشارد للحديث مرة أخرى فى مسألة الصلح، وعلم ريتشارد بالسفارة التى أرسلها كونراد إلى صلاح الدين، فعاد إلى عكا للعمل على فسخ فكرة المصالحة التى شرع فيها كونراد، والعمل أيضاً على ضم كونراد إلى صفوف القوات الصليبية، ومما لا شك فيه أن ما حدث جعل صلاح الدين يدرك مدى الشقاق بين الصليبيين المحليين وقوات الحملة الثالثة، كما أدرك ريتشارد أن ما حدث من كونراد يعتبر موجهاً إليه وإلى قوات الحملة الثالثة التى عانت وتكلفت الكثير للدفاع عن الصليبيين المحليين، وكان لذلك كله أكبر الأثر على سير المفاوضات وشروطها فى المراحل المقبلة [1].

المرحلة الرابعة: وفى الرابع والعشرين من رمضان 587هـ/الخامس عشر من أكتوبر 1191م وصل رسول من قبل الملك الإنجليزى ريتشارد ومعه خصان هدية إلى الملك العادل فى مقابل هدية كان قد أرسلها إليه الملك العادل، وكان ذلك مقدمة لمفاوضات المرحلة الرابعة، وبعد يومين أرسل ريتشارد يطلب من الملك العادل إيفاد رسوله للتحدث فى أمر الصلح، فأجابه العادل إلى طلبه وذهب رسول العادل واجتمع بالملك ريتشارد. ومما قاله الملك فى طلب الصلح: إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الأمر حقه وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد. أما القدس فمتعبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم.

(1) تاريخ الحروب الصليبية ص 177.

وعندما بلغ الملك العادل ما يطلبه ريتشارد، قام العادل بدوره بإبلاغه إلى صلاح الدين الذى قال فى رد الجواب للملك الإنجليزى "القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهى أيضاً لنا فى الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين فى ذلك الوقت وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هى أوفى منها [1]. وبعد ثلاثة أيام عاد رسول الملك ريتشارد من يافا بمقترحات جديدة، وموجز هذا العرض أن يتزوج الملك العادل من جوانا ملكة صقلية السابقة أخت الملك ريتشارد، وأن يكون مستقر ملكهما القدس الشريف وأن يقدم لها ريتشارد بلاد الساحل التى فتحها من عكا إلى يافا وعسقلان وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، وأن يعطى صلاح الدين أخاه العادل جميع بلاد الساحل ويجعله ملكا عليها بالإضافة إلى ما فى يده من البلاد والأقطاع، وأن يسلم إليه صليب الصلبوت وتكون القرايا للداوية والاسبتارية والحصون لهما، وإطلاق سراح أسرى الجانبين ويرحل ملك إنجلتر إلى بلاده. ولما أُبلغ صلاح الدين بمقترحات الملك الإنجليزى، بادر بالموافقة معتقداً أن ريتشارد لا يوافق عليه، وأن هذا منه هزو ومكر، أى نوع من المزاح، ولما علمت جوانا باقتراح أخيها بزواجها من الملك العادل غضبت وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك. لذلك عرض ريتشارد دخول العادل فى الديانة المسيحية ولكن العادل رفض قبول ذلك، وترك باب المفاوضات مفتوحاً [2].

المرحلة الخامسة: وسارت المرحلة الخامسة من المفاوضات فى خطين متوازيين، الخط الأول يتعلق بالمفاوضات مع رسل كونراد والخط الثانى مرتبط بالمفاوضات مع الملك الإنجليزى ريتشارد، وبدأت هذه المرحلة فى الخامس عشر من شوال 587هـ/الخامس من نوفمبر 1191م عندما وصل رينالد جارنييه حاكم صيداً

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية ص 178 كتاب الروضتين (4/286).

(2) المصدر نفسه ص 179.

كرسول من جانب كونراد، ويفهم من النصوص التاريخية أن المحادثات مع كونراد لم تنقطع، وقد أحسن المسلمون استقبال المبعوث حتى يتم تدبير اللقاء مع صلاح الدين، وبعد أربعة أيام استقبل صلاح الدين رينالد جارنييه وأكرمه إكراماً عظيماً، وتصف المصادر الإسلامية كونراد بأنه كان أشد الصليبيين بأسا وأعظمهم فى الحرب مراساً، وأثبتهم فى التدابير أساساً، وكان عرض كونراد يتلخص فى تنازل المسلمين له عن صيدا، ويتحالف مع المسلمين ضد قوات الحملة الصليبية الثالثة ويجاهرها بالعداوة. وقد استمع صلاح الدين إلى هذه المقترحات من المبعوث ووعده بأن يرد عليه الجواب فيما بعد، وفى اليوم الذى استقبل فيه صلاح الدين مبعوث كونراد، وصل فى المساء همفرى سيد تبنين كرسول من الملك الإنجليزى ريتشارد فاستقبله صلاح الدين وقدم المبعوث الصليبى مقترحاته، والملاحظ أن الحرب ظلت قائمة طوال هذه المشاورات. وفى الرابع من ربيع أول عام 588هـ/العشرين من مارس 1192م خرج العادل من القدس ومعه عرض للصلح محدد يقضى بأنه يمكن للصليبيين أن يضموا إليهم مدينة بيروت إذا أصروا على طلبها بشرط أن تظل خراباً ولا تعمر وكذلك القابون، ويسلم لهم صليب الصلبوت، وأن يعين قسيساً من الفرنجة لكنيسة القيامة، ويفتح للصليبيين أبواب مدينة القدس للزيارة بشرط عدم حمل السلاح(1) وكان الدافع لهذه المقترحات الجديدة ما عاناه المسلمون من تعب فى مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الأوطان، وزادت رغبة الملك ريتشارد في عقد الصلح والعودة إلى وطنه، عندما وصل إلى معسكره مبعوث قادم من إنجلترا يخبره أن الأمير يوحنا شقيق الملك ريتشارد يتطلع إلى السلطة والسيطرة على إنجلترا ويطالبه باسم كبير وزراء إنجلترا بالعودة إلى البلاد، وقد أقلقت هذه الأخبار ريتشارد، يضاف إلى ذلك أنه فى حوالى العشرين من مارس 1192م/الرابع من ربيع أول 588هـ قام هيودوق برجانديا الذى كان يتولى قيادة ما تبقى من القوات الفرنسية باستدعائها من معسكر ريتشارد؛ لأن الملك لا يمد هذه القوات بالمواد الضرورية اللازمة للقتال، وفى الشهر

(1) تاريخ الحروب الصليبية ص 181.

التالى اغتيل كونراد كما سبق أن أوضحنا لتبدأ مرحلة أخرى من المفاوضات فى ظروف تختلف عن الظروف السابقة، فقد اختفى كونراد عن مسرح السياسة الصليبية، والحالة فى إنجلترا أصبحت حرجة وعلى الملك الإنجليزى إنهاء الحرب والعودة إلى بلاده [1].

المرحلة السادسة: كانت المرحلة السادسة والأخيرة من المفاوضات طويلة ومعقدة، فقد استمرت حوالى خمسة شهور[2] وفى 22 شعبان عام 588هـ/2أيلول عام 1192م حملت رسل صلاح الدين العرض النهائى فوقعه ريتشارد قلب الأسد وأثبت هؤلاء أسماءهم إلى جانب اسمه على المعاهدة التى تنص على ما يلى:

- يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور شمالاً إلى يافا جنوبا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف.
- تكون عسقلان بأيدى المسلمين، على أن يجرى تخريبها.
- يتقاسم المسلمون والصليبيون، اللد والرملة، مناصفة.
- يحق للنصارى زيارة بيت المقدس بحريّة.
- للمسلمين والنصارى الحق فى أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر.
- مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

واشترط صلاح الدين دخول بلاد الحشيشية فى الصلح، بمعنى أن المناطق التى يسيطر عليها هؤلاء تُعدُّ جزءاً من المناطق الإسلامية التى شملتها المعاهدة، وفى المقابل اشترط ريتشارد قلب الأسد دخول كل من صاحب أنطاكية وطرابلس [3].

ولما تمت الهدنة أذن صلاح الدين للصليبيين بزيارة بيت المقدس، واختلط عسكر المسلمين بعسكر الصليبيين وذهبت جماعة من المسلمين إلى يافا فى طلب التجارة، كما وصل خلق عظيم من الصليبيين إلى القدس للحج، وأنفذ صلاح

(1) تاريخ الحروب الصليبية ص 182.

(2) المصدر نفسه ص 182.

(3) تاريخ الأيوبيين ص 202 الدبلوماسية الإسلامية ص 394.

الدين الخفراء يحفظونهم وغرضه من ذلك أن يقضوا وطرهم من الزيارة ويرجعوا إلى بلادهم[1].

نتائج الحملة الصليبية الثالثة وأهم الأحداث قبل وفاة صلاح الدين:

1- برحيل ريتشارد قلب الأسد إلى بلاده، بعد صلح الرملة بلغت الحملة الصليبية الثالثة نهايتها، فلن يتوجه إلى الشرق الأدنى الإسلامى مرة أخرى، هذا الحشد من الملوك والأمراء، ومع أن أوروبا الغربية اتحدت فى ذلك العمل، وجهّزت حملة كانت من أكبر الحملات الصليبية، فإن ما حصلت عليه من نتائج كان ضئيلاً وما حدث من إنقاذ صور على يد كونراد دى مونتفيرات، ومن نجدة طرابلس من قِبل الأسطول الصقلى، إنما جرى قبل وصول أفراد الحملة الصليبية الثالثة، وكل ما أسهم به هؤلاء لم يتعدَّ الاستيلاء على عكا والمدن الساحلية حتى يافا، فضلاً عن جزيرة قبرص، على أن أمراً واحداً قد تحقَّق هو توقف نشاط صلاح الدين فى الفتح [2].

2- يعدُّ المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة فى تاريخ الحروب الصليبية، لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بُذل فيها من جهد ضخم، فضلاً عن أنها لم تنجح فى تحقيق الهدف الذى جاءت من أجله وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين.

3- شاركت الظروف السياسية والعسكرية التى واجهت هذه الحملة وأحاطت بها فى هذه النهاية الفاشلة، إذ ليس فى استطاعة جيش تجرَّد من القيادة الموحدة، وفرّقته المنازعات السياسية، وقاتل فى أرض أجنبية، أن يحرز النصر على جيوش جمع بينها وحدة الصف والهدف، وانضوت تحت قيادة رجل واحد مثل صلاح الدين.

4- كان من بين عوامل الفشل أن ملكىْ إنكلترا وفرنسا حملا معهما إلى الشرق ما بينهما من منازعات سياسية محلية، على الرغم من اتفاقهما على التغاضى قبل أن يتحركا من أوروبا الغربية.

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 280.

(2) تاريخ الأيوبيين ص 204.

5– اختلف الطابع الروحى للحملة، إذ لم يكن للبابا دور كبير فى توجيهها، كما حدث فى الحملة الصليبية الأولى، وطغى عليها الطابع السياسى بما يحمل من خلفيات متناقضة [1].

6– استمرار تماسك الجبهة الإسلامية بعد أن اختفت المنازعات الدينية والسياسية على الرغم من تراجع قوة المسلمين العسكرية بسبب الإرهاق والتعب، إذ تحتَّم على القوات الإسلامية أن تقوم بأعمال عسكرية مستمرة مدة ثلاث سنوات وفى ظروف غير عادية، بالإضافة إلى ما حصل من تشنجات سرعان ما امتصها صلاح الدين بحكمته، نذكر منها النزاع الذى حصل بين العناصر التركية والعناصر الكردية فى جيشه [2] ولولا رحمة الله ثم قيادة صلاح الدين لكانت الخسائر كبرى وبشكل غير متصور، ولكن حسن قيادة صلاح الدين وصمود المسلمين فى وجه هذه الحملة الشرسة أربك ملوك أوروبا وأفشل مخططاتهم ولم يستطيعوا إرجاع بيت المقدس، وهذا يعتبر انتصاراً عظيماً لصلاح الدين على الرغم من الخسائر التى لحقت بالمسلمين.

7– تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين، فكان الطرفان شديدى الصلة ببعضهما وتعدّى ذلك إلى طرح مشروع المعاهدة، وإرسال الفواكه والثلج لريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه وحضور طبيب صلاح الدين الخاص لمعالجته [3] وكان من هذا الاختلاط فى حياة الفرنج ما يأتى:

I– نقلوا عن المسلمين كثيراً من العلوم والمعارف التى كانت سائدة بينهم فى تلك الفترة وقد ألفوا فيها كتباً احتوت كثيراً من التجديد والابتكار ووضع قوانين فى هذه العلوم[4].

II– نقلوا عن المسلمين كثيراً من الصناعات والفنون مثل صناعة النسيج والصباغة والميناء والمعادن والزجاج، كما نقلوا عنهم فن العمارة، وكان لهذا النقل

---

(1) المصدر نفسه ص 205.

(2) تاريخ الأيوبيين ص 205.

(3) المصدر نفسه ص 205، الفتوح الإسلامية عبر التاريخ ص 299.

(4) أسباب الضعف فى الأمة الإسلامية ص 218.

تأثير عميق فى حياة أوروبا الصناعية والتجارية والفنية. يقول جوستاف لوبون: ولم يكن تأثير الحروب الصليبية فى الصناعة والفنون أقل من ذلك... ثم يقول: وعن المسلمين أخذت أوروبا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة.. ولم يلبث فن العمارة أن تحول فى أوروبا تحولاً تاماً [1].

III- تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية تأثراً أدى إلى نمو الحضارة الغربية وازدهارها، ولولا الحرب الصليبية لتأخر نمو الحضارة فى أوروبا تأخراً لا يعلمه إلا الله، ولقد اعترف المنصفون من المستشرقين بهذه الحقيقة قبل أن يقولها مؤرخو المسلمين [2].

يقول لوبون: ولكنا إذا نظرنا إلى النتائج البعيدة التى أسفرت عنها الحروب الصليبية، تجلت لنا أهمية تلك النتائج، فقد كان اتصال الغرب بالشرق مدة قرنين - أى مدة التواجد الصليبى فى بلاد المسلمين - من أقوى العوامل على نمو الحضارة فى أوروبا، وتكون الحروب الصليبية قد أدت بهذا إلى نتائج غير التى نشدتها، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل المسلمين، وأما الغرب، فكان غارقاً فى بحر الهمجية [3].

ذلكم هو ما أفادته أوروبا من الحروب الصليبية، وهى، وإن منيت بخسائر فادحة وهزائم قاتلة، لم تحقق الهدف الذى جاءت من أجله، وهو استعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين إلا أنها كسبت من وراء ذلك هذه المكاسب العظيمة التى نهضت بأوروبا وأسرعت فى إيصال الحضارة إليها [4] وأما المسلمون فإنه لم يكن لدى الصليبيين ما يمكن أن يستفيد منه المسلمون، فقد كانوا فى سلوكهم وحوشا ضارية، وأنهم كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحونهم على حد سواء [5]. ولقد وصف أسقف عكا الصليبى (جاك دوفيترى) الغزاة بقوله: وكان

(1) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ص 336، 337.

(2) أسباب الضعف فى الأمة الإسلامية ص 219.

(3) حضارة العرب ص 223، 224.

(4) اسباب الضعف فى الأمة الإسلامية ص 219.

(5) المصدر نفسه ص 220.

لا يُرى منهم فى أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين، والمهرجين والرهبان والدّعار والراهبات العواهر[1]) وكان مع الحملة الصليبية جيش العواهر الذى جلب خصيصاً للترفيه عن المقاتلين، لم يقتصر على جنود الصليبيين، ولكنه تعدى ذلك إلى صفوف الفجرة والفسقة من المسلمين [2]. يقول ابن كثير: وأمداد الفرنج تصل من البحر من كل وقت حتى إن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال ومنهن من تأتى بنية راحة الغرباء، لينكحوها فى الغربة، فيجدون راحة وخدمة وقضاء وطر، فإذا وجدوا ذلك ثبتوا على الحرب والغربة، حتى إن كثيراً من فسقة المسلمين تحيزوا إليهم من أجل هذه النسوة، واشتهر الخبر بذلك[3] وذِكر المؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا: أن وصل مركب فيه ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعت من جزر البحر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن عن العُزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القُربان، وزعمن أن هذه قربة، ما فوقها قربة، ولاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزوبة [4]. ويقول أيضاً: وخرجت النساء للإسهام فى الحملة الصليبية الثالثة فمنهن من خرج وقد لبسن الدروع، وكنّ فى زى الرجال للاشتراك فى المعارك بأنفسهن، لاعتقادهن أن ذلك عبادة[5]، ومنهن من خرجن لإسعاف الغرباء، وإسعاد الصليبيين بتسبيل أنفسهن للاستمتاع بهن حتى لا يتسرب الملل إلى نفوس المحاربين [6].

8- **فقه المصالح والمفاسد**: جاء صلح الرملة بسبب ظروف عسكرية واقتصادية جعلت صلاح الدين يقبل به، مع علمه بأن الموقف الفرنجى كان ضعيفاً، فقد كانت تقديرات رجاله ومستشاريه بأن مغادرة القوى العسكرية الفرنجية إلى

---

(1) المصدر نفسه ص 222.

(2) المصدر نفسه ص 222.

(3) البداية والنهاية نقلاً عن أسباب الضعف فى الأمة ص 222.

(4) كتاب الروضتين (2/149) الجهاد والتجديد ص 281.

(5) الجهاد والتجديد ص 281.

(6) المصدر نفسه ص 281.

بلادهم هى من صالحهم، وأن بقاءهم سيؤدى إلى قدوم قوات أوروبية جديدة ستحدث الضرر بالمعسكر الإسلامى [1]. وإذا نظرنا فى تاريخ المعاهدات والاتفاقات والهدن التى عقدها المسلمون مع الفرنج، كعماد الدين ونور الدين محمود زنكى وصلاح الدين نلاحظ أنها كانت محددة الأهداف وهى إعطاء فرصة للقوات الإسلامية للاستعداد وزيادة إمكاناتها القتالية للقيام بجولة أو جولات قادمة ضد الفرنج، ومعظم هذه الاتفاقات كانت بطلب من الفرنج أنفسهم، ولم يكن الزعماء المسلمون يتوانون عن عقدها، لما فيها من مصلحة لهم، إما لمحاربة إمارات أخرى لم تعقد معهم المعاهدات، أو للتسهيل على المسلمين وحرية تنقلهم وسفرهم بين مصر وبلاد الشام، ولتسهيل مهمة تنقل القوافل التجارية عبر المنطقة العربية أو لتوفير الأمن والاطمئنان لقوافل الحجاج لأداء مناسك الحج دون خطر، وأما الصلح الأخير وهو صلح الرملة، فقد حدد بثلاث سنوات، ووجد صلاح الدين ومستشاروه أن المصلحة فى عقده بسبب سوء الأحوال الصحية التى ألمت بجنده بالإضافة إلى الإرهاق والتعب الذى عانوه، فكانوا يرون أنها فرصة للاستعداد لجولات ومعارك قادمة[2] فابن شداد يقول : ورأى السلطان ذلك مصلحة لما غشى الناس من ضعف وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان . . . فرأى أن يجمهم مدة حتى يستريحوا وينسوا هذه الحالة التى صاروا إليها ويعمر البلاد، ويشحن القدس بما يقدر عليه من الأسلحة ويتفرغ لعمارته[3] ويذكر ابن شداد كذلك أن صلاح الدين لم يكن راضياً عن هذا الصلح، ولكنه رأى المصلحة فى الصلح لسآمة العسكر، ومظاهرتهم بالمخالفة، ويرى ابن شداد أن الصلح كان فى مصلحة المسلمين، لأن صلاح الدين توفى بُعيد عقده؛ ولو اتفقت وفاته أثناء المعارك المحتدمة بين المسلمين والفرنج، لكان الإسلام على خطر، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة [4] .

(1) معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج ص 43.

(2) المصدر نفسه ص 57.

(3) النوادر السلطانية ص 233.

(4) النوادر السلطانية ص 235 معاهدات الصلح والسلام ص 58.

9- **مقتل ريتشارد قلب الأسد**: بعد صلح الرملة أبحر ريتشارد من عكا عائداً إلى بلاده وغرقت سفينته فى البحر واستطاع أن يصل إلى الشاطئ سالماً، ثم توغل فى أرض النمسا متنكراً، حتى اكتشف أمره فى إحدى الحانات بالقرب من مدينة فيينا فى 11 كانون الأول (ديسمبر) 1192م فاقتيد إلى ليوبولد دوق النمسا الذى اتهمه بقتل المركيز كونراد مونتفرات وأراد الدوق أن يبيعه فتقدم أعداؤه لشرائه إلا أنه ما لبث أن سلمه هنرى السادس إمبراطور الدولة الجرمانية المقدسة فبقى فى أسره حتى دفع فدية كبْيرة[1] ، وقد أطلق سراح ريتشارد قلب الأسد فى آذار (مارس) 1194م، وظل يقاتل خصومه من الأمراء حتى أصيب بسهم قاتل فقضى نحبه فى 26 آذار عام 1199م [2].

10- **طلبات من ديوان العزيز**: وبعد خراب عسقلان وصل من دمشق كتاب من النواب بها وفى طيه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوى يتضمن فصولاً ثلاثة: الأول: الإنكار على الملك المظفر فى مسيره إلى بكتمر والثانى: الإنكار على مظفر الدين فى مسك حسن بن قفجاق والأمر بإعادته إلى الكرخانى. الثالث: فيه الأمر بإحضار القاضى الفاضل إليهم ليقال له أشياء: فأجاب السلطان عن الأول بأنا لم نأمره بذلك وعن الثانى بأن ابن قفجاق لا يخفى ما تصدى له من الفساد فى الأرض، وعن الثالث بأنه كبير الأمراض وقوته تضعف عن الحركة[3] إلى العراق. وكتب القاضى الفاضل فى الاعتذار بالحضور إلى الدِّيوان تمثل فى كتابه بهذين البيتين:

ما كنت أول سارٍ غرَّه قَمَرٌ ... ورائد خدعته خُضْرَةُ الدِّمَنِ
مَثِّلْ لنفسكَ شخصى إننى رجلٌ ... مِثلَ الْمُعَيْدِى فاسمع بى ولا تَرَنى[4]

(1) صلاح الدين الأيوبى قدرى قلعجى ص 329.
(2) المصدر نفسه ص 329.
(3) الموسوعة الشاملة فى تاريخ الحروب الصليبية (24/205)
(4) كتاب الروضتين (4/285).

11– ما قاله الرشيد ابن النابلسي في قصد الفرنج للسلطان بالقدس:

من جملة قصيدة:

ويح الفــرنجــة بل أمّــهم أوَمــا فيــهم لبيب على العِلات يعتبر
فكم نَثَرتَهُمُ ضربا إذا انتظموا وكم نظمتهم طعناً إذا انتشروا
كم قد سَقَيْتَهُمُ ذُلاً فلا عجب إن عربدوا سفها بالقوم قد سَكِرُوا
إن يمّموك فلا بِدعٌ لجهلهم تسعى إلى الأسد في غاباتها الحُمرُ
زاروا نموراً ولا تُغني وقاحتهم إذا أُسودك في أبطالهم زأروا
فَحَامِ عن حوطة البيت المقدس لا خوفٌ وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصماً فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الأيام هَفْوَتها وتحصد الفئة الأوغاد ما بَذَرُوا (1)

12– وقال أبو الحسن ابن الساعاتي في مدح صلاح الدين:

مُنِعَتَ ظبَاءُ المُنحنى بأسوده وأشد ما أشكوه فَتك ظِبائه
فَغَلَت بنا وهي الصَّديق لحاظُها كظبَى صلاح الدين في أعدائه
سَلْ عنه قلب الإنكتار فإنّ في خفقانه ما شئت من أبنائه
لولاك أمَّ البيتَ غير مُدافع ولسال سيل نَدَاك في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دماً لترنُّم النّاقوس في أفنائه(2)

(1) المصدر نفسه (4/290).

(2) كتاب الروضتين (4/329).

13– تحصين القدس وتفقد أحوالها بعد الصلح : قال العماد : عاد السلطان بعد السِّلم إلى القدس لتفقُّد أحواله، وعرض رجاله، واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها، وتعميق خنادقه، وتوثيق طرائقه، وزاد في وقف المدارس سوقا بدكاكينها، وأرضاً ببساتينها وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها، والوقف الكافل بكفايتها، وعيَّن الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان وأدار سور القدس على قبة صهيون، وأضافها إلى المدينة، وأمر بإدارة الخنادق على الجميع، وصمَّم العزم على الحج، فلم يوافقه القدر وتأسف على فواته بعد أن قدَّم مقدماته وأقام شهر رمضان وأفاض الإحسان، وفوّض ولاية القدس وأعمالها إلى عزّ الدين جُرْديك حين استعفى منها حسام الدين سياروخ، وولى مملوكه علم الدين قيصر ما دون القدس، كعمل الخليل وغزَّة والدَّاروم وعسقلان[1] .

– **اعتراض القاضي الفاضل على صلاح الدين في رغبة الحج** : ولما بلغ القاضي الفاضل من قِبل السلطان أنه عازم على الحج كتب إليه مشيراً بتبطيله : إنّ الفرنج لم يخرجوا بعد من الشَّام ولا سَلُوا عن القدس، ولا وُثِقَ بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سُلطاننا سفراً مقدراً معلوماً مُدَّة الغيبة فيه أن يَسْرُوا ليلة فيصبِّحوا القدس على غفلة، فيدخلوا إليه – والعياذ بالله – ويَفْرُطُ من يد الإسلام ويصيرُ الحج كبيرة من الكبائر التي لا تُغفر، ومن العثرات التي لا تُقال ثم قال : وحاج العراق وخراسان أليس هم مئتي ألف أو ثلاث مئة ألف أو أكثر، هل يؤمن أن يقال قد سار السلطان لطلب ثار وسَفْكِ دم وتشويش موسم، فاقعُدُوا، فيكون تاريخ سوءٍ، أعوذ بالله منه، ما هذه الشناعة ممتنعة الوقوع، ولا مستبعدة من العقول السخيفة... يا مولانا، مظالم الخلق كَشْفُها أهم من كل ما يُتَقرَّبُ به إلى الله، وما هي بواحدة، في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يُستغرب معه وقوع القَطْر، ومن تسلط المُقطعين على المنقطعين من لا ينادي

(1) المصدر نفسه (4/ 332).

وليدُه وفى وادى بَرَدى والزّبَدَانى من الفتنة القائمة والسيف الذى يَقْطُر دماً ما لا زاجر عنه، وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة، ومن المهمّات إقامة وجوه الدّخل وتقدير الخرْج بحسبها، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل، وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير، وعَرضَت للمولَى شواغلٌ دونه ومشت الأحوال مشيا على ظلْع، فلما خَلَتِ النُّوَب – أعاذ الله من عودها – كان خلو بيت المال أشدَّ ما فى الشدة، وليس المملوك مطالباً بذخيرة تُحصَّل، إنما يطلب تمشية من حيث تستقر[1] وهذه الرسالة تدل على عمق فهم القاضى الفاضل بمقاصد الشريعة كما تبين أهمية وجود العلماء الربانيين بجانب القادة السياسيين والعسكريين.

وقد استجاب السلطان صلاح الدين لنصيحة القاضى الفاضل فسمع منه وشكر نصحه وقبله وعزم على ترك الحج عامه ذلك وكتب به إلى سائر الممالك واستمر السلطان مقيماً بالقدس جميع شهر رمضان فى صيام وصلاة وقرآن، وكلّما وفد أحدٌ من رؤساء النصارى للزيارة أوْلاه غاية الإكرام والإحسان؛ تاليفاً لقلوبهم وتأكيداً لما حلفوه من الأيمان ورغبة أن يدخل فى قلوبهم شىء من الإيمان، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة القُمامة متنكراً ويحضر سماط السلطان فيمن يحضر من جمهورهم، بحيث لا يرى والسلطان يعلم ذلك جملة لا تفصيلاً، ولهذا يعاملهم بالإكرام، ويُريهم صفحاً جميلاً وبرًا جزيلاً وظلاً ظليلاً[2].

14– **رجوعه إلى دمشق**: ولما كان خامس شوّال سنة 588هـ ركب فى عساكره وجحافله فبرز من القدس الشريف قاصداً دمشق المحروسة، واستناب على القدس عز الدين جُرديك وعلى قضائها بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشافعى واجتاز [3]، وبات على بركة الدَّاويَّة، ثم أصبح فى نابلس فنظر فى أحوالها وأمورها، ثم ترحَّل عنها، فجعل يمر بالمعاقل والحصون والبُلدان للنظر فى الأحوال والأموال وكشف المظالم والمحارم والمآثم وترتيب المكارم، وفى أثناء الطريق جاء إلى

(1) كتاب الروضتين (334/4).

(2) البداية والنهاية (646/16).

(3) حضان يقال لهما الحبيب الفوقانى والتحتانى من أعمال فلسطين.

خدمته بيمند صاحب أنطاكية فأكرمه وأحسن إليه وأطلق له أموالاً جزيلة وخلعاً جميلة وكان العماد الكاتب في صُحبته، فأخبر عن منازله منزلة منزلة ومرحلة مرحلة إلى أن قال: وعبر يوم الاثنين عين الجَرّ [1] إلى مرج يَبُوس [2] وقد زال البُوس وهناك توافد أعيان دمشق وأماثلهُا وأفاضلها وفواضلها ونزلنا يوم الثلاثاء على العرّادة [3]، جرى المُتلَقُّون بالطرق والتحف على العادة، وأصبحنا يوم الأربعاء - يعني سادس عشر شوّال بكرة - إلى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين، لولا أننا غير خالدين وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها وأبرزت نساءها ورجالها وكان يوم الزينة وخرج كل من في المدينة وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحاً، واجتمع بأولاده الكبار والصغار، ووفد عليه رسل الملوك من سائر الأقطار، وأقام بقية عامه في اقتناص الصيد وحضور دار العدل للفصل والعمل بالإحسان والفضل ولما كان عيد الأضحى امتدحه بعض الشعراء بقصيدة يقول فيها:

وأبيـهـا لولا تغـزُّلُ عـينيـهـا ... لما قلت في التـغـزُّل شِـعـرا
ولكانت مـدائح الملك الناصـر ... أولى مـا فـيـه أعـمـل فكرا
ملك طبَّـقَ المـمـالكَ عـدلاً ... مـثل مـا أوسع البَـريَّة بِرًّا
فـتنحَّل الأعـيـاد صـومـاً وفطراً ... وتَـلَـقَّ الـهـنَـاءَ بـرًّا وبـحـرا
يا مُـسِـرَّ الطاعـات لـله إن ... أضـحى مليـك على الهَنَات مُصِـرًّا
نِلْتَ مـا تبْـتَـغِي من الدين والدنيـا ... فـتـيـهـا على الملوكِ وفـخـرا
قـد جـمـعت المجدين أصـلاً وفـرعـاً ... وملكت الدارين دنيـا وأخـرى [4]

---

(1) عين الجر: موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق.
(2) مرج يبوس: يبوس جبل بالشام بوادي التيم من دمشق.
(3) العرادة: قرية على رأس تل شبه القلعة بين رأس عين ونصيبين.
(4) البداية والنهاية (16/647).

15- **اتهام أمير الحج بمكاتبة صلاح الدين ضد الخليفة**: في سنة 588هـ اتهم أمير الحج ببغداد وهو طاشتكين - وقد كان على إمرة الحجيج من مدة عشرين سنة وكان في غاية حسن السيرة - بأنه يكاتب صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليأخذها فإنه ليس يرده أحد، وقد كان مكذوبًا عليه في ذلك ومع هذا حُبس وأُهين وصودر[1].

16- **وفاة الشاعر أبو المرهف نصير بن منصور النميري**: توفي في عام 588هـ أبو المرهف النميري، فقد سمع الحديث واشتغل بالأدب، وكان قد أصابه جُدَرِيٌّ وهو ابن أربع عشرة سنة فنقص بصره، فكان لا يُبصرُ الأشياء البعيدة ويرى القريب منه، ولكنَّه لا يحتاج إلى قائد، فارتحل إلى العراق لمداواة عينيه فآيسته الأطباء من ذلك، فاشتغل بحفظ القرآن ومصاحبة الصالحين والزهاد فأفلح، وله ديوان شعر كبير حسن وقد سئل مرّة عن مذهبه واعتقاده فأنشا يقول:

أحُبُّ عليا والبَتُولَ ووُلْدَها ... ولا أجْحَدُ الشيْخَينِ فضْلَ التقدم
وأبرأ ممّن نال عثمان بالأذى ... كما أتبَرأُ من وَلاءِ ابن مُلجم
ويعجبني أهلُ الحديث لصِدقهم ... فلستُ إلى قوم سِواهم بمُنتَهي [2]

ومن شعره قوله:

وزهّدني في جميع الأنام ... قِلَّة إنصاف من تَصْحَبُ
هم الناس ما لم تُجَرِّبهُمُ ... وطُلْسُ الذِّئاب إذا جُربوا
وليتك تَسْلَم عند البعاد ... منهم فكيف إذا تَقْرُبُ[3]

(1) البداية والنهاية (16/648).
(2) البداية والنهاية (16/650).
(3) كتاب الروضتين (4/356).

مرض صلاح الدين ووفاته عام 589هـ:

1- الأيام الأخيرة من حياة صلاح الدين: قال العماد : والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه والضيوف في فيوض إنعامه عائمون والفقراء في رياض صدقاته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لإسداء الجود، وإبداء السعود، وبث المكارم، وكشف المظالم وبرز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوماً واستصحب معه أخاه العادل وأبعد في البَرِّيَّة وظهر عن ضَمير ضُمَير إلى الجهة الشرقية وطابت له الفرص، ووافق مراده القنص ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر، ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتَّلقِّي وسعادته في التَّرَقِّي ولما لقي الحُجَّاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ما تمنَّاه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها وخصبها ومحلها وكم وصَلَهم من غَلاَّت مصر وصدقاتها والفقراء والمجاورين ورواتبها وإدراراتها، وسُرَّ سلامة الحاج ووضوح ذلك المنهاج ووصل من اليمن ولدُ أخيه سيف الإسلام، فتلقاه بالإكرام[1].

2- مرض صلاح الدين: لما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، فما انتصف الليل حتى غشيته حُمَّى صفراوية كانت في بطنه أكثر منها في ظهره وأصبح يوم السبت سادس عشر صَفَر عليه أثرُ الحُمَّى ولم يظهر ذلك للناس، لكن حضر عنده القاضي ابن شداد والقاضي الفاضل ودخل ولده الأفضل. قال القاضي ابن شداد: وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه بالليل وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطَّعام في خدمة ولده الأفضل ولم يكن للقاضي عادة بذلك، فانصرف ودخلت إلى الأبواب القِبْلي، وقد مُدَّ الطعام وولده الأفضل قد جلس في موضعه فانصرفت، وما كان لي قوة للجلوس استيحاشا وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده في موضعه ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردُّد في طَرَفي النَّهار،

---

(1) المصدر نفسه (4/357).

وأدخل إليه وأنا والقاضى الفاضل فى النَّهار مراراً، ويُعطى الطريق فى بعض الأيام التى يجد فيها خِفَّة وكان مرضه فى رأسه وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذى كان قد ألف مِزاجه سفراً وحَضَراً ورأى الأطباء فَصْدَه ففصدوه فى الرّابع، فاشتد مرضه، وقَلَّت رطوبات بدنه وكان يغلبه النَّفَس غلبة عظيمة، ولم يَزَل المرض فى تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف. ولقد أجلسناه فى السادس من مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة وأُحضر ماء فاتر يشربه عقيب شراب يُلَين الطبع، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شِدَّة حره فغير وعُرض عليه ثانياً، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات : سبحان الله لا يمكن أحداً تعديل الماء. فخرجت أنا والقاضى من عنده، وقد اشتدَّ منّا البكاء والقاضى الفاضل يقول لي : أبصر هذه الأخلاق التى قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أنَّ هذا بعض النَّاس كان قد ضرب القدح رأس من أحضره. واشتد مرضه فى السادس والسابع والثامن، ولم يزل متزايداً وتغيّب ذهنه ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب، واشتد الإرجاف فى البلد وخاف الناس، ونقلوا الأقمشة من الأسواق، وغشى الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته ولقد كنت أنا والقاضى الفاضل نقعد كل ليلة إلى أن يمضى من الليل ثُلثُه، أو قريب منه ثم نحضر من باب الدار، فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإلا تعرفنا أحواله وانصرفنا وكُنَّا نجد الناس يرتقبون خروجنا من بيوتنا حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا [1] ولما كان العاشر من مرضه حُقن دفعتين وحصل من الحقنة راحة وحصل بعض الخفّ، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا باب الدّار فوجدنا جمال الدولة إقبالاً، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجددة، فدخل ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول: إن العَرَق قد أخذ فى ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية بدنه ويخبرنا بحاله فى العرق، فافتقده ثم خرج إلينا، وذكر أن العَرَقَ سابغ، فشكرنا الله تعالى

(1) النوادر السلطانية ص 419.

على ذلك، وانصرفنا طيِّبة قلوبنا ثم أصبحنا في الحادى عشر من مرضه وهو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا بالباب، وسألنا عن الأحوال، فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفَرش، ثم في الحُصْر وتأثرت به الأرض، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً، وخارت القوّة واستشعر الأطباء[1].

3- تحليف الملك الأفضل الناس: ولما رأى الملك الأفضل ما حلّ بوالده، وتحقّق اليأس منه، وشرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه واستحضر القضاة، وعُمل له نسخة يمين مختصرة مُحَصَّلة للمقاصد، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته. وله بعد وفاته، واعتذر للنّاس بأن المرض قد اشتدّ وما نعلم ما يكون، وما نفعل هذا إلا احتياطاً على جارى عادة الملوك[2] وكانت نسخة اليمين المحلوف بها وفصولها: إننى من وقتى هذا قد أصفيتُ نيَّتى، وأخلصت طويَّتى للملك الناصر مدة حياته، وإننى لا أزال باذلا جهدى في الذَّب عن دولته، بنفسى ومالى وسيفى ورجالى، ممتثلاً أمره، واقفاً عند مراضيه ثم من بعده لولده الملك الأفضل علىّ، ووالله إننى في طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسى ومالى وسيفى ورجالى، وأمتثل أمره ونهيه، وباطنى وظاهرى في ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل[3].

4- وفاته – رحمه الله: ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وهى الليلة الثانية عشرة من مرضه – رحمة الله عليه – اشتدّ مرضُه وضعفت قوّته ووقع في أوائل الأمر من أول الليل، وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضى الفاضل في تلك الليلة وابن الزَّكى، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأيا، فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا في القلعة، فخاف أن لا ننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً، فرأى

(1) المصدر نفسه ص 419.

(2) المصدر نفسه ص 420.

(3) النوادر السلطانية ص 421.

المصلحة فى نزولنا واستحضار الشيخ أبى جعفر إمام الكلاّسة، وهو رجل صالح يبيت فى القعلة حتى إن احتضر - رحمة الله عليه - بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذُكر بالشهادة وذكر الله تعالى، ففعل ونزلنا وكل منا يودّ فداءه بنفسه وبات فى تلك الليلة - رحمة الله عليه - على حال المُنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكّره بالله تعالى، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع، ولا يكاد يفيق إلا فى الأحيان. وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ... (٢٢) ﴾ (الحشر). سمعه وهو يقول - رحمة الله عليه - : "صحيح"؛ وهذه يقظة فى وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى به فلله الحمد على ذلك[1] وكانت وفاته - رحمة الله عليه - بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء سابع وعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح وفاته - رحمة الله عليه - ولقد حكى لى أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : "لا إله إلا هو عليه توكلت". تبسم وتهلل وجههُ وسلمها إلى ربه [2] وكان يوماً لم يُصَب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فُقد الخلفاء الراشدون وغشىَ القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله[3]، قال القاضى بن شداد: وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعزُّ عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم، فإنى علمت من نفسى ومن غيرى أنّه لو قُبلَ الفداء لفُدىَ بالنفس[4].

5 - **الجلوس للعزاء ودفنه**: ثم جلس ولده الأفضل للعزاء فى الإيوان الشمالى، وحُفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين، وكان يوماً عظيماً قد شغل كلَّ إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن

(1) المصدر نفسه ص 422.

(2) المصدر نفسه ص 422.

(3) المصدر نفسه ص 422.

(4) المصدر نفسه ص 422.

ينظر إلى غيره، وحُفظَ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فصَّال [1]، أو وعّاظ وكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تُزهق لهول منظرهم، ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظُّهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مكَّنَّا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبّة واحدة إلا بالقرض حتى فى ثمن التبن الذى يُلَتُّ به الطين وغَسَّله الدّولعى الفقيه ونُدبت إلى الوقوف على غُسْله فلم يكن لى قوة تحمُّل ذلك المنظر، وأخرج بعد صلاة الظُّهر فى تابوت مُسَجّىً بثوب فوط وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب فى تكفينه قد أحضره الفاضل من وجه حل عَرَفَه وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضَّجيج حتى إن العاقل يتخيل أن الدّنيا كلها تصيح صوتاً واحداً، وغَشىَ الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصَّلاة، وصلى عليه الناس أرسالا وكان أول من أمّ الناس القاضى محيى الدين بن الزكى، ثم أعيد رحمة الله عليه إلى الدار التى فى البستان التى كان متمرضاً بها ودفن فى الصفة الغربية منها، وكان نزوله فى حفرته قريباً من صلاة العصر، ثم نزل فى أثناء النّهار ولده الظافر، وعزّى النّاسَ فيه وسكّن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنّهب والفساد، فما يوجد قلب إلا حزين، ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ولم يَعُدْ منا أحد فى تلك الليلة إلا أنّا حضرنا وقرأنا وجددنا حالا من الحُزن واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى إخوته وعمه يخبرهم بهذا الحادث وفى اليوم الثانى جلس للعزاء جلوسا عاما، وأطلق باب القلعة للفقهاء، والعلماء، وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر، ثم انفضَّ المجلس فى ظهيره ذلك اليوم واستمر الحال فى حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمه الله[2].

وقال ابن كثير: .. ثم عمل عزاؤه بالجامع الأموى ثلاثة أيام، يحضره الخواص والعوام والرعية والحكام وقد عمل فيه الشعراء مراثى كثيرة من أحسنها ما عمل

(1) الفصال: مدح الناس ليصلوه.

(2) النوادر السلطانية ص 423.

العماد الكاتب فى كتابه "البرق الشامى" وهى مائتان واثنان وثلاثون بيتاً [1].

6- **سيف صلاح الدين فى قبره** : ويقال : إنه دُفن معه سيفه الذى كان يحضر به الجهاد والجلاد وذلك عن أمر القاضى الفاضل أحد الأجواد الأمجاد، وتفاءلوا بأنّه يكون معه يوم القيامة يتوكأُ عليه، حتى يدخل الجنَّة، لما أنعم عليه من كسر الأعداء ونصر الأولياء وأُعظم عليه بذلك المنة[2].

7- **وصية صلاح الدين لابنه الملك الظاهر** : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم، فأنت أمين وأمين الناس عليهم وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء، وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمدارة الناس ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يبقى على أحد، واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه، فإنه كريم [3].

8- **ما خلّف من التركة**: لم يترك فى خزانته من الذهب سوى ديناراً واحداً وستة وثلاثين درهماً وقيل سبعة وأربعين درهماً، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستانا ولا شيئاً من أنواع الأملاك[4]، وإنما لم يُخلف أموالاً ولا أملاكاً؛ لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته وإحسانه إلى أمرائه ووزرائه وأوليائه حتى إلى أعدائه وقد كان متقللا فى ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه، فلا يلبس إلا القطن والكتان والصوف ولا يُعرَفُ أنه تخطى مكروها بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همُّه الأكبر ومقصوده الأعظم نصرَ الإسلام وكسر الأعداء اللئام، ويعمل فكره فى ذلك ورأيه وحده مع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً وجهاراً وهذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والفوائد الفرائد، فى اللغة والأدب وأيام الناس، حتى قيل: إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها وختامها وكان مواظباً على الصلوات فى أوقاتها فى جماعة

(1) البداية والنهاية (16/ 653) .

(2) المصدر نفسه (16/ 653) .

(3) الموسوعة الشاملة فى تاريخ الحروب الصليبية (16/ 216) .

(4) البداية والنهاية (16/ 655) .

ولم تفته الجماعة فى صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا فى مرضِ موته، كان يدخل الإمام فيُصلى به، فكان يتجشم القيامَ مع ضعفه[1].

9- من أروع الوسائل فى أخبار وفاة صلاح الدين : قال صاحب النجوم الزاهرة وفى ساعة موت السلطان صلاح الدين كتب القاضى الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب) ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ (الحج). كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف للملك المرحوم، وقد زلزل المسلمون زلزالاً عظيماً، وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد قبلت أباك ومخدمى وداعاً لا تلاقى بعده وقد قبلت وجهه عنى وعنك، وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالباب جنود مجندة، والأسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء، ولا يرد القضاء وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرُضى الرب، وإنا عليك يا يوسف لمحزونون، وأما الوصايا فما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلنى المصاب عنها، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما فقدتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام [2].

10- رؤيا مبشرة: قال أبو شامة فى كتابه الروضتين : ووجدت فى بعض الكتب الفاضلية أن رجلاً رأى ليلة وفاة السلطان كأنَّ قائلاً يقول له : قد خرج الليلة يوسف من السجن وهو من الأثر النبوى: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر [3]. وما كان يوسفنا – رحمة الله عليه – فى الدنيا بالإضافة إلى ما صار إليه فى الآخرة إلا فى سجن، رضى الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة، فهو آخر ما كان يرجو من الفتوح[4].

---

(1) البداية والنهاية (16/656).

(2) النجوم الزاهرة (6/52،53).

(3) مسلم رقم 2956.

(4) كتاب الروضتين (4/370)

11- قصيدة العماد الأصفهاني في رثاء صلاح الدين:

شَمْلُ الهُدى والمُلك عَمَّ شَتَاتُهُ | والدَّهرُ ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مُذْ لم يَزَل مخشيَّة | مرجوة هبّاتُهُ وَهِبَاته
أين الذى كانت له طاعاتنا | مبذولةً ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذى | لله خالصة صفت نيّاتُهُ
أين الذى ما زال سُلطاناً لنا | يُرجى نَدَاه وتُتَّقى سَطَواتُهُ
أين الذى شَرُفَ الزَّمان بفضله | وسَمَتْ على الفُضَلاء تشريفاته
أين الذى عَنَت الفرنجُ لبأسه | ذُلاً ومنها أدركت ثاراته
أغلالُ أعناقِ العِدَى أسيافه | أطواق أجياد الورى مِنّاتُهُ
لم يُجْدِ تدبيرُ الطَّبيب وكم وكم | أجدت لطب الدُّهر تدبيراته
مَنْ فى الجهاد صِفَاحه ما أغمدت | بالنصر حتى أُغمدت صفحاته
من فى صدور الكفر صدرُ قَناته | حتى توارت بالصفيح قَنَاتُهُ
لَذّ المتاعب فى الجهاد ولم تكن | مُذ عاش قَطٌّ لذاته لَذَّاتُهُ
مسعودةٌ غدواتُهُ محمودةٌ | روحاته ميمونة ضَحَواتُهُ
فى نصرة الإسلام يسهر دائماً | ليطول فى روض الجنان سُبَاتُهُ
لا تحسبوه مات شخص واحدٌ | فممات كل العالمين مماته
مَلِكٌ عن الإسلام كان محامياً | أبداً لماذا أسلمته حُمَاتُهُ
قد أظلمت مُذ غاب عنها دُوره | لما خلت من بدره دَارَاتُهُ
دُفن السَّماحُ فليس تُنشَرُ بعدما | أودى إلى يوم النُّشور رُفَاتُهُ

الدين بعـــد أبي المظفّــر يوسف   أقوَت قُواه [1] وأقفرت ساحاته
جبلٌ تضعضع من تَضعضع رُكنه   أركـــانُنا تَهُـــدُّنا هدّاتُهُ
مـا كنت أعلم أنّ طوداً شـامخـاً   يَهْوي ولا تَهْوِي بنا مَهَواتُهُ
مـا كنت أعلم أنَّ بحـراً طامـيـاً   فـينا يُطَمُّ وتنتـهى زَخَـراتُهُ
بحــرٌ خــلا من وارديه ولم تَزَل   محفوفةً بوفوده حافاتُهُ
من لليـتـامى والأرامل راحم   متعطِّفٌ مفضوضة صَدَقاته
فعلى صلاح الدين يوسُفَ دائماً   رضوانُ رب العرش بل صَلَواتُهُ
لضريحه سُقْيا السَّحاب فإن يَغبْ   تحضُر لرحمة ربه سُقْياتُهُ
وكعادة البيت المقدسِ يحزُنُ   البيت الحرامُ عليه بل عرفاته
من للثغور وقد غداها حفظُهُ   من للجهاد ولم تَعُدْ عاداتُهُ
بكت الصَّوارمُ والصَّواهلُ إذ خلت   من سَلها وركوبها غزواته
وبسيفه مدأً لحُزن مصُابه   إذ ليس يُشفى بعده صَدَياتُهُ
يا وحشتاً للبيض في أغمادها   لا تنتفيها للوغى عزماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت   في كل قلب مؤمن رَوْعَاتُهُ
يا حسرتا من يأسِ راجيه الذي   يُقضى الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه   أسدٌ وإنَّ بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى   فكأنَّما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السَّبت وهو لما به   يُبدى السُّباتَ وقد بَدَتْ غشياتُهُ

---

(1) من أقوى الرجل: إذا نفذ طعامه وفني زاده.

والبشرُ منه تبلَّجَت أنوارُهُ والوجه منه تلألأت سُبحاتُهُ
ويقول لله المهيمن حُكْمُهُ في مرضةٍ حَصلَت بها مَرْضَاتُهُ
وقف الملوكُ على انتظار ركوبه لهمُ ففيم تأخَّرت رَكَباتُهُ
كانوا وقوفاً أمسِ تحت ركابه واليوم هُمْ حَوْلَ السَّريرِ مُشاتُه
وممالك الآفاق ساعية له فمتى تجيءُ بفتْحِهنَّ سُعاتُهُ
هذي مناشير الممالك تقتضي توقيعه فيها فأين دَواتُهُ
هذي الجيوش من البلاد تواصَلَت فعلام لا تسمو لها راياته
قد كان وعدُك في الرّبيع بجمعها هذا الربيع وقد دنا ميقاتُه
والجُنْدُ في الديوان جُددَ عَرْضُهُ وإذا أمرت تجَدّدت نفقاته
والقدس طامحة إليك عيونه عَجلْ فقد طَمَحَت إليه عُداتُهُ
والغربُ منتظرٌ طلوعك نحوه حتى تفيءَ إلى هُدَاك بُغاتُهُ
والشَّرق يرجو غَرْبَ عَزمكَ ماضيا في مُلكه حتى تطيع عُصاتُهُ
مُغْرىً بإسداء الجميل كأنَّما فُرِضَت عليه كالصلاة وصِلاتُهُ
هل للملوك مَضَاؤه في مَوقفٍ شُدَّت على أعدائه شَدَّاتُهُ
وإذا الملوكُ سَعَواْ وقصَّرَ سَعْيُهُم رَجَحت وقد نَجَحَتْ به مَسْعَاتُهُ
كم جاءه التّوفيق في وقعاته من كان بالتوفيق توقيعاتُهُ(1)

(1) كتاب الروضتين (4/373).

وقال أيضاً:

يا راعيا للدين حين تمكّنتْ منه الذّئاب وأسلمته رُعاتُهُ
ما كان ضرَّك لو أقمت مُراعيا ديناً تولّى منذ رحلْتَ وُلاتُهُ
أضجرت منّا أم أنِفت فلم تكن ممن تصابُ لشدَّة ضجراتُهُ
أرضيت تحت الأرض يا من لم تزَلْ فوق السماء عليّة درجاته
فارقت مُلكًا غيرَ باق مُتْعبا ووَصلت مُلْكا باقيا راحاتُهُ
أعززِ على عيني برؤية بهجة الدنيا ووجهك لا تُرى بهجاتُهُ
أبني صلاح الدّين إنّ أباكُم ما زال يأبى ما الكرامُ أباتُهُ
لا تقتدوا إلا بسُنَّة فضله لتطيب من مهد النَّعيم سِناتُهُ
ورِدوا موارد عدْلِه وسماحِه لتُردَّ عن نهج الشَّمات شُماتُهُ
ولئن هوى جبلٌ لقد بنيت لنا ببنيه من هضباته ذُرَواتُهُ
وبفضل أفضل وعزّ عزيزه وظهور ظاهره لنا سَرَواتُهُ
الأفضل الملكُ الذى ظهرت على الدنيا بزهر جلاله جلَواتُهُ
والدين بالملك العزيز عِمَادُه عثمان حالية لنا حالاته
والمَلْك غازى الظّاهر العالى الذى صحّت لإظهار العلَى مغزاتُهُ
ولنا بسيف الدِّين أظهرُ نصرةٍ بالعادل الملك المُطَهَّرِ ذاته(1)

---

(1) كتاب الروضتين (4/374).

وقال أيضاً:

مـن للعُــلا مـن للذُّرى من لـلهُــدى		يـحــمــيــه مَنْ لـلبــأس من لـلنائل
طـلب البـــقـــاء لملكه من آجل		إذ لـم يثق ببــقــاء مُلك العــاجل
بحـــرٌ أعـــاد البَـــرَّ بحـــراً بِرُّهُ		وبسـيـفـه فـتـحـت بلاد السـاحل
مَنْ كـــان أهلُ الحَقِّ فـي أيامــه		وبعـــزِّه يُـرْدُون أهـل البـــاطل
وفــتــوحُـــهُ والقُــدسُ من أبكارِها		أبقت له فـضـلاً بغـيــر مـسـاجل
مـا كنت أسـتـسـقى لقـبـرك وابلاً		ورأيتُ جُـوْدَكَ مُـخْـجـلاً للوابل
فَـسَـقــاك رِضـوانُ الإله لأننى		لا أتقى سُـقـيـا الغَـمَـامِ الهـاطل(1)

لقد تأثر الناس بوفاة صلاح الدين حتى المؤرخون الأوروبيون ترحموا على صلاح الدين وأشادوا بعدله وبقوته وتسامحه واعتبروه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة، وأما مكانة صلاح الدين فستظل عظيمة أبد الدهر، إذ يكفى ما قام به فى سبيل توحيد صفوف المسلمين والدفاع عن كيانهم، ثم مواصلة الجهاد فى صورة لا تعرف الملل لطرد الغزاة الدخلاء(2). ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا فى آلاته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة (3)، ولا شك أن وفاة صلاح الدين جاءت خسارة كبرى

(1) المصدر نفسه (374/4).
(2) الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور ص 718.
(3) النوادر السلطانية ص 43 – 44 الحركة الصليبية عاشور ص 718.

للجبهة الإسلامية المتحدة، إذ أنذرت هذه الوفاة بقيام المنازعات بين أبناء البيت الأيوبى.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الثلاثاء الساعة الثالثة فجراً بتاريخ 05/05/1428هـ -22/05/2007م والفضل لله من قبل ومن بعد وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ (فاطر).

ولا يسعنى فى نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقى العظيم وإلهى الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولى وقوتى ملتجئاً إليه فى كل حركاتى وسكناتى وحياتى ومماتى، فالله خالقى هو المتفضل، وربى الكريم هو المعين وإلهى العظيم هو الموفق فله الحمد على ما منّ به علىّ أولا وآخراً وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملى لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يثيبنى على كل حرف كتبته ويجعله فى ميزان حسناتى وأن يثيب إخوانى الذين أعانونى من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ (النمل).

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)﴾ (الحشر) وبقول الشاعر ابن الوردىّ لابنه:

أطلبِ العلم ولا تكسل فما ... أبعد الخير على أهل الكسل
احتفل للفقه في الدين ولا ... تشتغل عنه بمال وَخَوَلْ
واهجر النوم وحصله فمن ... يعرف المطلوب يَحْقِر ما بَذَل
لا تَقُل قد ذهبت أربابُه ... كلٌّ من سار على الدَّرْب وَصَلْ

"سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك"

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبيّ

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الإخوة الكرام يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب، وغيره من كتبي وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

MaiL : abumohamed2@maktoob.com

الخلاصة

1- يختلف المؤرخون حول تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية والذى نميل إليه هو عام 569هـ / 1174م أى بعد وفاة نور الدين محمود.

2- تميزت شخصية السلطان صلاح الدين الأيوبى برصيد أخلاقى كبير ساعده على تحقيق أهدافه العظيمة والتى من أهمها؛ تقواه وعبادته، وسلامة عقيدته، وعدله، وشجاعته، وكرمه، واهتمامه بالجهاد، وحلمه، ومحافظته على أسباب المروءة وصبره واحتسابه ووفاؤه، وتواضعه.

3- كانت العودة إلى هوية الأمة المسلمة وإلى عقيدة أهل السنة والجماعة، من أبرز معالم التجديد فى العهد الزنكى والأيوبى، ولقد طال الانحراف وانتشرت البدع تحميها دولة ظالمة وهى الدولة الفاطمية العبيدية بمصر، فكانت العودة إلى تحكيم الكتاب والسنة من أضخم منجزات الدولتين النورية والصلاحية، فقد أقيم العدل وقمعت البدع، وصبغت الدولة بالصبغة الإسلامية الصافية وقد سار صلاح الدين الأيوبى على نهج نور الدين زنكى بتطبيق الشرع فى سائر أمور الدولة.

4- استطاع صلاح الدين أن ينفذ المخطط الذى وضعه نور الدين زنكى للقضاء على الدولة الفاطمية العبيدية الرافضية، وعمل على محاربة العقائد الفاسدة فى مصر، وإعادة الفكر الإسلامى الصحيح إليها.

5- استفادت الدولة الأيوبية من الجهود العلمية والوسائل الدعوية من الدولة السلجوقية والزنكية والغزنوية.

6- اهتم صلاح الدين الأيوبى بالمحافظة على أصول العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة.

7- اهتم صلاح الدين بحركة الإحياء السنى فى دولته وذلك عن طريق إنشاء المدارس وجذب العلماء والفقهاء لدولته والإحسان إليهم.

8- كانت عناية صلاح الدين الأيوبى والسلاطين الذين جاءوا بعده للتمكين لمذهب أهل السنة فى البلاد التى حكموها عناية شاملة ومكثفة فى المدن

التابعة لهم كالقاهرة والإسكندرية ودمشق وحلب وغيرها. ومن أهم عناصر الثقافة والعلوم الشرعية التى اهتم بها الأيوبيون: القرآن الكريم، والحديث الشريف، والدراسات الفقهية والأدبية واللغوية.

9- استطاعت الدولة الأيوبية إحياء النفوذ السياسى لدولة الخلافة العباسية فى أغلب أرجاء بلاد المشرق الإسلامى.

10- كان فتح اليمن على يدى الأيوبيين خطوة استراتيجية للإجهاز على الدعوة الفاطمية، وقد حرص الأيوبيون على إدخال الكتب السنية مع جيوشهم ونشرها فى بلاد اليمن.

11- يرجع الفضل بعد الله إلى عودة السيادة العباسية على الحجاز إلى مساعى السلاجقة والزنكيين والأيوبيين.

12- داوم ملوك بنى أيوب على حماية طريق الحج وتأمينه، وحماية لواء الحج العراقى الممثل لسيادة الخليفة العباسى على العالم الإسلامى.

13- استخدم صلاح الدين وسائل وأساليب عديدة فى سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفورى المباشر والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج واستخدم بعضها القوى العسكرية، فى حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية والدينية الخيرية وما يوقف عليها من المنشآت الاجتماعية والدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها.

14- كان للقاضى الفاضل دور بارز فى رسم هذه الإستراتيجية واتخاذ الوسائل المناسبة للقضاء على الدولة الفاطمية، كإذلال الخليفة الفاطمى العاضد، ووضعه من مكانة القصر الفاطمى، وقطع الجمعة الجامعة من جامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمى به، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية، وإلغاء جميع الأعياد المذهبية للفاطميين ومحو رسوم الدولة وعملاتها، وإضعاف عاصمة الدولة الفاطمية والاستمرار فى ملاحقة بقايا التشيع فى الشام ومصر. إلخ.

15- من العوامل التى ساعدت الأيوبيين على حركة الإحياء السنى، أن المذهب الشيعى الإسماعيلى لم يكن راسخ القدم فى الشعب المصرى، وكانت المدارس السنية تعبئ الأمة على التمسك بالكتاب والسنة وتحذرها من البدع والابتداع، كما أن مصر أصبحت منطقة جذب ونشاط لعلماء السنة على اختلاف مذاهبهم، فأسهموا إسهاماً رائعاً فى العودة بمصر إلى رحاب السنة وذلك عن طريق التدريس فى المدارس التى أنشئت أو عن طريق الوعظ أو تأليف الكتب التى تنتصر للسنة.

16- كان معظم العلماء الذين شاركوا الأيوبيين فى جهودهم على مستوى المسئولية التى ألقيت على عاتقهم : علماً وخلقاً وديانة، كما كان الكثير منهم مشاركًا فى الحياة السياسية، والاجتماعية، كالقاضى الفاضل والعماد الأصفهانى، وبهاء الدين بن شداد، وشرف الدين بن أبى عصرون والعز بن عبد السلام بل كان لبعضهم مشاركة فعالة فى ميادين الحرب والجهاد، كالفقيه عيسى الهكارى، وكان كثير منهم على قدر كبير من الشجاعة فى مواجهة الحكام والنصح لهم، فكانوا نماذج رائعة لعامة الناس، ومن ثم فإن تأثيرهم فيهم كان قوياً مؤثراً.

17- كانت الدولة الأيوبية فى عهد صلاح الدين تعيش فى سعة من الرزق وبحبوحة من العيش، ذلك لأن مواردها كثيرة، ومنابع الأرزاق فيها متنوعة وقد اهتمت الدولة بالزراعة والتجارة، والصناعات وإلغاء المكوس والاكتفاء بالموارد الشرعية.

18- اهتم صلاح الدين بالمستشفيات، وقد قام ببناء مجموعة من أشهرها، المستشفى الناصرى فى القاهرة وبيمارستان الإسكندرية، والصلاحى بالقدس، وغيرها، كما اهتم ببناء أماكن للصوفية، للتربية والتعليم والعبادة وقد أحسن للصّوفية، وساهموا معه فى حركة الإحياء السنى، واندمجوا فى المشروع الجهادى ضد الصليبيين.

19- كانت الحياة الاجتماعية فى عهده تتسم بطابع الجدية والجهاد ومناهضة الفرنج ومكافحة العدو، وكانت حياته الخاصة بعيدة كل البعد عن مظاهر الأبهة الفارغة الكاذبة والعظمة الزائفة والبذخ المفرط.

20- كان لظهور الدولة الأيوبية أثر كبير فى إحداث تطورات إدارية رئيسية تخالف تقاليد الجهاز الإدارى الفاطمى، إذ أن قدوم الأيوبيين من مشرق العالم الإسلامى حمل معه روحاً جديدة فى الإدارة كان مصدرها النظم السلجوقية والزنكية والعباسية.

21- كان قراقوش من أروع القادة وأشجعهم وكانت سياسته فى القاهرة حكيمة وحازمة فى إزالة الفاطميين وتضييق الخناق على بقاياهم لذلك لم يجدوا سبيلاً لمحاربته إلا بالإشاعات وتشويه السمعة حيث وضعوا عنه كتاباً أسموه "الفاشوش فى أحكام قراقوش" وهى الإشاعات التى يرددها معاصرونا دون معرفة لمصدرها.

22- شرع صلاح الدين فى تحصين المدن وبناء القلاع وتنظيم الجيش لصد احتمال هجمات عليها، واهتم آنذاك ببناء قوات بحرية لأنه أدرك أن قوة الفرنج فى البحر وضعفهم فى البر، وأنه لابد من بناء أسطول حربى لمنع القوافل الفرنجية البحرية التى كانت تعزز الممالك الصليبية فى ساحل الشام بالمؤن والسلاح والرجال كلما اشتد عليهم الضغط البرى.

23- استغرق الجهد الذى بذله صلاح الدين لتوحيد الجبهة الإسلامية 12 سنة من الكفاح المرير وأضحى بعد ذلك سيد مصر والشام والموصل وغيرها من بلاد المسلمين، وقد تمكن صلاح الدين من تحقيق الوحدة أحياناً بالدبلوماسية وبالتهديد والترهيب أحياناً أخرى وبالعمل العسكرى المحدود فى بعض الأوقات.

24- القاضى الفاضل العالم الكبير كان مؤثراً فى دولة صلاح الدين وكان يشاوره ولا يقطع أمراً دونه ولا يخفى عنه شيئاً من أمور الجهاد، فقد كان سياسياً بارعاً وإدارياً متميزاً، ومفكراً متفوقاً، وعلماً متبحراً وأديباً تصدر الصادرة فى زمانه بقلمه السيال الذى وظفه لخدمة الإسلام والمسلمين.

25- كان انتصار صلاح الدين فى معركة حطين تاريخياً، ومن أسباب ذلك الفوز الكبير، الأخذ بسنة الأسباب ومراعاة سنة التدرج فى الصراع، وبعد نظره وحنكته السياسية وإخلاصه العظيم لله تعالى، والحرص على تطبيق الشريعة

الإسلامية فى دولته التى كان من ثمارها؛ الاستخلاف والتمكين والأمن والاستقرار والعز والشرف والنصر والفتح.

26- لم يظهر جيل صلاح الدين من فراغ وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأصبح ذلك الجيل الذى أكرمه الله بالنصر فى حطين تنطبق فيه كثيراً من صفات الطائفة المنصورة والتى من أهمها؛ أنها قائمة على الحق وأنها قائمة بأمر الله ومجاهدة فى سبيله .. إلخ.

27- كان صلاح الدين يلازم العلماء ويجالسهم ويستشيرهم فى الحروب والإدارة ويستمع إلى نصائحهم ويقدرها، وقد لاقى صلاح الدين التأييد التام من العلماء والفقهاء.

28- استطاع صلاح الدين أن يخترق الصليبيين استخباراتياً وكان له جهاز سرى متميز فى جمع المعلومات عن الأعداء.

29- كانت معركة حطين بشيراً بنجاح المسلمين فى القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم فى العصور الوسطى، كما شكلت حداً تراجع عنده المدُّ الصليبى باتجاه الشرق الأدنى الإسلامى وبداية النهاية للوجود الصليبى.

30- أبرزت هذه المعركة أهمية الوعى الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافى للشرق الإسلامى، واستثمار ميزاته، بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية ومن دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية مادية بالغة الأهمية فى الربط بين العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى، كما تجلت أهمية أرض فلسطين التى تُعدُّ بمثابة الجسر أو المعبر الذى يوصل بين بلاد الشام ومصر.

31- لم تأت انتصارات صلاح الدين من فراغ ولم تكن النتائج العسكرية التى حققها من دون مقدمات سياسية وتنظيمية وإدارية وإصلاحية وإحيائية امتدت على أكثر من قرن، ساهم فى تلك الجهود العلماء الربانيون والساسة والعسكريون والشعراء، والمربون .. إلخ.

32- إن الطريق الوحيد لتحرير الأراضى المحتلة هو طريق الجهاد فى سبيل الله الذى يمثل جوهر الأمن فى أمتنا وذروة سنام ديننا، إنه باب من أبواب الجنة إنه

انطلاق من قيد الأرض وارتفاع عن التثاقل إلى الدنيا، وما كانت الأمة أن تحمى وجودها ومقدساتها إلا بعبادة الجهاد فى سبيل الله، هذه العبادة التى مارسها نور الدين وصلاح الدين كانت من الأسباب للتصدى للغزو الصليبى وتحرير بيت المقدس.

33- يعدُّ المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة فى تاريخ الحروب الصليبية لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بُذل فيها من جهد ضخم فضلاً عن أنها لم تنجح فى تحقيق الهدف الذى جاءت من أجله وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين.

34- تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين، فكان الطرفان شديدى الصلة ببعضهما وتعدّى ذلك عقد صلح الرملة وإرسال الفواكه والثلج لريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه وحضور صلاح الدين لمعالجته وكان من آثار هذا الاختلاط فى حياة الفرنج ما يأتى:

I- نقلوا عن المسلمين كثيراً من العلوم والمعارف التى كانت سائدة بينهم فى تلك الفترة، وقد ألفوا فيها كتباً احتوت كثيراً من التجديد والابتكار ووضع قوانين فى هذه العلوم.

II- نقلوا عن المسلمين كثيراً من الصناعات والفنون مثل صناعة النسيج والصناعة والمعادن والزجاج كما نقلوا عنهم فن العمارة، وكان لهذا النقل تأثير عميق فى حياة أوروبا الصناعية والتجارية والفنية. يقول جوستاف لوبون: ولم يكن تأثير الحروب الصليبية فى الصناعة والفنون أقل من ذلك .. ثم يقول : وعن المسلمين أخذت أوروبا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة .. ولم يلبث فن العمارة أن تحول فى أوروبا تحولاً تاماً

III- تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية تأثراً أدى إلى نمو الحضارة الغربية وازدهارها،فلولا الحروب الصليبية لتأخر نمو الحضارة فى أوروبا مدة لا يعلمها إلا الله، ولقد اعترف المنصفون من المستشرقين بهذه الحقيقة قبل أن يقولها مؤرخو المسلمين.

35- تأثر الناس بوفاة صلاح الدين حتى المؤرخون الأوروبيون ترحموا على صلاح الدين وأشادوا بعدله وبقوته وتسامحه واعتبروه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة وفي ظني أن أعظم من في ذلك العصر نور الدين محمود.

36- كان حب صلاح الدين للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلاته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا من يذكره ويحثه عليه ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة.

37- جاءت وفاة صلاح الدين خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة إذ أنذرت هذه الوفاة بقيام المنازعات بين أبناء البيت الأيوبي.

38- إن هذا العمل المتواضع قابل للنقد والتوجيه، وما هو إلا محاولة جادة هدفها معرفة عوامل النهوض، وفقه المقاومة الذي مارسه الأيوبيون وبيني وبين الناقد قول الشاعر:

إن تجد عيباً فسد الخللا ... جلّ من لا عيب فيه وعلا

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه وأن لا يحرم إخواني الذين أعانوني على إكماله من الأجر والمثوبة، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: " ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ (الحشر).

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين.

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

أهم المراجع والمصادر

1- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تقى الدين أحمد بن على المقريزى دار الفكر العربى، 1367هـ - 1948م.

2- أثر الشرق الإسلامى فى الفكر الأوروبى خلال الحروب الصليبية، د.عبدالله بن عبدالرحمن الربيعى، الرياض، 1415هـ.

3- أسامة بن منقذ، والجديد من آثاره وأشعاره، محمد عدنان قيطاز، وزارة الثقافة فى الجمهورية السورية 1998م.

4- أسباب الضعف فى الأمة الإسلامية د.محمد السيد الوكيل، دار المجتمع السعودية، الطبعة الأولى،.

5- أصول الشيعة الإمامية، ناصر عبدالله بن على القفارى، دار الرضا للنشر والتوزيع الجيزة بمصر الطبعة الثالثة، 1418هـ - 1998م.

6- أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية الطبعة الأولى، 1977م.

7- أعمال الفرنجة، ترجمة حسن حبشى.

8- الأدب العربى من الانحدار إلى الازدهار، جودت الركابى، دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر دمشق الطبعة الثانية 2001م.

9- الاستخبارات العسكرية فى الإسلام، عبدالله على السلامة مناصرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1412هـ - 1991م.

10- الإسلام وحركة التاريخ، أنور الجندى.

11- الاعتبار لابن منقذ، حرّره فيليب حتى، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.

12- الإعداد المعنوى والمادى للمعركة فى ضوء القرآن والسنة، د. فيصل بن جعفر ابن عبدالله بالى مكتبة التوبة السعودية، الطبعة الأولى،، 1419هـ - 1999م.

13- الإمارات الأرتقية فى الشام والجزيرة، عماد الدين خليل.

14- الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه، د. يوسف القرضاوى، الطبعة الثالثة، 1413هـ - 1992م.
15- البداية والنهاية للحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى، دار هجر الطبعة الأولى،، 1419هـ - 1998م.
16- البطولة والفداء عند الصوفية دراسة تاريخية أسعد الخطيب، مطبعة الشام، الطبعة الثانية.
17- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تأليف ابن عذارى المراكشى، تحقيق ليفى بروفنسال.
18- التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبى.
19- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات، القاهرة 1963م للمؤرخ ابن الأثير.
20- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، نظير حسان سعداوى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م.
21- التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى فى المشرق الإسلامى من القرن الخامس الهجرى حتى سقوط بغداد، د.عبدالمجيد أبو الفتوح بدوى، الطبعة الثانية، 1408هـ - 1988م.
22- التعريف بالمؤرخين فى عهد المغول والتركمان عباس العزاوى، طبع ببغداد، 1376هـ/1957م.
23- الثبات على دين الله وأثره فى حياة المسلم فى ضوء الكتاب والسنة، د. الأمين الصادق الأمين دار ابن الجوزى، الطبعة الأولى، 2004م.
24- الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبى د. فايد حامد محمد عاشور دار الاعتصام الطبعة الأولى،.
25- الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى، مسفر بن سالم بن عريج الغامدى، دار المطبوعات الحديثة الطبعة الأولى،، 1406هـ - 1986م.

26- الجهاد والتجديد، محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى،، 1419هـ/ 1998م.
27- الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، د.محسن محمد حسين مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى،، 1406هـ - 1986م.
28- الحافظ أبو طاهر السلفى، د.حسن عبدالحميد صالح، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى، 1977م.
29- الحرب الصليبية حسن حبشى، الطبعة القاهرة 1958م.
30- الحركة الصليبية، سعيد عاشور، الطبعة الرابعة 1986، مكتبة الأنجلو المصرية.
31- الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب محمد مؤنس، الطبعة الأولى، 1999 / 2000م عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر.
32- الحروب الصليبية المقدمات السياسية د. علية الجنزورى الهيئة العامة المصرية للكتاب.
33- الحروب الصليبية فى شمال إفريقية وأثرها الحضارى د. ممدوح حسين، دار عمار طبعة 1989م.
34- الحروب الصليبية مواقف وتحديات، سهيلة الحسينى، دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة، الطبعة الأولى،، 1243هـ - 2003م.
35- الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحمد أبو زيد.
36- الحروب الصليبية، أرنست باركر، نقله إلى العربية د.السيد الباز العرينى دار النهضة العربية بيروت.
37- الحروب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، كارين أرمسترونغ.
38- الخطط للمقريزى.
39- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية د. قاسم عبدالله الطبعة القاهرة 1987م.

40- الدبلوماسية الإسلامية، عبدالرحمن محمد عبدالرحمن دار اليقين، مصر المنصورة، رسالة دكتوراه جامعة الأزهر الشريف.
41- الدولة الأيوبية، سمير فراج بن الشاطئ، مركز الراية للنشر والإعلام، القاهرة، طبعة أولى 2005م.
42- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، د.على محمد الصَّلاَّبى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
43- الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبى، مؤسسة اقرأ.
44- الشرق الأدنى، فى العصور الوسطى الأيوبيون د. السيد الباز العرينى، دار النهضة العربية.
45- الشرق الأوسط والحروب الصليبية، السيد الباز العرينى، طبعة القاهرة 1317هـ.
46- الصراع الإسلامى - الفرنجى على فلسطين فى القرون الوسطى، هادية دجانى مؤسسة الدّراسات الفلسطينية الطبعة الأولى، 1994م.
47- الطائفة المنصورة فى بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، الطبعة الأولى،، 1425هـ - 2004م.
48- الطريق إلى بيت المقدس د.جمال عبدالهادى د.وفاء محمد رفعت، دار التوزيع والنشر الإسلامية طبعة ثانية، 1422هـ - 2001م.
49- العدوان الصليبى على العالم الإسلامى صلاح الدين نوار.
50- العرب والروم اللاتين فى الحروب الصليبية الأولى دكتور جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية بيروت، طبعة ثالثة 1981م.
51- العمارة العربية فى مصر الإسلامية.
52- الغزو الصليبى والعالم الإسلامى، د.على عبدالحليم دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى،، 1414هـ - 1993م.
53- الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود الدار القومية للطباعة والنشر 1965م.

54- الفتوح الإسلامية عبر التاريخ د.عبدالعزيز بن إبراهيم العمرى دار إشبيليا، الطبعة الأولى،، 1418هـ - 1997م.
55- الفرق بين الفرق، تأليف عبدالقاهر بن طاهر البغدادى، تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد طبعة دار المعرفة بيروت.
56- الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى د. عبدالعزيز صلاح الدين سالم، مركز الكتاب للنشر، 1420هـ - 2000م.
57- القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى العسقلانى هادية دجانى شكيل، مؤسسة الدراسات الفلسطينية الطبعة الثانية، بيروت 1999م.
58- القدس تحت الحكم الصليبى ودور صلاح الدين فى تحريرها د. شفيق جاسر أحمد محمود، مكتبة الدار بالمدينة، الطبعة الأولى،، 1409هـ - 1989م.
59- القدس تناديكم أحمد عبدربه بصبوص، دار البشير عمان الطبعة الأولى،، 1415هـ - 1995م.
60- القدس فى العهدين الفاطمى والأيوبى د. وائل عبدالرحيم عبيد، الطبعة الأولى،، 1426هـ - 2005م.
61- القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط، أرشيالد لويس.
62- الكامل فى التاريخ لابن الأثير، دار المعرفة بيروت لبنان.
63- الكواكب الدرية فى السيرة النورية، تقى الدين أحمد بن قاضى شهبة، تحقيق: محمود زايد طبعة بيروت 1971م.
64- المدارس العصرونية فى بلاد الشام د. صادق أحمد داوود جودة، مؤسسة الرسالة، دار عمار، الطبعة الأولى،، 1406هـ - 1986م.
65- المستدرك على الصحيحين فى الحديث للحاكم أبى عبدالله النيسابورى.
66- المستشفيات الإسلامية من العصر النبوى إلى العصر العُثمانى، عبدالله عبدالرزاق مسعود السعيد دار الفياء عمان الأردن، الطبعة الأولى،، 1408هـ - 1987م.

67- المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى، عماد الدين خليل، دار ابن كثير، الطبعة الأولى،، 1426هـ - 2005م.
68- الملل والنحل، تأليف محمد عبدالكريم الشهرستانى، تحقيق محمد سيد كيلانى، جمع مصطفى البابى الحلبى بمصر، 1387هـ/1967م.
69- الموسوعة الشاملة فى تاريخ الحروب الصليبية د.سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، سوريا الطبعة الأولى،.
70- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ابن تغرى بردى جمال الدين أبو المحاسن يوسف.
71- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية بهاء الدين بن شداد، تحقيق أحمد ايبيش، دار الأوائل سوريا، الطبعة الأولى، 2003م.
72- الوافى بالوفيات، تأليف صلاح الدين بن أيبك الصفدى - تحقيق : هملوت ريتر - طبع: دار النشر فرانز ستانير (ألمانيا)، 1381هـ/1962م.
73- الوجير فى الشام أرض الأنبياء ومهد الأصفياء منير عدور، دار الفارابى للمعارف، دمشق الطبعة الأولى،، 1420هـ - 2000م.
74- الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، إبراهيم النعمة طبعة 1425هـ - 2004م مطبعة الزهراء الحديثة.
75- الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، إبراهيم النعمة طبعة 1425هـ -2004م مطبعة الزهراء الحديثة.
76- الوسيط فى تاريخ فلسطين فى العصر الإسلامي فاروق عمر فوزى د.محسن محمد حسين، دار الشروق.
77- إمارة الرها، علية الجنزورى.
78- أوروبا فى العصور الوسطى، سعيد عبدالفتاح عاشور.
79- أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبدة، الطبعة الثالثة، 1419هـ - 1999م.
80- بحوث فى تاريخ الحضارة الإسلامية، مجموعة البحوث التى ألقيت فى ندوة الحضارة الإسلامية فى ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكرى عام 1976م، الناشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.

81- بغية الطلب فى تاريخ حلب.
82- بيت المقدس أمام أحداث التاريخ وديع تسلحوق.
83- بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية د. عبدالجليل حسين عبدالمهدى، دار البشير، الطبعة الثانية، 1415هـ- 1995م.
84- بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية.
85- بيت المقدس والمسجد الأقصى دراسة تاريخية مؤثقة محمد محمد حسن شُرّاب، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى،، 1415هـ- 1994م.
86- تاريخ ابن خلدون.
87- تاريخ ابن خلدون.
88- تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة عشر، 1411هـ- 1991م.
89- تاريخ الأيوبيين فى مصر وبلاد الشام والجزيرة، محمد سهيل طقوس، دار النفائس الطبعة الأولى، لبنان، 1400هـ- 1999م.
90- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د.السيد الباز العرينى، الطبعة الثالثة، 1413هـ- 1993م.
91- تاريخ الحروب الصليبية، سعيد عبدالله البيشاوى محمد مؤنس عوض، منشورات بيت المقدس، طبعة عام 2004م.
92- تاريخ الزنكيين فى الموصل وبلاد الشام، محمد سهيل د.محمد سهيل ضقوس، دار النفائس بيروت لبنان الطبعة الأولى،، 1419هـ- 1999م.
93- تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان دار العلم للملايين بيروت لبنان طبعة 14عام 2000م.
94- تاريخ الفاطميين، سهيل طقوس دار النفائس بيروت، لبنان.
95- تاريخ الفاطميين، محمد سهيل طقوس، دار النفائس الطبعة الأولى،.
96- تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، الطاهر أحمد الزاوى دار التراث العربى، الطبعة الثالثة.

97- تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، للطاهر الزاوى دار التراث العربى، ليبيا، الطبعة الثالثة.
98- تاريخ القبائل العربية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، د. محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة طبعة 1998م.
99- تاريخ الوطن العربى والغزو الصليبى، خاشع المعاضيدى سوادى عبد محمد، دريد عبدالقادر نورى، الطبعة الثانية 1986م.
100- تاريخ اليمن الإسلامى د. محمد عبده السرورى مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء الطبعة الثانية 2003م.
101- تاريخ دولتى المرابطين والموحدين، د. على الصَّلاَّبى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
102- تاريخ سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى،، 1423هـ - 2002م.
103- تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب د. أحمد فؤاد سيد، مكتبة مدبولى طبعة 2002م.
104- تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، على محمد الصَّلاَّبى، دار الصحابة الشارقة، طبعة أولى.
105- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضى عياض، تحقيق د. أحمد بكير محمود، طبع مكتبة الحياة - بيروت.
106- تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبدالعزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم مطبعة الشعب، القاهرة، مصر.
107- تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبدالعزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم مطبعة الشعب، القاهرة، مصر.
108- تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطى والمحلاوى.
109- تنظيم صفة الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية، د. جميل عبدالمجيد عطية، مكتبة العبيكان الطبعة الأولى، 2002م.

110- جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول د.فرست مرعى صنعاء 2003م الطبعة الثانية المنتدى الجامعى.
111- جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية د.فايد عاشور: مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة، 1405هـ.
112- جهود علماء المغرب فى الدفاع عن عقيدة أهل السنة د.إبراهيم التهامى، مؤسسة الرسالة ناشرون الطبعة الأولى،، 1426هـ- 2005م. لبنان سوريا.
113- حاضرة العرب، ترجمة عادل زعيتر.
114- حروب القدس فى التاريخ الإسلامى والعربى، اللواء الركن د. ياسين سويد، دار الملتقى للطباعة والنشر، طبعة عام 1997م بيروت، لبنان.
115- حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها د.محمود إبراهيم دار البشير عمان، الطبعة الأولى،، 1407هـ- 1987م.
116- حطين وقائع وعبر، عبدالفتاح عاشور.
117- حُكم قراقوش، الأمير المفترى عليه بهاء الدين قراقوش، دار البيارق عمان سمير عزام الطبعة الأولى،، 1420هـ- 1999م.
118- حياة صلاح الدين، محمود شلبى، دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة، 1409هـ- 1989م.
119- خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى، د.عاصم محمد رزق، مكتبة مدبولى القاهرة، الطبعة الأولى،، 1417هـ- 1997م.
120- دراسات تاريخية د.عماد الدين خليل.
121- دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، د. نعمان محمود جبران د. محمد حسن العمادى، الطبعة الأولى،، 2000م.
122- دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، دكتور السيد عبدالعزيز سالم، د. سحر عبدالعزيز سالم مؤسسة شباب الجامعة 1992م، الإسكندرية.
123- دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب محمد مؤنس عوض.

124– دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى، عز الدين عمر أحمد موسى، دار الشروق، الطبعة الأولى،، 1403هـ – 1983م.
125– دراسة وثيقة للتاريخ الإسلامي ومصادره من عهد بنى أمية حتى الفتح العثمانى لسورية ومصر، محمد ماهر حماده، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1408هـ.
126– دروس وتأملات فى الحروب الصليبية لأبى فارس دار الفرقان، عمان، الأردن.
127– دور الفقهاء والعلماء فى الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية د. آسيا سليمان نقلى، مكتبة العبيكان 2002م.
128– دور المرأة فى الاستخبارات الإسلامية د.سلامة محمد الهرفى البلوى، الطبعة الأولى، 1414هـ – 1994م.
129– دور نور الدين فى نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، عبدالقادر أحمد بو صينى رسالة دكتوراه، معهد التاريخ العربى والتراث العلمى للدراسات العليا.
130– دول الإسلام للذهبى، شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى دار صادر بيروت الطبعة الأولى، 1999م.
131– دولة السلاجقة للصَّلاَّبى، دار المعرفة الطبعة الأولى، 1427هـ – 2006م.
132– ديوان ابن الخياط.
133– ذيل دمشق، أبو يعلى حمزة ابن القلانسى، تحقيق أميدروز، طبعة بيروت 1908م.
134– رجال الفكر والدعوة، أبو الحسن الندوى، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.
135– رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية تأليف أبى بكر عبدالله بن محمد المالكى تحقيق بشير البكوش – طبع: دار الغرب الإسلامى، 1403هـ – 1983م.
136– زبدة حلب من تاريخ حلب، كمال الدين أبو القاسم ابن العديم، تحقيق سامى الدهان طبعة دمشق 1954م.

137– سقوط دولة الموحدين، د. مراجع عقيلة الغناى، 1409هـ– 1988م منشورات جامعة قاريوس.
138– سلاجقة إيران والعراق عبدالمنعم حسين.
139– سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق : عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد.
140– سنن الترمذى الجامع تأليف : محمد عيسى بن سورة الترمذى، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر – مطبعة مصطفى البابى الحلبى – الطبعة الأولى، 1356هـ.
141– سنن سعيد بن منصور.
142– سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد أحمد الذهبى مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة 1990م.
143– شجرة النور الزنكية فى طبقات المالكية : تأليف محمد بن محمد مخلوف، طبع دار الكتاب العربى بيروت.
144– شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلى، دار الآفاق الجديدة.
145– شرف الدين مودود، عبدالغنى رمضان.
146– شعر الجهاد الشامى فى مواجهة الصليبيين د.فؤاد حسن حسين أبو الهيجاء، دار المناهج للنشر والتوزيع عماد الأردن، الطبعة الأولى، 1424هـ –2004م.
147– شعر الجهاد فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام د.محمد على الهرفى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1400هـ– 1980م.
148– شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلى، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، طبعة عام 1996م – 1415هـ.
149– صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت طبعة 1989م.

150- صحيح البخارى لأبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى، دار الفكر الطبعة الأولى، 1411هـ - 1991م.
151- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، طبع دار إحياء الكتب العربية القاهرة، الطبعة الأولى، (1374هـ - 1955م).
152- صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزى الطبعة الثانية، 1412هـ - 1991م المملكة العربية السعودية.
153- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامى، د.على محمد الصَّلاَّبى، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، 1428هـ - 2007م.
154- صلاح الدين الأيوبى أبو الحسن على الحسنى الندوى، دار القلم دمشق - بيروت، الطبعة الثالثة، 1400هـ - 1980م.
155- صلاح الدين الأيوبى الأتقى فى الإسلام البيرشاندور ترجمه عن الفرنسية سعيد أبو الحسن الطبعة الثانية، 1993م.
156- صلاح الدين الأيوبى بطل الإسلام الصالح مجموعة من الأخصائيين التربويين، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، 1408هـ - 1988م.
157- صلاح الدين الأيوبى بين العباسيين والفاطميين والصليبيين دار الجديد، طبعة ثانية جديدة طبعة 2000م.
158- صلاح الدين الأيوبى قاهر العدوان الصليبى، محمد بيومى دار القلم، دمشق.
159- صلاح الدين الأيوبى ورقة عمل لقادة الدعوة الإسلامية، دار الإيمان، د. بسام الزرقا.
160- صلاح الدين الأيوبى وسقوط القدس وتحريرها.
161- صلاح الدين الأيوبى، أحمد عبدالجواد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت الطبعة الأولى، 1424هـ - 2004م.
162- صلاح الدين الأيوبى، السير هاملتون. آ. ر. جب مكتبة بيسان.
163- صلاح الدين الأيوبى، قدرى قلعجى الطبعة الثالثة 1997م المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت، لبنان.

164– صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، شاكر مصطفى، دار القلم دمشق.
165– صلاح الدين القائد وعصره د. مصطفى الحيارى، دار الغرب الإسلامى، الطبعة الأولى، 1415هـ.
166– صلاح الدين سقوط القدس وتحريرها، قراءة معاصرة وليد نويهض، دار ابن حزم لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ– 1997م.
167– صلاح الدين والصليبيون استرداد بيت المقدس، عبدالله سعيد محمد الغامدى، دار الفضيلة بيروت، لبنان، 1405هـ– 1985م.
168– صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، د. أحمد الشامى، الطبعة الأولى، 1991م مكتبة النهضة المعربية، القاهرة.
169– صلاح الدين وتحرير القدس، علية المهتدى الزبدة الطبعة الأولى، 1414هـ– 1994م وزارة الثقافة الأردنية.
170– صلاح الدين، عبدالله علوان، دار السلام مصر.
171– طبيعة العامة فى مصر فى العصر الأيوبى شلبى إبراهيم الجعيدى، الهيئة المصرية للكتاب 2003م.
172– عصر الدولة الزنكية، د. على محمد الصَّلاَّبى مؤسسة إقرأ، القاهرة مصر.
173– عماد الدين زنكى، عماد الدين خليل، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.
174– عمران القاهرة وخططها فى عهد صلاح الدين الأيوبى د.عدنان محمد فايز الحارثى، مكتبة زهراء الشرق القاهرة.
175– عيون الروضتين فى أخبار الدولتين، شهاب الدين أبو شامة، حققه أحمد البيسومى وزارة إحياء التراث العربى، دمشق 1991م.
176– فن الصراع الإسلامى الصليبى – السياسة الخارجية للدولة النورية، د.محمد مؤنس أحمد عوض، عين للدراسات والبحوث الطبعة الأولى، 1998م.
177– فى التاريخ الأيوبى والمملوكى د. أحمد مختار العبادى مؤسسة شباب الجامعة.

178- قصة الحضارة : ول ديورانت - ترجمة محمد بدران طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر 1957م.
179- كتاب التوحيد لمحمد عبدالوهاب.
180- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.
181- لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد الأقصى وإحباط المؤامرة العالمية على الأمَّة الإسلاميَّة د. مجاهد مجد الدين بن صلاح الدين، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1994م.
182- ليبيا منذ الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر د. صالح مصطفى مفتاح المزينى، منشورات جامعة قريونس بنغازى، الطبعة الثالثة 1994م.
183- ماهية الحروب الصليبية، الإيديولوجية، الدوافع، النتائج، قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل الكويت الطبعة الثانية، 1993م.
184- مجاهد الدين قايماز نائب إربد الموصل، د. صادق أحمد جودة، مؤسسة الرسالة ودار عمار، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1985م.
185- محاضرات فى الفكر والدعوة للندوى، أبى الحسن الندوى، دار ابن كثير، دمشق الطبعة الأولى، 2001م.
186- مختصر صحيح مسلم للمنذرى.
187- مختصر كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، اختصار وتعليق د. محمد بن حسن بن عقيل موسى دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.
188- مدرسة الحديث بالقيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامى، الطبعة الأولى، 1411هـ.
189- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، سبط بن الجوزى حيدر آباد الدكن 1951م.
190- مصر فى العصور الوسطى من العصر المسيحى حتى الفتح العثمانى، محمود محمد الحويرى الطبعة 2002م المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات.

191- مصر والشام فى عهد الأيوبيين والمماليك د. سعيد عبدالفتاح عاشور، دار النهضة العربية، بيروت.
192- مظاهر الحضارة الإسلامية فى اليمن فى العصر الإسلامى د. أسامة أحمد حمّاد، مركز الإسكندرية للكتاب الطبعة الأولى، 1425هـ - 2004م.
193- معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تأليف عبدالرحمن بن محمد الأنصارى الدباغ، تحقيق إبراهيم سبوح - طبع مكتبة الخانجى بمصر - الطبعة الثانية.
194- معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية محمود سعيد عمران.
195- معاهدات الصلح والسلاح بين المسلمين والفرنج.
196- معجم البلدان، شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت الحموى، بيروت، دار صادر 1979م.
197- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل.
198- مقاتلون فى سبيل الله، جيمس رستون الابن نقله إلى العربية رضوان السيد، مكتبة العبيكان، طبعة 2002م.
199- مقومات النّصر فى ضوء القرآن والسنة د. أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية صيدا - بيروت الطبعة الأولى، 1420هـ - 1999م.
200- مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق.
201- من أجل فلسطين مواقف عبر التاريخ الإسلامى حُسنى أدهم جَرّار، مؤسسة الزيتونة، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998م، دار البشير.
202- موسوعة المغرب العربى للغنيمى، عبدالفتاح مقلد الغنيمى، الناشر، مكتبة مدبولى، طبعة 1979م.
203- موسوعة تاريخ العرب، العصر الأيوبى عبدالمنعم الهاشمى، دار البحار بيروت الطبعة الأولى،.
204- موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبى جمال محمد سالم خليفة، الجماهيرية الليبية، جامعة الفاتح، 2000م.

205- نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية عمر الساريس دار المنارة، جدة السعودية الطبعة الأولى، 1405هـ - 1985م.
206- نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي د.عبدالهادى محمد رضا محبوبة، الدار المصرية اللبنانية.
207- نهر الذهب فى تاريخ حلب، كامل بن حسين الغزى، المطبعة النورية.
208- نور الدين زنكى فى الأدب العربى فى عصر الحروب الصليبية، تأليف محمود فايز إبراهيم السرطاوى دار البشير عمَّان الأردن الطبعة الأولى، 1411هـ - 1990م.
209- نور الدين محمود والصليبيون، حسن حبشي.
210- نور الدين محمود، الرجل والتجربة، عماد الدين خليل، دار القلم، 1400هـ - 1980م.
211- نور الدين محمود، حسين مؤنس، الدار السعودية الطبعة الثالثة، 1408هـ - 1987م.
212- هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامى د. عماد الدين خليل مكتبة النور، الطبعة الأولى، 1407هـ - 1986م.
213- هكذا ظهر جيل صلاح الدين د.ماجد عرسان الكيلانى، دار القلم، الإمارات العربية الطبعة الثالثة، 1423هـ - 2002م.
214- هموم داعية، محمد الغزالى، دار القلم.
215- واقدساه، د. سيد حسين العفّانى، مكتبة معاذ بن جبل، دار العفانى، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2001م.
216- وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى، محمد ماهر حماده، بيروت 1986م.
217- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، لابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت.

فهرس المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة

I.S.B.N. 977-350-184-1



التاريخ السياسي والعسكرى والإدارى

لصلاح الدين الأيوبى

فى معركة حطين وفتح بيت المقدس